حنا نمر

دراسات في الأدب والفن

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ش.م.

دراسات في
الادب والفن

الطبعة الاولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٤٢٨ ص . ب ١١٣/٦٣١١ بيروت ـ لبنان

الخطابة

الخطابة نوع من الكلام غايته اقناع السامعين ، وهدفه التأثير في عواطفهم وعقولهم ، وكثيراً ما يؤثر الخطيب في السامعين فيصفقون له معجبين . ويقتنعون بما يدعوهم إليه راغبين متحمسين ، ويتبعونه في مذهبه مقتنعين مؤيدين .

وللخطابة أساليب تنحط به عن أوزان الشعر وأنغامه ، وتعلو به عن النثر المرسل في جرسها وانسجامها ، وكثيراً ما نعجب بخطبة من الخطب ونؤخذ بفنها وجمالها حتى إذا قرأناها زال كثير من ذلك الفن الرفيع ، وانحط قدر كبير من ذلك لسحر الأخاذ ، وتلك الفتنة الرائعة ، فما يحسن القاؤه لا تحسن كتابته ، وما تسحر خطبته لا تفتن قراءته .

وأبرز ما في الأسلوب الخطابي قصر في الجمل والفقرات ، وانسجام بين الغرض والكلام ، وجرس عذب ، قوي أو رقيق ، في طيات العبارة والألفاظ .

وكان للخطابة في العصور القديمة أثر في النفوس يفوق أثر الكتابة وما يزال ، ولكن الطباعة أخذت بضبط الكتابة فشرعت تزاحم الخطابة في التأثير ، وحققت تفوقها في الانتشار ، ولكن الخطباء ما يزالون أئمة رجال الفن في إذكاء نار الحماسة في القلوب ، وما يزالون زعماء الجماهير قبل الشعراء والكتاب .

وقد نبغ عدد من الخطباء في العالم كان لهم أثر كبير في قيادة الجماهير ، وكانوا

الطليعة في سبل الانتفاضات والثورات ، والقادة في معارك الاصلاح والتدمير . ومن أشهر خطباء العالم ديموستين اليوناني ، وشيشرون الروماني ، وميرابو الفرنسي ، والرسول العربي ، وغيرهم كثير .

الخطابة في الجاهلية

كانت الخطابة في الجاهلية أسلوب العرب في أكثر أغراضهم ، ووسيلتهم في التعبير عن أفكارهم . وكان الذين يعرفون الكتابة قليلاً عددهم ، ضعيفاً شأنهم ، أما الشعر فكان يسير على ألسن الرواة وإذا كان في أكثر الأحيان ينشد انشاداً ، فكثيراً ما كان يلقى إلقاء كخطب النثر ، وكثيراً ما تكون الغاية من الإنشاد الإقناع لا الموسيقى والغناء ، ومن أغراض الشعر في الجاهلية التفاخر والتنافر وهما إلى الخطابة ألصق ، ومنها دعوة القبائل العربية إلى النفار والقتال ، أو إلى الصلح والسلام ، أو إلى نصرة ضعيف ، وللدفاع عن الحمى والأعراض ، أو إلى الإتحاد بين قبيلتين أو أكثر ، وكل ذلك من أغراض الخطابة وأهدافها . وعندما احتكمت تغلب وبكر الى عمرو بن هند كان خطيبا القبيلتين شاعرين وكانت خطبتاهما معلقتين .

وأهم أغراض الخطابة في الجاهلية التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، والدعوة إلى الصلح بعد حرب ضروس ، والمفاخرة بمحامد الفرد والقبيلة ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وترك الشر والتمسك بالصلاح ، ومنها خطب الزواج وغير ذلك من الأغراض الكثيرة مما يتعلق بحياة العرب في الجاهلية ، وعلاقة بعض القبائل ببعضها ، واتصال العرب بالأمم الأخرى .

وكان الخطيب في غير خطب الزواج يخطب قائماً أو على مرتفع من الأرض أو على ظهر راحلته ، وكان يلوث عمامته ويعتمد على عصا أو رمح أو قوس .

ومن أشهر خطباء الجاهلية قيس بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء ، وهانىء بن قبيصة الشيباني خطيب بكر يوم ذي قار ، وقس بن ساعدة

الأيادي خطيب العاطفة والأسلوب في الأدب الجاهلي ، وأكثم بن صيفي خطيب الحكمة والفكر في الجاهلية .

أما قس فكان يعتمد على تزيين العبارة ، وتهذيب الفقرة ، وتقصير الفاصلة في السجع ، كما كان يعتمد على التأثير في العواطف ، قال : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج[1] ونهار ساج[2] وسماء ذات أبراج . . . إن في السماء لخبرا ، وان على الأرض لعبرا . . . يقسم قس قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه » .

أما أكثم فكان يعتمد على التأثير في التفكير ، ولذلك قل سجعه وكثرت حكمه ، وكان كلامه أمثالاً موجزة جامعة تصلح كل عبارة منها لأن تكون عنواناً لكتاب ، أو دستوراً لحكمة واجتماع ، قال : « الصدق منجاة ، والكذب مهواة . . آفة الرأي الهوى[3] والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة[4] وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي . شر الملوك من خافه البريء . حسبك من شر سماعه . الصمت حكم[5] وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نفر ، ومن تراخى تألف » .

الخطابة في صدر الإسلام

ارتقت الخطابة في صدر الإسلام رقياً سريعاً عظيماً ، وقفزت إلى أوج مجدها قفزة قوية متينة ، وزاحمت الشعر حتى كادت تتركه وراءها بمراحل طويلة مديدة ، وكان لها من القرآن والدين والأحداث عوامل رفعتها إلى ذروة الإرتقاء في الأعصر

---

(1) داج : مظلم .
(2) ساج : ساكن .
(3) الهوى : الميل من حب أو بغض .
(4) الورطة : الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه .
(5) الحكم : الحكمة .

الأدبية العربية كلها ، وقد أشرق في هذا العصر نور سام وهاج ، وسطع ذلك المصباح الهادي الوضاح ، وقام النبي ﷺ يدعو الناس إلى الدين الحنيف ، فقاومته قريش وقامت تدعو إلى احترام الآباء والأجداد والتمسك بالتقاليد المرعية والعادات المألوفة ، فنشبت حرب بين القديم والجديد ، وسعى كل منهما في الدعوة إلى مذهبه وإقناع العرب بدعوته . وما الدعوة الإسلامية إلا إنقلاب جذري خطير ، وكل انقلاب يحتاج إلى خطباء مصاقع يؤثرون في الجماهير فيستميلونها ، وتعمل أقوالهم في العواطف فتثيرها ، وتسعى إلى دغدغة الأفكار فتقنعها ، وفي كل إنقلاب قبل أن تقوم دعائم الإنقلاب قوية متينة يكثر الخطباء المبرزون ، ويتسلمون زعامة الشعوب وقيادة الجماهير ، والحكم في كل انقلاب للخطباء المبرزين .

وانتقلت حياة العرب من الوحدة القبلية إلى الوحدة الدينية ، فانتقل ميدان الخطيب من القبيلة إلى الأمة ، وانتقل تأثيره من إثارة الحماسة إلى الإقناع . ولم يكن في استطاعة الخطيب في الجاهلية أن يجعل من التغلبي بكرياً ، ومن العبسي ذبيانياً ، أما في الإسلام فقد أصبح في استطاعة الخطيب أن يجعل من الكافر مسلماً إذا أجاد ، وأن يضم إلى دعوته قبائل إذا قويت حجته وراقت بلاغته .

وشغف الناس في هذا العصر بالقرآن الكريم وأعجبوا ببلاغته وأسلوبه وإعجازه ، وحفظوا سوره وآياته ، وقاموا على تلاوته وترتيله ، وأسلوب القرآن أسلوب الخطابة المعجز البليغ بسجعه وجرسه وانسجامه ، وأغراض القرآن أغراض الخطابة نفسها من وعد ووعيد ودعوة واقناع ، وحجة وفكرة وأحكام ، وحض على الصلاح ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ولذلك كان أسلوب العرب في هذا العصر تقليداً للقرآن فكأنه أسلوب الخطابة نفسها .

وجاء الإسلام يوحد القبائل العربية ، فكان لا بد له من القضاء على ما كان بينها من عداء في الجاهلية ومفاخرات ومنافرات قبل الإسلام ، وكان من مصلحة الوحدة العربية الإسلامية أن تنسى القبائل أيام حروبها ، وأن تترك منافراتها ومفاخراتها ، وكان الشعر ينبش الخصومات القديمة ويثير العداء القبلي ، كما كان

يحض على المنكر ولا يخجل من الرذيلة والمحرمات . نزل في القرآن : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ . ومنع الخلفاء الراشدون إنشاد شعر التنافر والتفاخر ، وشددوا في منع إنشاد الشعر كله . قيل أن عمر بن الخطاب مر بمسجد الرسول فسمع حسان ينشد الشعر ، فأخذه بأذنه وقال : « أرغاء كرغاء البعير » . وكان المتدينون يزهدون في قول الشعر ، ولذلك انصرف المسلمون عن الشعر الى الخطابة فزاحمته وتبوأت عرشها السامي ، وبلغت الذروة . وسبقت الشعر حتى كادت تقضي عليه .

وكان للخطابة من الشرع الإسلامي أقوى حلف وأنفع نصير ، فقد فرضها الشرع على الأئمة في كل حفل كبير كالجمعة والعيدين وموسم الحج ويوم الصف وكل أمر جامع ، فأتقنها الأئمة والزعماء ، وبرع فيها الحكام والعمال ، وشغفت بها الخاصة والعامة ، وتمرن عليها الطامحون في الإمامة والزعامة والقيادة ، فعملت في الأمة ما لم يعمله الشعر في قيادة الجماهير ، والوصول إلى زعامة الأحزاب وتدبير أمور الدولة . وكثيراً ما تبوأ الخطيب المناصب العالية ببلاغته ، وبلغ المراتب الراقية بفصاحته . وكان الحجاج بن يوسف معلماً للصبيان فأصبح والياً للعراقيين بفضل خطابته وقوة بلاغته وحجته .

والناس على دين ملوكهم ، والجماهير تقلد الأئمة في ميولها ، ولذلك أصبحت الخطابة في صدر الإسلام حلية الأديب وهدف الفصيح ومثال البليغ ، يطلبها البلغاء حبا بها ، وينبغ الطامحون فيها طمعاً بالفصاحة وإعجاباً بالبلاغة .

وقام الخلفاء الأمويون يعيدون العصبية ، ويثيرون الميول الحزبية ، وكثرت الأحزاب في عهدهم واشتد ساعدها ، وقامت على أسس العقائد والمبادىء ، فاحتاج كل حزب إلى خطباء ينشرون دعوته ، ويدعون إلى مذهبه وعقيدته ، وسهل على الخطيب قيادة الجماهير ، فكان للخطابة من الأحزاب أقوى نصير .

ونبغ في صدر الإسلام خطباء فحول غيروا النظم الاجتماعية ، ونفخوا في الأمة العربية روح الثقة بالنفس ، وأثاروا في قلوب المسلمين حماسة لم يعرف لها

التاريخ مثالاً ، وبعثوا في نفوسهم شجاعة معنوية باهرة ، فكادوا يملكون العالم في زمن قليل .

وتختلف الخطابة في هذا العصر عنها في العصر الجاهلي بأغراضها الدينية وخططها السياسية وقوة تأثيرها في النفوس ، ترقق الأفئدة القاسية ، وترفع الناس إلى ميدان الفضائل الدينية السامية والأخلاق الكريمة الفاضلة ، وتدعو المسلمين إلى الجهاد فيلبون الدعوة راغبين مؤمنين متحمسين .

وتأثرت بالقرآن الكريم حتى اشترط بعضهم أن تتضمن خطب الجمعة شيئاً من آياته ، وكان من أثر القرآن فيها أن صفا لفظها ، وسهلت عبارتها ، ومتن أسلوبها ، وتنوعت بين الإيجاز والإسهاب حتى لم يزد بعضها على فقرات قليلة حين استغرق بعضها نحو نصف نهار . وأصبح الإبتداء بحمد الله والثناء عليه شرطاً واجباً من شروطها حتى دعيت خطبة زياد بالبتراء لأنها لم تبتدىء بحمد الله .

الخطابة في العصور العباسية

كان للفرس في قيام الدولة العباسية أثر قوي شديد ، فكان لهم في ضعف أمر الخطابة أثر قوي كبير ، وكان قائد جيش الثورة العباسية أبو مسلم الخراساني فارسياً يكره العرب ، ولا شك في أن جيشه من الموالي كان يكره بلاغة العرب وفصاحتهم[والخطابة بلاغة وفصاحة .

وكان للعرب أثر آخر قوي في قيام الدولة العباسية ، فكان للبلاغة في جيوشهم نصيب وافر ، وللفصاحة بينهم أثر قوي ، ولذلك حافظت الخطابة على قوتها ، وتمسكت ببلاغتها ، وإذا كان ماضي الفرس المجيد ، وعداؤهم اللدود للعرب يثيرانهم لتهديم أوصال الدولة الأموية ، فقد كان للبلاغة أثر في إثارة الجيوش العربية على بني أمية .

وكان أنصار العباسيين من الفرس والعرب معاً ، وما استتب الأمر لهم حتى ذر النزاع بين العباسيين والفرس قرنيه فقتل المنصور أبا مسلم الخراساني ، وانتصرت

البلاغة على العجمة ، فكان للخطابة في مطلع العصر العباسي الأول أثر بليغ .

وعاد النزاع بين الفرس والعرب ، وقوي نفوذ الفرس ، فأخذ معول العجمة يهدم في صرح البلاغة ، وأخذت الخطبة تتدهور عن عرشها الرفيع .

وقوي سلطان الخلفاء والوزراء ، وضعف شأن الثورات والأحزاب ، فضعف شأن الخطابة ، وخف تأثير البلاغة ، وتدهور أمر الخطباء .

وانصرف الناس إلى الشعر ينشدونه وينعمون ببيانه وأنغامه ، فزاحم الخطابة وأضعفها حتى كاد يقضي عليها لولا خطب الجمع والمواسم والأعياد .

وترجم العرب كتب الفرس والروم من علمية وأدبية ، فانصرف الناس إلى التبحر في العلوم ، والتفنن في الإنشاء ، وزاحم النثر الفني الخطابة ، كما زاحمها الشعر ، فلم تثبت على غير الأحداث ، ولم تقو على مزاحمة العلم والفن ، فضعف أمر الخطباء ، ولكن ظل لهم في الشام والأندلس ميدان رحيب .

وضعف شأن العرب والفرس معاً في العصر العباسي الثاني ، وحل السيف محل البلاغة ، فتدهورت الخطابة إلى الحضيض ، وكبت كبوة لم تقم بعدها إلا في عصر النهضة الحديثة .

وتولى كثير من الموالي قيادة الجيوش ، وولاية الأعمال والمواسم ، فضعف شأن الخطابة حتى كاد يحشرج ، وقل فيها الإرتجال وحل محلها في السياسة نشر المنشورات ، وفي الدين مجالس الوعظ والتعليم ، وأصبح كثير من خطباء المساجد يقرأون خطباً كتبها سواهم ، ويلقون مواعظ دونها سلفاؤهم .

وكانت عصور الإنحطاط ، ونشر الجهل على العرب لواءه ، وبسط الظلم على الناس أعلامه ، وأصاب الخطابة من الجهل والظلم رشاش كثير .

عصر النهضة

وكانت النهضة الحديثة ، فأفاق العرب بعد نوم عميق ، وشعروا

بالقومية بعد جهل طويل ، وأحسوا بالظلم بعد استبداد وانتهاك وتنكيل ، فأفاقت الخطابة من سباتها ، وهبت البلاغة من رقدتها ، وكان لهما في قلوب الجماهير تأثير قوي كبير .

وشعر العرب بظلم الأتراك ، فهب الزعماء إلى إثارة حماسة الجماهير ، وأحسوا بظلم الإستعمار وهو الاستغلال ، فكان للخطابة أثر في دعوة الناس إلى الانتفاضات والثورات ، وقام في النهضة خطباء زاحموا خطباء العرب القدماء في البلاغة والفصاحة والتأثير ، وما زال العرب في جهاد ، وما تزال الخطابة في رقي واعتلاء ، وما يزال للبلاغة أثر في بعث الحماسة في القلوب . ومن خطباء النهضة مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما كثير .

علي بن أبي طالب (ت40 هـ 661 م)

ولد في مكة قبل ظهور الإسلام بسبع سنين ، وعندما بلغ من العمر ست سنين نقله النبي ﷺ إلى داره وتولى تربيته فحسن تهذيبه وسمت أخلاقه فشب على الصدق والأمانة ، وعرف بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، والشدة في الحق ، لا يلين لأهل الإثم ولا يخشى في ذلك لومة لائم .

وشب علي فارساً شجاعاً وبطلاً مقداماً ، وكان شديد البلاء في الحروب حتى لقب بسيف الإسلام .

وتزوج فاطمة بنت النبي ، فولدت له الحسن والحسين ، ولم يعش من صلب الرسول غير أبناء علي .

وقبض النبي ، وقام قوم يريدون الخلافة لعلي ، فلم يوفقوا إلى ما يريدون ، بل بويع أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، وكانوا يستشيرونه في الأمور الصعاب ، ويهتدون برأيه في إدارة شؤون الدولة ، وهو الذي أشار على عمر باتخاذ الهجرة مبدأ

للتاريخ في الإسلام ، وقيل أنه أول من أشار عليه بجمع القرآن .

وتفرق العرب في خلافة عثمان ، وثار بعضهم يريد عزله ، وحاصره بعضهم في داره في المدينة ، فاستغاث عثمان بعلي ، فأرسل علي ولديه للدفاع عن عثمان . ولكنه قتل والمصحف في حجره ، فكانت بداية الفتنة التي فرقت بين المسلمين .

وبويع بالخلافة سنة 656 م ـ 35 هـ . فثار عليه طلحة والزبير . وكانت موقعة الجمل التي انتصر فيها علي وقتل طلحة والزبير . وسميت تلك الموقعة بموقعة الجمل لأن عائشة زوج النبي كانت تركب فيها على جمل وتحرض الأبطال على علي ، ولكنه أكرمها بعد انتصاره فكان سياسياً ماهراً كما كان بطلاً قاهراً .

وامتنع معاوية في الشام عن بيعة علي ، فلما فرغ علي من أمر طلحة والزبير سار يريد معاوية ، فالتقى الجيشان في صفين على الفرات ، وطال القتال بينهما حتى بلغ عدد الوقائع نحو تسعين واقعة .

وكاد جيش علي ينتصر ، فأمر معاوية برفع المصاحف على الرماح طلباً لتحكيم كتاب الله ، وعرف علي أنها حيلة من حيل معاوية ، فأمر جيشه بمتابعة القتال ، ولكن جيشه رفض أمره ، فكان رأي علي الرأي الصواب ولكن « لا رأي لمن لا يطاع » .

وخرج على علي جماعة من جيشه لأنه رضي بالتحكيم ، فكانت نشأة الخوارج ، وحارب علي الخوارج فغلبهم ، وعاد إلى الكوفة يستعد لحرب معاوية ، فضربه ابن ملجم الخارجي بسيف مسموم ، ومات في اليوم الثالث من ضربه ، وكانت وفاته في العشرين من شهر رمضان سنة 40 للهجرة .

وعلي من عظام الرجال في التاريخ . قال الشعبي : « أحبه قوم فكفروا في حبه ، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه » . وقال ضرار بن ضمرة : « يعجبه من الطعام ما خشن ومن اللباس ما قصر ، يجيبنا إذا دعوناه ، ويعطينا إذا سألناه ، وكنا والله على تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة له » .

ولم يكن علي « ضعيف الإرادة مضطرب السياسة » ولكنه أراد أن يقف في وجه أمة تسير في سبيل الإنقسام فلم يوفق ، وليس في استطاعة فرد من الأفراد أن يقاوم أمة في ميولها وأن يحول شعباً عن طريق يسير فيها ، والتاريخ الحق تاريخ أمم لا أفراد ، وتاريخ شعوب لا زعماء .

وسمت في علي قوى الأدب الأربع ، فكان حسه دقيقاً مرهفاً ، وشعوره قوياً فياضاً ، وخياله فنياً رائعاً ، وعقله راجحاً سامياً ، وآتت هذه القوى ثمارها ، فكان مصوراً بارعاً ، وكاتباً بليغاً ، وخطيباً مؤثراً . وحكيماً مفكراً محكماً .

ودرس علي القرآن صغيراً ، وقبس من نوره كبيراً ، وتغلغل إلى فهم بلاغته ومعجزه وبيانه ، وفي القرآن من روائع الرسم ما قصر عنه الشعراء ، وجمال الفن ما عجز عن مثله رجال الفن ، وروعة الخيال ما قصرت عنه الأخيلة .

ومارس الحرب ابن عشرين ، ونيف بها على الستين ، فمال خياله إلى صور القوة والصراع ، وجادت مخيلته في رسم الحروب ، فكان الظلم عنده سيفاً قاطعاً من سله قتل به ، والحق فارساً غالباً من صارعه صرعه .

وفي خطبه منطق وانسجام ، وفي كلامه بحث واستنتاج ، وربط بين الأسباب والمسببات ، حتى رأى بعضهم أن ذلك من علائم المنطق اليوناني ، فعدوا كثيراً من خطبه منحولاً عليه .

وفي حكمه بلاغة على إيجاز ، ومنطق مع سهولة . وأكثرها يتبع الفكر فيه الفكر ، وترتبط العلل بالمعلولات ارتباطاً محكماً يزينه الترتيب ويحليه التفكير. قال: «من كثر كلامه كثر خطأه ، ومن كثر خطأه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار » . وفي هذه الأحكام المتتابعة منطق يشبه تحليل القضايا الهندسية ، وفي كل فقرة حكمة ، وفي السلسلة ربط محكم بين الأسباب والنتائج .

وأسلوب علي بليغ ، والبلاغة في الكلام موافقته لمقتضى الحال ، فهو في

الحكم موجز جامع ، ولغة الحكمة الإيجاز لأنها تخاطب العقل والعقل يفكر فلا يحتاج إلى التبسيط ، وهو في رسائله منسجم سهل فصيح ، يساوي فيه بين اللفظ والمعنى ، أما في خطبه فهو يسير بين الشدة واللين ، والقوة والسهولة ، وكلامه مرسل أحياناً لا سجع فيه ولا تقسيم فكأنه رسالة ، وهو فقرات متقطعة أحيانا بينها توازن وائتلاف ، وجرس موسيقي جميل ، وهو أحياناً فقرات مسجوعة تسير مع الطبع لا تكلف فيها ولا إجهاد .

ويتناول علي في خطبه الدين وأحكامه ، والسياسة ونظامها ، والاجتماع وقواعده ، والأخلاق وصالحها وفاسدها ، إلى غير ذلك من الأغراض الدينية والاجتماعية والسياسية مما نراه في نهج البلاغة .

ومن كلام له في خطبة الجهاد يوبخ بها جنده ويحثهم على القتال : « قبحا لكم وترحا ، حين صرتم غرضاً يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون . فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم : حمارة(1) القيظ أمهلنا يسبخ(2) عنا الحر . . وإذا أمرتكم بالمسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صبارة(3) القر(4) أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فرارا من الحر والقر ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم(5) الأطفال وعقول ربات الحجال . . قاتلكم الله . لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدري غيظا ، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش ان ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم وهل أحد منهم آشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما مني ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا ذا قد ذرفت(6) فيها على

---

(1) شدة الحر

(2) يذهب

(3) شدة البرد

(5) عمرل

(6) درف ردت

الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .

وفي هذه القطعة الصغيرة شيء كثير من خصائص أسلوب علي وبلاغته ، ففيها جناس مطبوع . وسجع سهل لا تكلف فيه ولا صنعة ، وفيها تشاكل وانسجام ، وفيها سهولة تبلغ حتى تمتنع ، وفيها استعارات جميلة وتشبيهات رائعة ، وفيها انسجام بين المعنى والمبنى ، فإذا أراد الكره والاشمئزاز ذكر القيح ، واذا أراد السخر والإستهزاء ذكر حلوم الاطفال وعقول ربات الحجال . ولعلي في المرأة رأيه ، فهي ناقصة الحظوظ والعقل والايمان ، وهي عقرب حلوة اللمسة ، وهي شر كلها ولكنها شر لا بد منه . ولكن هنالك خصائص أخرى لعلي لا نراها في هذه القطعة ، فهي لا ترتفع حتى تبعد عن ميدان المبتدئين ، ولا تعلو عن أفهام قراء القرن العشرين .

ومما يشك بعضهم في نسبته اليه قوله وقد سأله أحدهم « هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟» فقال : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقال : وكيف تراه ؟ قال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان ، قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد عنها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مديد لا بهمة ، صانع لا بجارحة (1) ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب (2) القلوب من مخافته ».

ومن ذلك قوله : « ما وحده من كيفه ، ولا حقيقته أصاب من مثله ، ولا اياه عنى من شبهه . . . كل معروف بنفسه مصنوع ، وكل قائم في سواه معلول » .

وتزدان حكمة علي بالايجاز على بلاغة ، وبالمنطق على سهولة ، وبالاقناع على اختصار ، لا نسمعها حتى نقول صدق قائلها ، وهي وليدة التجارب ، ونتيجة التفكير ، وثمرة القرآن .

---

(1) عضو

(2) تضطرب .

اوجعت شرور الناس علياً قال : « فاعل الخير خير منه ، وفاعل الشر شر منه » . ورأى أن الانسان بأعماله لا بجماله ، وبأفعاله لا بعلمه ، وبنتاج يديه لا بشرف ابائه « قيمة كل امرىء ما يحسنه » . وحكمته حكمة الشيوخ الداعين الى اللين واللطف ، قال : « لا تقل ما لا تعلم ، بل لا تقل كل ما تعلم » . وكان حريصا على الأدب ، قال : « عدم الأدب سبب كل شر » . وقد اشتهرت حكم علي الجامعة الموجزة حتى لقب أول مفكر في الاسلام ، وهو على سمو تفكيره ، وبليغ انشائه سهل يفهمه الناشئون ، والبلاغة في الكلام هي التي اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها ، قال : « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به » . وقال : « الهم نصف الهرم » . وفي هذه الكلمات الثلاث أساس واسع لفرع كبير من فروع العلم في عصرنا يقوم على معالجة الانسان بالتأثير في أفكاره ، وربما كان أفضل تعريف للحكمة تعريف العرب للبلاغة من أنها موافقة الكلام لمقتضى الحال . قيل لعلي « صف لنا العاقل » ، قال : هو الذى بضع الشيء موضعه . قيل : فصف لنا الجاهل . قال : قد فعلت .

وعلي حكيم مفكر في رسائله ففيها ايجاز الحكماء وسهولة البلغاء ، ومنطق الخطباء . كتب الى معاوية قال « سلام عليك أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد وانما الشورى للمهاجرين والأنصار . . . وقد أكثرت في قتلة عثمان فان رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم الي ، حملتك واياهم على كتاب الله ، وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني ابرأ قريش من دم عثمان » .

[illegible] هذه الرسالة سهولة وبلاغة ، وتناسق وترتيب ، وفيها منطق وأحكام ، [illegible] خلافته بالبرهان القاطع شأن المحامي اللبق ، ثم أنكر حق معاوية في [illegible] بالحجة والبرهان ، ثم هدد معاوية كما يهدد كل حاكم الخارجين على

حكمه ، وأخيراً تبرأ من أقوى ما كان يتهمه به معاوية وأنصاره ، ولكنها براءة القوي صاحب الحق الصريح ، لا براءة الضعيف المستجدي ، وإذا وعد بمحاكمة القتلة فانما يفعل ذلك لبيان الحق لا لارضاء معاوية وأنصاره ، ولذلك لا تكون المحاكمة الا بعد أن يخضع معاوية ويقر له بالخلافة .

زياد بن أبيه (ت53 هـ ـ673 م)

ولد في السنة الأولى للهجرة وأمه أمة اسمها سمية ، أما أبوه فمجهول ، وقد نشأ زياد بطلاً مقداماً ، وذكياً داهية ، وفصيحاً بليغاً ، وكتب في أول أمره لأبي موسى الأشعري عامل عمر بن الخطاب على البصرة ، وظهر من دهائه وذكائه ما حمل عمر بن الخطاب على عزله قال « إنه لم يعزله لعجز ولا لخيانة ، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله » وقال عمرو بن العاص فيه « لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه » ولكن ابن سمية أصبح ابن أبي سفيان ، وابن أبيه التحق في نسبه بقريش .

وثارت فارس على علي بن أبي طالب فرماهم بزياد فاستطاع بدهائه أن يفرق بين رؤساء الثائرين ، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى أخمد الثورة دون أن يلقى منها عناء وبلاء .

ولما تولى معاوية الخلافة عمد إلى دهائه في اكتساب زياد حتى الحقه بنسب أبيه فصار زياد بن أبي سفيان .

وولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم أولاه الكوفة فأصبح والياً للعراقين .

وسار زياد في حكمه على سبيل الشدة والدهاء ، ففرق بين الزعماء واشتط في العقاب وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، حتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو

المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه ، بل كان لا يغلق أحد بابه ، وقد كتب في مجلسه عنوان سياسته وهي الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه والمسيء يعاقب باساءته .

وكان زياد يريد أن يوليه معاوية الحجاز ولكن الموت أدركه قبل أن يبلغ أمنيته ، وكانت وفاته بالكوفة في رمضان 53 للهجرة .

وتتصف خطب زياد بالبلاغة والايجاز ، والعنف والصراحة ، والشدة المقرونة بالوعيد ، واللين الموعود بالجزاء والوفاء ، وهو يعتمد في كلامه على الصراحة وقرن القول بالعمل أكثر من استناده الى التشبيهات الرائعة ، والاستعارات الجميلة ، وهو رجل عمل أكثر منه رجل أقوال يأخذ الولي بالمولى والمطيع بالعاصي ، أكثر مما يعتمد على السجع الرنان ، أو يستند الى جرس الفقرات الموزونة ، والعبارات القصيرة المجلجلة ، ولو ألقينا خطب زياد لم يكن لها ذلك الوقع المدوي كما لو ألقينا خطب الحجاج ، ولعل زياداً كان يعتمد على القائه أكثر مما كان يعتمد على أسلوبه .

وأشهر خطب زياد خطبته المسماة بالبتراء لأنه لم يبتدئها بحمد الله كما كان يفعل الخطباء عادة ، وقد ألقاها في البصرة عندما قدمها والياً لمعاوية . وكان لها من الأثر ما وجم له الناس ، فمنهم من أذعن خائفاً ، ومنهم من أثنى مصانعاً ، غير أن زياداً قرن القول بالعمل ، وجمع بين الوعيد والتنفيذ فكان له ما أراد من إخماد الفتن والقضاء على الثورات .

ومن خطبة البتراء قوله « أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ،والغي الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور التي ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . . . إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه ، من ترككم الضعيف يقهر والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر ، ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ، قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر وتغضون

على النكر ، كل امرىء منكم يرد عن سفيه صنع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً ، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً(1) في مكانس الريب ، حرام علي الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالارض هدماً واحراقاً ، إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، واني لاقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمطيع بالعاصي حتى يلقى الرجل أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد(2) أو تستقيم لي قناتكم . . . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره . . . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة(3) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا » .

وفي هذه الخطبة سهولة في التعبير فكأنها نثر مرسل أحياناً ، ولكن هذا النثر المرسل لا يلبث حتى ينقلب سجعاً مطبوعاً أحياناً وفقرات موزونة رنانة أحياناً أخرى يقول « ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه » ـ نثر مرسل مع الطبع كأنه من لغة المجلات في القرن العشرين ولكن هذا النثر المرسل لا يلبث حتى يرتفع فيقول « من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر » وفيما يقول « إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله » وكأنه يتحدث حديثاً عادياً إذا به يقول « لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف » وفيه سجع خفيف مطبوع ، وكلام سهل ممتنع .

وزياد يتكلم في هذه الخطبة بصراحة وفصاحة وسهولة وكأنه يريد أن يكون كلامه واضحاً لا غموض فيه ولا تأويل ، يذكر الزعماء الذين يدافعون عن القتلة

---

(1) كنوسا : جمع كانس بمعنى مستتر ، ومكانس الريب مكامنها المستترة .

(2) مثل يضرب في تتابع الشر

(3) ذادة : مدافعين .

والمنافقين والأشرار بالعقاب والتنكيل فبأخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن ، وما أحوجنا في هذه الأيام الى حاكم مخلص قدير يقضي على حكم « القبضايات والأزلام » ويحمي القانون من رجال القانون .

وفي خطبة زياد بيان واضح صريح لخطة مرسومة وكأن الخطيب فيها يلقي بياناً عسكرياً يعلن الأحكام العرفية ويأخذ بالشدة والشبهة حتى تستفيم الأمور فإذا استقامت عم العدل وساد الأمان وفازت الرعية بما ترغب من عطف الحاكم وفيئه .

وإذا كان زياد يعاقب على الظنة ، ويأخذ بالشبهة فقد كان حاكماً حكيماً لا يعاقب الانسان على فكرته ، ولا يجازيه على أهوائه ، وإذا علم أن أحداً من الناس قتله السل من بغضه لم يكشف له قناعاً ، ولم يعاقبه على ميوله وأفكاره حتى يعمل فإذا عمل لم يكن ثمة لين أو عفو أو ضعف فكأنه رجل أفعال لا رجل أقوال .

أما خطبة زياد من حيث فن الالقاء فوسط لا ترقى رقي خطب الحجاج ، ولا تنزل الى ميدان الجدل والمحاضرات ، ولو ألقيناها نحن لم يكن لها ذلك الوقع الذي كان لها عندما ألقاها زياد .

وهي وسط أيضاً من ناحية الخيال الفني المبدع فاستعاراتها لا ترتفع الى الجو الذي ترتفع اليه استعارات الحجاج ، ولا ترقى الى سماء البلاغة التي ترقى اليها خطب علي .

وضرب المثل بزياد في الشدة والعنف ، وربما كان أول من فرض نظام منع التجول في الإسلام فقد جعل القتل عقوبة من ظهر في الطريق بعد مضي ساعة معينة من الليل ، وكان يعاقب من دعا بدعوى الجاهلية بقطع اللسان ، وكان لا يعرف في الجريمة ليناً أو تساهلاً أو عفواً قال « من غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً » وإذا كان من علماء الإجتماع الباحثين من يرى في الشدة توطيداً للنظام ، وفي القتل منعاً للإجرام

فمنهم من يرى أن الشدة تؤدي بالشعب الى الثورة بعد سكون ، والهياج بعد هدوء ، أو تقوده الى الذل والمسكنة فيستسلم لكل محارب ، ويستذل أمام كل غاز فاتح ، ومن رأي بعض علماء التربية الحديثة أن الشدة على طلاب المدارس تدفعهم الى الاحتيال والخداع ، أو تؤدي بهم الى الثورة والعصيان ، أو تقودهم الى الذل والمسكنة ، وتقضي على روح الرجولة والكرامة والعزة في نفوسهم ، فيظلون صغار النفوس ولو كبروا ، ويبقون أطفالاً ولو شبوا وتزوجوا ، وأصبحوا آباء وأمهات ، وحكاماً وقضاة ، ووزراء ونواباً وزعماء .

وضرب المثل بزياد في الفصاحة واللسن ، ولعل فصاحته فوق خياله ، ولسنه فوق أدبه وفنه .

وضرب المثل به في الدهاء والمكر ، فهو لا ينذر ويوعد حتى يلين ويعد ، ولا يهدد الثائرين والمجرمين حتى يعد الساكنين الآمنين بالفيء والعطاء ، ولا يعلن العنف وينذر بالقتل حتى يترك لكل انسان حريته في التفكير وبغض الحاكم على أن لا ينتقل التفكير الى العمل ، وهو يحرص على ألا يهدد الا القتلة والمجرمين ، ولا ينذر الا المنافقين والثائرين والخارجين على حرمة القانون والدين .

الحجاج بن يوسف (ت95 هـ714 م)

ولد في الطائف سنة41 هـ . وكان هو وأبوه يعلمان الأولاد فيها ، ولكن روح الحجاج الطموح كانت تتطلع الى المراتب العليا ، فدخل شرطة أبان بن مروان عامل فلسطين ، ثم التحق بشرطة روح بن زنباع . ولكن نفسه الوثابة كانت تطمح الى الرئاسة ، ولم يلبث حتى تقلد أمر عساكر الخليفة عبد الملك بن مروان . وكانوا فوضى فأحل فيهم النظام ، وأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله، وأظهر من البلاغة والقدرة والدهاء والشدة والتنظيم والجرأة ، ما تسلم معه قيادة الجيش الذي وجهه عبد الملك بن مروان لقتال عبد الله بن الزبير ، فحاصره في مكة وجرؤ على ضرب الكعبة

بالمنجنيق ، ثم فتح مكة وقتل عبد الله بن الزبير وثبت دعائم الملك للامويين في الحجاز ، ثم جدد بناء الكعبة وتولى أمر الحجاز ، ولكنه استبد في حكمه واشتد ، وكان العراق ناراً ملتهبة تضطرم فيه ثورة الشيعة ، وفتنة الخوارج ، فرمى عبد الملك العراق بالحجاج ، فقسا وطغى وسفك الدماء وأذل الزعماء حتى دان العراق للامويين .

وولي الحجاج العراقين طول عمره ومات سنة 95 هـ . في مدينة واسط التي بناها في العراق .

وكان الحجاج مشوه الجسم ، قبيح المنظر ، أخفش العينين ، مبسوط الرأس كبيره ، قصير العنق كأن رأسه غرس بين كتفيه غرساً . ويرى علماء النفس أن مركب النقص من أكبر أسباب النبوغ والارتقاء . وإذا كانت الطبيعة قد نقمت على الحجاج وشوهت خلقه ، فقد نقم على الناس وأعمل فيهم السجن والقتل والصلب ، وإذا كان الناس قد سخروا من خلقته فقد انتقم منهم أيما انتقام .

وكان الحجاج سريع الغضب ، شديد العداوة ، لا يرأف ولا يرحم ، واختلف الناس فيه من مادح وقادح ، فقد أذل الأنفس وأكثر من الحبس والقتل ، ولكنه قضى على الفوضى وأخمد نيران الفتن والثورات . قال عبد الملك لبنيه عندما حضرته الوفاة : « أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ودوخ لكم البلاد وأذل الأعداء » . غير أن أعداء الامويين الذين ذكرهم عبد الملك بن مروان لم يكونوا إلا من العرب والمسلمين ، ومن النقاد من يرى أن ظلم الحجاج واستبداده كانا من العوامل التي ساعدت في ضعف العرب فتغلب عليهم الفرس .

وللحجاج آثار مشكورة في الأدب ، فهو الذي أوعز بالاعجام والشكل ، وسعى في نقل لغة الدواوين من الفارسية الى العربية ، ونسخ عدة مصاحف من مصحف عثمان وأرسلها الى الأمصار .

وضرب بالحجاج المثل في البلاغة . قيل أربعة لم يلحنوا قط « الشعبي وعبد

الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية » . وقال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ! انه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، حتى اني لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين » .

وضرب بالحجاج المثل في الشدة والعنف والاستبداد . قال الحسن البصري : « تشبه زياد بعمر فأفرط وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » . وكان الحجاج أشد من زياد وأعنف ، وأظلم وأحقد ؛ ولكن زياداً كان أدهى في تدبيره ، وامهر في سياسته ، وكان كلاهما في فن الالقاء فرسي رهان ، ولكن الحجاج كان أبلغ في انشائه ، وأحلى في فنه الأدبي ، وأروع وأبدع في تشبيهاته واستعاراته .

وكان يحب البلاغة ويعجب بالفن الرفيع والأدب الجميل ، وقد عفا أحياناً عن قوم كان قد عزم على قتلهم لعبارة بليغة نطقوا بها ، أو نكتة رائعة قالوها فأعجبته ، وله في ذلك نوادر ذكرتها كتب الأدب وتفننت في صياغتها .

ومن أشهر خطب الحجاج خطبته التي ألقاها في الكوفة عندما ولي على العراق ، فإنه وصل إلى البصرة ومعه اثنا عشر فارساً ، ودخل المسجد وعلى رأسه عمامة غطى بها أكثر وجهه ، ثم صعد المنبر ومكث ساعة لا يتكلم ، فطمع به الحاضرون وقال بعضهم : « قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق » . وأخذ أحدهم الحصا بيده وقال : « ألا أحصبه لكم ؟» . فقالوا : أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس شاخصة اليه حسر اللثام عن فيه ونهض ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني[1]

« يا أهل الكوفة ، أما والله اني لأحمل على الشر بحمله وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى أبصاراً طامحة وأعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان

(1) في ـ ابن جلا ـ ايجاز حذف واصله ، انا ابن رجل جلا ، وجلا فعل ماض والمعنى انني معروف بين .

قطائفها وإني لصاحبها ، وكأني أنظر الى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى » . ثم قال :

« هـذا أوان الشـد فاشتـدي زيم قد لفهـا الليل بسـواق حطم[1]
ليس براعـي أبـل ولا غنم ولا بجـزار على ظهـر وضم »[2]

وقال :

قد لفهـا الليل بعصلبي أروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعرابي[3]
قد شمـرت عن ساقهـا فشدوا وجـدت الحـرب بكم فجدوا
والقـوس فيهـا وتر عرد مثـل ذراع البـكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد[4]

« يا أهل العراق ويا معدن الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، ما يقعقع[5] لي بالشنان[6] ولا يغمز[7] جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت[8] عن ذكاء وفتشت عن تجربه ، وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ـ نثر كنانتـه[9] ونثلهـا[10] بـين يديه

---

(1) اسم فرس أو ناقة ، وقيل بل القطعة من الابل والبيتان لاعرابي اراد العودة بابله فشردت فهددها بالقتل جملة لا كما يذبح الجزار وزيم منادى ، ولفها جمعها ، وحطم لا يبقى شيئاً .
(2) الوضم ما يقطع عليه اللحم .
(3) عصلبي : شديد ـ أروع : ذكي ـ الدوي : الصحراء المتسعة التي يسمع لها دوي في الليل ، اما المهاجرون فقد اشتهروا بشجاعتهم .
(4) العرد : الشديد ، والبكر ، بفتح الباء ، الفتي من الابل .
(5) يقعقع : يضرب .
(6) الشنان : جمع شن وهو الجلد اليابس .
(7) غمز التينة شدها بيده ليجربها .
(8) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنها .
(9) الكنانة : جعبة السهام من جلد .
(10) نثلها : فرقها .

وعجم[1] عيدانها فوجدني أمرها[2] عوداً وأصلبها مكسراً ، فوجهني اليكم ورمى بي في نحوركم ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال ، أما والله لألحونكم لحو[3] العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة[4] ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، فانكم « لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وإني والله لا أعد الا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق[5] إلا فريت[6] ، فاياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات ، أما والذي نفس الحجاج بيده لتستقيمن[7] على طريق الحق أو لادعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، فأقبلوا الأنصاف ودعوا الارجاف قبل أن أوقع بكم ايقاعاً يترك النساء أياماً[8] والولدان يتامى ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم المهلب بن أبي صفرة ، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله وهدمت منزله » .

وأسلوب الحجاج في هذه الخطبة أقرب ما يكون الى الاسلوب الخطابي من فقرات قصيرة تكاد تكون موزونة ، وعبارات رنانة تكاد تكون شعراً قوياً ، وسجعات مطبوعة تطن في الآذان طنين قعقعة السلاح ، يرافق ذلك كله عزم لا يلين أمام الصعاب ، وهمة لا تني عن الاستبداد ، وتهديدات لا تقول حتى تفعل ، ولا تهدد حتى تسفك الدماء .

---

(1) عجم العود : عضه بأسنانه ليعرف صلابته .
(2) ل ح و : أمرها : أصلبها .
(3) لحو : التقشير .
(4) المروة : الصخرة .
(5) اقدر وأفصل .
(6) فريت : قطعت .
(7) لتستقيمن ، بضم الميم ، للجماعة ، والفعل مرفوع والضمير محذوف ولم يبن الفعل لانه لم يتصل بنون التوكيد بل فصل بينهما الضمير .
(8) الايم المرأة التي مات زوجها .

ومن خطبة له حين قدم البصرة :

« أيها الناس . من أعياه داؤه فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه ، إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعفه العافية لم تضق عليه التهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أعذر ، وأتوعد ثم لا أعفو . . . والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه » .

ليس الحجاج خطيباً يجيد فن الالقاء فحسب ، ولكنه كاتب أريب ، ومنشىء بليغ ، يجيد فن الانشاء ويحلّق في اتقان أسلوب الخطابة ولغة الالقاء ، ولو ألقينا خطبه لكان لها وقع قوي ، وتأثير بليغ .

والحجاج يضمن خطبه أشعار العرب وأمثالهم ، وآي القرآن ، مما يزيد في بلاغته رقياً ، وفي إلقائه تأثيراً ، وهو يختار ما يضمنه مما يوافق أغراضه من شدة وعنف ، وقوة وصرامة ، فللجزار وقع في النفوس رهيب ، وتشمير الحرب عن ساقها استعارة قوية عنيفة ، وللعصلبي والدوي والتحطيم وذراع البكر والعرد دوي له في القلوب جلجلة وفي الآذان قصف كقصف الرعد ، وفي القوافي المقيدة من الشدة في اللفظ ، والعنف في الإلقاء ، مما لا نراه في القوافي المطلقة ، وهو يجيد التضمين ، فكأن ما يضمنه خطبه جزء من كلامه ، وقطع من انشائه ، لا فرق بينها وبين أسلوبه .

وعبارات الحجاج في خطبه قصيرة لها جرس موسيقي رنان ، وفقراته موزونة منسجمة فيها بلاغة وعنف وبيان ، وهي مسجوعة حيناً وغير مسجوعة أحياناً ، فإذا كانت مسجوعة فسجعها مطبوع لا تكلف فيه ولا إجهاد ، وإذا كانت مرسلة فارسالها لا يضعف من قوتها ولا يخفف من جمالها ورفعتها ، فمن المسجوع قوله : « أحمل على الشر بحمله ، وأحذوه بفعله » . وقوله : « يا أهل العراق ،

ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق » . وقوله : « لا أعد ألا وفيت ، ولا أهم الا أمضيت ، ولا أخلق الا فريت » . ومن غير المسجوع قوله : « لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة » . وقوله : فاياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات » . ويجمع بين السجع والارسال حيناً فيجيد الجمع ، ويتقن الانسجام ، قال : « من استطال أجله فعلي أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال باقي عمره قصرت عليه باقيه » .

وفي خطب الحجاج انسجام بين المعنى والمبنى ، وتجانس بين الأسلوب والأغراض ، فصوره توافق أغراضه ، وألفاظه تساوق صوره ، فإذا أراد التهديد بالقتل جعل الرؤوس ثماراً ناضجة حان قطافها ، وإذا صور قطف الرؤوس جعل الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ، وإذا أراد اظهار قوته وبيان رسالته جعل نفسه سهماً رمى به الخليفة في نحور الثائرين ، وإذا أراد بيان شدته وعنفه ودهائه جعل نفسه أمرّ عيدان الخليفة مكسراً ، وأذكى رجال الدولة حاكماً ، وإذا أراد أن يقرن الوعيد بالتنفيذ جعل نفسه خياطاً لا يخلق الا فرى ، وجزاراً لا يهم إلا أمضى .

ويستند الحجاج في خطبه الى التلاعب بالعواطف أكثر من استناده الى المنطق والتفكير ، ويعتمد على البلاغة والبيان أكثر من اعتماده على الحجة والبرهان ، ولا تتعدى معانيه التهديد والوعيد ، ولا تتجاوز بيان فتنة أهل العراق وحق الخليفة والوالي بالتنكيل والتأديب ، ولكنه يتفنن في بيان هذه الأغراض ، فيعيد الأفكار ، ويكرر المعاني والأغراض ، ولكنه ينوع الصور ويكثر من الاستعارات والكنايات ، فأحياناً قتل وأحياناً صلب ، وأحياناً عصب ولحو وقرع .

وقد غلبت عليه لهجة التهديد ، وهيمن على أسلوبه علم الانذار والوعيد ، حتى إذا وعظ وأرشد ، كان الى التخويف من النار أقرب منه الى الترغيب في الجنة ، وكان هول العذاب في الآخرة أغلب عليه من أطايب الجنة ونعيمها .

وتأثر الحجاج بحرفته في شبابه ، والمعلمون يطلبون من طلابهم الطاعة العمياء دون اعتراض أو استفهام أو عصيان ، وليس في الخروج من المسجد فرق بين

باب وباب ، ولكن الحجاج اذا أمر بالخروج من باب ضرب عنق من يخرج من باب آخر ، رحم الله الطغيان والبغي والاستبداد .

وإذا كان لزياد فضل في القضاء على حماية « القبضايات » فللحجاج فضل في القضاء على الشفاعات ، وإذا كان زياد قد فرض نظام منع التجول فالحجاج فرض نظام منع التجمع والتظاهرات .

وللحجاج استعارات رائعة فاق بها البلغاء ، وتشبيهات راقية طريفة حلق فيها وأجاد ، فالنفاق من بيوض الشيطان وفراخه ، والحاكم اذا أراد اختيار أعوانه من الولاة والعمال عجمهم كعجم العيدان ، والحجاج داهية قدير ، لا يقعقع له بالشنان ولا يغمز جانبه كتغماز التين .

وإذا شبه الحجاج واستعار ، وافق بين صوره واستعاراته . وذكر ما ينسجم مع أركان الاستعارة والتشبيه ، فإذا استعار من الأثمار للرؤوس ذكر النضج والقطف والدماء ، وإذا جعل الرؤوس ثقيلة أخذ على نفسه تخفيف الأثقال .

وهو صريح في بيان أغراضه ، موفق في تبيان خطته ، يعطي للجند أعطياته ، ولكنه يطلب منه الطاعة والجهاد ، فمن أطاع فاز ، ومن مضى الى الحرب والجهاد نال أجره ، أما من عصى فقد عرض نفسه للهلاك . ومن تأخر بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام حق سفك دمه ، ونهب ماله ، وهدم منزله .

ويجمع الحجاج في تشبيهاته بين الحس والخيال ، ويربط في استعاراته بين الحقيقة والمجاز ، ولذلك كان إماماً من أئمة البلاغة في الأدب العربي ، وقف على المنبر يخطب في الناس ، وهو القصير الدميم . فارتفعت اليه الأبصار ، وتطاولت اليه الأعناق ، فجعل من ارتفاع الأبصار طموحاً الى الثورة ، ومن تطاول الأعناق صورة تمثل الطمع في الفتنة . وترمز الى الجرأة على الحكام ، والاستمرار في الغي والضلال .

وقد يلين الحجاج ويسهل ، ويرق ويهدأ ، ولا سيما اذا خاطب أهل الشام ،

ولكنه الى الشدة أميل ،وبالقوة والعنف أكثر ولوعاً . ولا غرو،فبشدّته ثبت دعائم الملك للامويين ، وبعنفه وطأ لهم المنابر ، وبجرأته وصرامته ارتقى من معلم للأولاد الى والي العراقين .

المقامة

المقامة في اللغة مكان يجتمع فيه الناس ، ثم تطورت فصارت اسماً لنوع خاص من الأدب له صفاته وميزاته .

وكان كبار القوم في الجاهلية يجتمعون في مقامات يبحثون بها أمور القبائل ، ويتحدثون ويتسامرون ، ويقصون أخبار الأمم وحوادث السلف . وكانت المقامات تعرف في الجاهلية بالأندية والحلقات أيضاً ، قال طرفة بن العبد :

فان تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وهو يشير الى أنه يعاشر خيار القوم وسفلتهم ، وكانت الحلقة مجتمع النخبة من القوم ، كما أن الحانة مجتمع السكارى والسفلة . وقال زهير يمدح قوماً :

لهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

فكأن الفخر أن يكون للقوم مقامات وحسب .

وظل العرب بعد الاسلام يجتمعون في مقامات يتحدثون ويتسامرون ويتباحثون ، فلما كان العهد الاموي أنشأ الامويون دوائر خاصة للقصاص يجمعونهم في مقامات يحدثون الناس فيها بأخبار الأولين والآخرين ليلهوهم عن السياسه ، ويوجهوهم في أساليب الدعوة التي يريدونها ، فأخذت المقامة تنتقل من الحديث الى القصة .

ونسج العباسيون على منوال الامويين ، فكان لهم مقامات يعظ الزهاد فيها

الناس بقصص قصيرة ، ويحدثونهم بحكايات حقيقية أو خيالية . وللمنصور والرشيد والمأمون مع هؤلاء القصاصين حوادث مشهورة مدونة . ثم لم تلبث المقامة حتى خرجت من قصور الخلفاء وأندية الأمراء والوزراء الى ميادين العامة ، فأصبح الناس يجتمعون في حلقات عامة يسمعون القصص والحكايات ، ومايزال الناس في بعض المدن العربية يجتمعون في المقاهي فيقرأ عليهم أحدهم القصص والأمثال ، ويخبرهم بحوادث الماضي والحاضر .

وانتشرت الكتابة بين الناس ، فأخذ الكتاب يدونون قصص المقامات ، ويكتبون حكايات الأندية والمقاهي والحانات ، وأخذت قصص المقامات تسير في سبيل الاستقلال عن أشكال الأدب المعروفة حتى أصبحت فناً خاصاً له مميزاته الأدبية وخصائصه الفنية وأساليبه اللغوية .

والمقامة الأدبية في شكلها قصة قصيرة ، وفي أسلوبها سجع منمق ، وفي عبارتها لغة مختارة ، أما أغراضها فتختلف باختلاف المقامات واختلاف أصحابها ، فهي حيناً حكمة وعظة ، وحيناً حيلة واغواء ، وتارة أدب فني خالص من قطعة يزينها البيان والبديع ، أو قصيدة موشاة تحكمها الصنعة ويوشيها التثقيف ، وهي طوراً مجموعة من أمثال العرب وحكمهم ، أو احاج وألغاز ، أو نقد أدبي ، الى آخر ما هنالك من الأغراض المتنوعة التي تختلف باختلاف المقامات .

واستقلت المقامة عن سائر أنواع الأدب في عصر التقليد ، فاتبع أصحابها في انشائها اسلوب القاضي الفاضل ، وقلد بعضهم بعضاً في تأليفها ، حتى كان المحدث عندهم راوية هو علي الأغلب من كرام الناس المولعين بالأدب والأسفار ، أما بطل القصة فهو على الأغلب متشرد يبدو احياناً بمظهر الواعظ التقي ، ثم لا يلبث حتى ينقلب محتالاً ، ويتحول ماجناً عابثاً ، وهو ذكي عالم بخفايا الأمور ، بارع في معرفة أخلاق الناس وميولهم ، جامع لأمثال اللغة وشوارد الكلم ، مطلع على أخبار العرب وأيامهم . وأهم ما يميز المقامة من القصة القصيرة انها لا تخلو من نكتة أدبية ، أو نادرة لغوية ، أو فكاهة اجتماعية ، أو متعة فنية لذيذة .

ولم تنفصل المقامة عن القصة فجأة ، بل سارت معها زماناً طويلاً حتى تفنن فيها أصحابها فاستقلوا بها عنها . وقد ذكر التاريخ أن بديع الزمان الهمذاني استمد أسس مقاماته من ابن فارس ، وان ابن فارس هذا أخذ عن أبي بكر الخوارزمي ، وأن أبا بكر أخذ أسلوبه من كاتب آخر ، والأرجح أن بديع الزمان أخذ من أبي بكر الخوارزمي .

والفرق بين القصص العادي والمقامة أن للمقامة شيئاً من وحدة التأليف ، ففيها الراوي وفيها البطل . وأكثر قصص المقامات من نسيج المؤلف وحده ، وإذا كان لبعض القصص في المقامات أصل معروف ، فالمؤلف ينسقها ويرتبها ويبتدع مغزاها ، ويبين العبرة منها ، وان كانت القصة القصيرة من أرقى أنواع الأدب في العصر الحديث فالمقامة قصة قصيرة ، وكان من حقها أن تعد من أجمل فنون الأدب لولا انشاؤها الغريب ، ولفظها العنجهي ، وسجعها المتكلف الثقيل ، ولولا أن اللفظ فيها غلب على الفكرة والفن ، ولذلك خسرت قيمتها وأصبحت من آثار التاريخ .

والفن القصصي في المقامات على الأغلب ضعيف . فلا عقدة هناك ولا لحمة ، وما يمكن أن يعبر عنه من حيث فن القصة بصفحة واحدة تأتي المقامة به في صفحات . والغريب أن القصص في المقامات كلها تكاد تخلو من الفن الغرامي ، فكأن الناس في عهد استقلال المقامة كانوا يحسبون المواقف الغرامية مما لا يليق بهم وبمن يقدمون لهم المقامات .

والمحدث في المقامة وبطلها كلاهما هي بن بي ، يخترع المؤلف شخصهما ولكنه لا يخترع شخصيتيهما ، فكلاهما يمثل طبقة في المجتمع لها ميزاتها الخاصة وخصائصها المميزة .

وظلت المقامات مثلا عالياً يحتذيه الكتاب زماناً طويلاً ، وبقي أسلوب انشائها هدف الأدباء وغاية البلغاء الى فجر النهضة الحديثة أو ضحاها ، وكثيرون هم الذين

حاكوها فقصروا عن زعمائها ، وعجزوا عن النقد والوصف والتغلغل الى قلوب الناس ليصفوا أخلاقهم وصفاً نقدياً بارعاً ، ويصوروها تصويراً فنياً جميلاً ، ولذلك اشتغلوا باللفظ ، وفاتهم تجويد المعنى ، وأحسنوا الصنعة ولكنهم قصروا في النقد ، ثم لم تلبث النهضة الحديثة حتى قضت على السجع ، وتغلب عصر السرعة على عهد التثقيف ، فخسرت المقامة مقامها ، وزاحمتها القصة القصيرة المرسلة ، وما تزال هذه القصة سائرة في سبيل التحسن والتقدم والارتقاء .

وأشهر أصحاب المقامات بديع الزمان والحريري والشيخ ناصيف اليازجي .

بديع الزمان الهمذاني (968 م-1007 م)

نشأ في همذان إحدى مدن خراسان ، وقيل انه درس على ابن فارس ، ثم قدم نيسابور وأملى فيها على ما روي نحو أربعمائة مقامة .

وكان أبو بكر الخوارزمي علاّمة عصره ، وأديب أهل زمانه ، فتصدى البديع له ، وجرت بينهما مباهيات ومناظرات ، وتعصب الناس لهما ، فارتفع قدر البديع ورغب فيه الملوك والوزراء ، ثم مات الخوارزمي فحسنت حاله واشتهر أمره ، فأخذ ينتقل من أمير الى أمير ، ويتنقل من مصر الى مصر ، وعاجلته المنية وهو في سن الأربعين ، فمات في هراة سنة 390 هـ .

واشتهر البديع بالذكاء وحدة الذهن وحضور البديهة ، حتى روي عنه روايات يصعب تصديقها . قيل إنه كانت تلقى عليه القصيدة في الفارسية فيترجمها في الحال الى العربية شعراً ، وقيل إنه كان يقترح عليه الكتاب فيبتدئه من آخره وينتهي بأوله ويخرجه على أحسن ما يكون .

واشتهر البديع برسائله ومقاماته . وراويته في مقاماته عيسى بن هشام ، وهو عالم أديب كان في صباه مخلوع الرسن متشرداً ، يهرب من السلطان حيناً ، ويحتال على الغافلين من الاعراب حيناً ، ثم ثاب وتاب وانصرف الى ميادين اللغة قصاراه

لفظة شرود يصيدها ، وحكمة بليغة يستزيدها .

أما بطل المقامة فهو أبو الفتح الاسكندري ، وهو متشرد محتال في حياته ، فصيح بليغ في أدبه ، سريع الفطنة والذكاء في حياته ، وهو زاهد واعظ يقتبس من القرآن والحديث حيناً ، وساخر ماجن خليع لا يخجل من مجونه ولا يستحي من خلاعته أحياناً ، وهو متقلب يلبس لكل حالة لبوسها ، وإذا تغلغلنا الى أعماق نفسه لنوحد بين صفاته المختلفة ونجد له صفة واحدة تجمع بين مزاياه المتقلبة وجدناه ذكياً طامعاً في الحياة الهنيئة ، يتزيا بالأزياء المختلفة ، ويتردى البرد المتنوعة من كذب وصلاح ، ووعظ ومجون ، وصدق واحتيال ، وما الى ذلك من الصفات المختلفة ، ليظفر بما في أيدي الناس من مال يساعده على العيش الهنيء المريء ، وإذا لم يسخر الأديب الذكي من غفلة الناس وحمقهم ، وإذا لم يسخر ذكاءه لمنفعته في الحياة ، فأي خير في الأدب والذكاء والدهاء .

ويريد بديع الزمان في مقاماته أن يظهر للملأ ذكاءه ، ويبين رسوخ قدمه في الانشاء ، وطول باعه في المعرفة بأصول اللغة وشواردها ، ولذلك نراه يكثر من الترادف ، ويبدع في انتقاء الألفاظ ، ويتفنن في اختيار الكلم والعبارات .

وهو يرمي الى نقد كثير من العادات والتقاليد ، ويسخر بكثير من أنظمة المجتمع البشري ، ويهزأ من الناس لحمقهم وجهلهم واندفاعهم في الحياة مقلدين ، لا ابتداع عندهم ولا تجديد ، يسيرون على ما سار عليه آباؤهم وأجدادهم ، لا يحكمون في الأمور عقولهم .

وفي مقامات البديع وصف بليغ لكثير من ضروب الحياة ، ونقد موفق لبعض أخلاق الناس وطبائعهم ، وتصوير رائع لطبقات المجتمع ، فقد أبدع في الدينارية بوصف المتشردين وذكاء الشحاذين ومقدرتهم في السباب والشتيمة ، وأجاد في الخمرية بوصف الخمر وتصوير السكارى ، وبيان أخلاق الفاسقين والذين يدعون الزهد والتقوى والصلاح وليسوا على شيء من ذلك ، قالت الساقية :

خمر كريقي في العذوبة واللذاذة والحلاوة

وقال بطل المقامة :

أنـا من يعرفـه كل تهـام ويمـاني
أنـا من كـل غبـار أنـا مـن كـل مكـان
سـاعـة الـزم محـرا بـا واخـرى بيـت حـان
وكـذا يفعـل مـن يعقـل فـي هـذا الـزمـان

ووصف في المضيرية أخلاق الذين تبطرهم النعمة الحديثة وصفا جميلاً مغرياً ، يزاحم وصف الصحف الحديثة لاغنياء الحرب ، وأجاد في الرصافية وصف النشالين ، وفي الحلوانية بيان رائع لوحشية الحمامين ، وثرثرة الحلاقين ، وفي الصيمرية تبيان لنفاق الناس وخداعهم أجاد فيه البديع وأبدع ، فهم يصانعون الغني ما زال غنياً ، ويمدحونه ما زال في ماله طمع ، وعندما كان أبو العنبس غنياً كان أعقل من عبد الله بن عباس ، وأظرف من أبي نواس ، وأسخى من حاتم وأشجع من عمرو بن معدي كرب ، وأبلغ من سحبان وائل ، وأعذب من ماء الفرات ، وأطيب من العافية ، فلما خف المتاع ، وفرغ الجراب ، أمسى لا يساوي بعرة ، وبات وحيداً فريداً كالبوم الموسوم بالشؤم ، ولكن أبا العنبس ساح في الأرض كالمسيح ، فاستفاد متاعاً ومالا ، وأفاد ذكاء ودهاء ، وعاد الى بلده فعاد اليه خلانه القدماء ، ولزمه أصحابه وأعوانه المنافقون ، فأعاد فيهم سيرته حتى خدعهم ، وبذل لهم ليلة حتى أحاق بهم السكر فحلق لحاهم وأعادهم الى دورهم يحملهم الحمالون بعنان الباذنجان ، وقد ذكر هذا الأمر ونبه عليه ليؤخذ الحذر من أبناء الزمان ، وتترك الثقة بالاخوان الانذال ، وبمن يستعير الكتب ولا يردها .

ويتبع البديع في أسلوبه السجع والتنميق ، ويكثر من أنواع البديع ، وضروب التوشية والترصيع ، ولكنه يسترسل أحياناً مع الطبع ، فكأن مقاماته نثر مرسل لا تكلف فيه ولا تثقيف ، وفي سجعه خفة على الطبع لا نجدها عند أكثر أصحاب المقامات سواه .

وهو يجيد الفن القصصي أحياناً ، وقد يتغلب فن القصة عنده على فن المقامة

في بعض مقاماته ، ولكنه لا يزال مؤلف مقامات لا منشىء قصص ، وما يزال من امراء الكلام ، على جمال في فن النقد ، وروعة في ميادين الخيال .

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحتني النوى مطارحها ، حتى وطئت جرجان الأقصى فاستظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ، وحانوت جعلته مثابة[1] ، ورفقة اتخذتها صحابة . وجعلت للدار حاشيتي النهار[2] وللحانوت ما بينهما ، فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله ، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت ، وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم . واشتد الجدال بين الجماعة فسألوا الشاب قالوا :

ما تقول في امرىء القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها[3] واغتدى والطير في وكناتها[4] ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً .

قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال : يثلب اذا حنق ، ويمدح اذا رغب ، ويعتذر اذا رهب ، فلا يرمي الا صائباً .

قلنا فما تقول في زهير ؟ قال يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .

قلنا : فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح اغلاق خزائنه .

---

(1) مكان الاقامة والمرجع .
(2) اوله واخره .
(3) ساحاتها .
(4) اعشاشها .

قلنـا : فما تقـول في جرير والفـرزدق ، أيهما أسبـق ؟ فقـال : جرير أرق شعراً ، وأغزر بحراً ، والفرزدق أمتن صخراً،وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجـواً وأشرف يوماً[1] والفرزدق أكثر روماً وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا سلب أردى ، وإذا مدح أسنى . والفرزدق إذا افتخرأجزى، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى .

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعاني حفظاً ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً .

قلنا : فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنـا من أخبـارك قال : خذهما في معرض واحد وأنشد شعراً يصف فيه حاله ، ويصور بؤسه وشقاءه ، ويطلب العون لزوج بسر من رأى ، وأولاد في جبال بصرى ، وإذا به أبو الفتح الاسكندري فسأله عيسى بن هشام عن زوجه فضحك وقال :

ويحـك هذا الزمـان زور فـلا يغـرنـك الغـرور
لا تلتـزم حـالـة ولكـن در بالليالي كمـا تـدور

وفن القصة في هذه المقامة ضعيف لا يتعدى الحانوت والدار ، ولا يخرج عن الصخبة ومناشدة الأشعار ، ولا ينتهي الا ببيان ذكاء البطل وحيلته ، أما الأسلوب فيكاد يكون مسجوعاً كله ، ولكن سجعه مطبوع ، قليل تكلفه ، خفيف سمعه ، غير أن فيه شيئاً من الحشو والضعف ، وفيه عبارات مرسلة سهلة لا سجع فيها ولا تثقيف .

أما الغرض الأول من المقامة فنقد الشعر والمفاضلة بين الشعراء ، وقد وفق البديع في نقده الأدبي الى حد بعيد ، فلا يمكن شاعراً أن يفوق الشعراء في ميادين الشعر كلها ، وإنما لكل شاعر ميدان يجـود فيه ويسبـق ، وميادين يقصر فيهـا ولا

---

(1) اشرف ذكراً لأيام قومه .

يلحق ، غير أن نقد البديع ينقصه التفصيل والبيان ، ويعوزه الشاهد والحجة والبرهان ، وفيه أحكام عامة يفسرها القارىء كما يريد ، فما قيل في زهير يصح أن يقال في ابن الرومي ، وأحوج ما يكون النقد اليه الشاهد والبرهان والتخصيص . أما المفاضلة بين جرير والفرزدق ففيها من التخصيص والتمييز ما يرفع من قيمة البديع في النقد .

وفي هذه المقامة تظهر شخصية بطل مقامات البديع ، فهو أديب أريب ، وذكي مطلع ، وناقد بارع ، وشاعر جامع ، ولكنه كذوب محتال ، يطمع في المال ولا يخجل من أن يستجديه على ذكائه وعلو أدبه .

وشعر البديع في هذه المقامة ضعيف ، ولم يشتهر البديع بالجودة في الشعر ، والاجادة في فن النظم والقريض ، إلا إذا كانت قصيدة بشر في المقامة البشرية من نظمه ، فانها آية في البلاغة ، وتحفة في جمال الفن وجودة النظم وروعة الخيال ، وهي تختلف عن سائر شعره ، فاما أن تكون لشاعر غيره واما أن تكون فلتة إذا كان ثمت من يؤمن بالعجائب والفلتات .

والبديع في هذه المقامة من المتشائمين في نظره الى الحياة الاجتماعية ، فالزمان زور ، والدهر قلب ، والناس كالزمان يدورون ويتقلبون ، ويكذبون ويحتالون . ويكاد البديع يكون في مقاماته كلها من الذين يرون الزمان زوراً ، والناس أشراراً أو جهالاً ، يسخر الأذكياء من الجهال ، ويتفنن القادرون في ضروب الخداع والاحتيال .

ولم يلتزم البديع الوحدة في مقاماته كلها ، فقد يكون رواية عيسى بن هشام أحياناً راوي القصة وبطل المقامة معاً ، فهو في البغدادية فقير لا يجد مالاً يشتري به طعاماً ، فيحتال على أعرابي ، ويدعي أن له معرفة بأبيه ، وصداقة متينة معه ، فإذا عرف أنه مات بكى وانتحب وكاد يشق ثيابه ، فلما وثق به الأعرابي دعاه الى دكان شواء ، فأكلا لحماً مشوياً ، ثم خرج من الدكان بحيلة فاضطر الأعرابي الى دفع ثمن الشواء ، وفي الأسودية يتهم بمال فيهرب من وجه السلطان . وشخصية عيسى بن

هشام عندما يكون بطل المقامة تشبه شخصية أبي الفتح الاسكندري من حيث الحيلة والخداع ، والعلم والأدب والدهاء .

وليس بين المقامات وحدة في الزمان ، فعيسى بن هشام يذكر ما حدثه به عصمة الفزاري الذي صحب ذا الرمة وسمع منه الشعر في البادية ، وحضر مجلس سيف الدولة حيث عرض على الحاضرين فرساً يفوز به من أحسن وصفه ، وبين الجاهلية وسيف الدولة أكثر من ثلاثمائة سنة .

الشيخ ناصيف اليازجي (1800 م ـ1871 م)

يازجي كلمة تركية معناها كاتب ، وقد لقب بها أحد جدود الشيخ ناصيف وكان كاتباً لبعض عمال الاتراك ، وأصل أسرة اليازجي من حمص .

ولد الشيخ ناصيف اليازجي بكفرشيما قرب بيروت في 25 أذار سنة 1800 ، وكان أبوه طبيباً على مذهب ابن سينا ، فدرس الشيخ ناصيف أصول الطب العربي القديم وبرع فيه .

وظهرت عليه علائم الذكاء منذ حداثته ، وكان له حافظة قادرة وولع بالادب ، فطارت شهرته وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره .

وفي سنة 1828 اتصل بالامير بشير الشهابي ومدحه ، ولكن المعلم بطرس كرامة كان شاعر الامير فلم يحظ الشيخ حظوة المعلم عند الامير .

وعندما نفي الأمير من لبنان نزل الشيخ ناصيف إلى بيروت واتصل بالمرسلين الأميركيين وساهم في ترجمة الكتاب المقدس ، وعندما أنشأ المعلم بطرس البستاني مدرسته الوطنية المشهورة ، اختار الشيخ ناصيف اليازجي لتدريس الصف الأول فيها اللغة العربية ، فوضع أرجوزته في النحو المعروفة بنار القرى في شرح جوف الفرا ، أو بالأرجوزة فحسب .

ثم علم اللغة العربية في الكلية البطريركية الكاثوليكية ففي الجامعة الأميركية ،

وكان يضع الكتب في الصرف والنحو والبلاغة والعروض ، فاشتهر أمره وذاع ذكره ، وراسله الأدباء ، وزاره في داره العلماء .

وفي سنة 1869 أصيب بالفالج النصفي ، وفي سنة 1871 أصيب بالسكتة الدماغية فمات ودفن في مقبرة الروم الكاثوليك في الزيتونة في بيروت ، ونقشت على قبره أبيات من الشعر مطلعها :

هــذا مقــام اليازجــي فقف به   وقل السـلام عليك يا علـم الهدى

وللشيخ ناصيف آثار في اللغة والأدب كثيرة أهمها مقاماته المعروف بمجمع البحرين ، وأرجوزة في الصرف وأخرى في النحو ، وعقد الجمان في المعاني والبديع والبيان ، وقطب الصناعة في أصول المنطق ، وارجوزة مختصرة في الطب اسمها الحجر الكريم في الطب القديم ، والعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، وقد نقحه ابنه الشيخ ابراهيم ورتبه وهذبه وتركه بإسم أبيه ، وثلاثة دواوين من الشعر فيها حكم ومديح ورثاء الخ . ولكن الشيخ لم ينظم في الهجاء .

مقامات الشيخ ناصيف اليازجي

الراوي في مقامات الشيخ ناصيف اليازجي سهيل بن عباد ، وهو رجل فاضل كريم يحب السياحة والسفر ، ويمل حياة الحضر ، فيسيح في البادية ، ويترك المدن إلى ربوع القبائل . ثم يزور المدن الكبيرة ليتفرج على الآثار ، ويتنسم ما يلذ له من الأخبار ، وقد كلف منذ صباه بعلم الأدب وشغف باستقراء لغة العرب ، فكان ينضي إليها المطايا ، ويتفقد الخبايا في الزوايا ، وكان متزوجاً فماتت زوجته ، ولما لم يجد في حيّه من تروق في عينيه ، أزمع الإغتراب ، وبكر بكور الغراب ، ثم لم يلبث أن وقع في يد بطله فاحتال عليه بما استطاع ، وعاد أدراجه لما اعترض دون سفره من الفاقة ونفاد المال والمتاع . وكأن الشيخ كان متأثراً بمقامات الحريري فذهب راويته إلى سروج عله يجد لبطل مقامات الحريري أثراً يتيمن به ، أو يعثر على أحد من عقبه ، وكان أكثر هواه ديار العرب العرباء ، لما فيها من الشعراء والخطباء ، والفصحاء والأدباء ، والبلغاء والنجباء .

وطالت أسفار سهيل بن عباد ، فمن الحجاز إلى الشام ، ومن اليمن إلى بغداد ، ومن البصرة إلى الموصل ، ومن مكة إلى القدس ، ستين مكاناً في ستين مقامة ، وفي القدس انتهى المطاف بتوبة بطل المقامات ميمون بن خزام .

وراوية الشيخ ناصيف اليازجي كسائر رواة المقامات ، عالم أديب ، يلذ له السمر ، ويرغب في اكتساب العلم والبلاغة والأدب ، غير أنه يختلف عن راوية البديع مثلاً بكرم أخلاقه ، وطيب خصائله ، وفي أنه وسيلة للرواية لا يشارك البطل في أعماله ، فهو من حيث أصول الفن وسيلة للرواية لا يخرج عن اختصاصه ، وكثيراً ما يحتال البطل على الراوي نفسه حتى يرهنه في التميمية بناقة ، ويسلبه ماله في الهزلية بحيلة الزواج .

أما بطل مقامات الشيخ ناصيف اليازجي فهو ميمون بن خزام ، ويساعده في معارك بطولته ابنته ليلى وغلام له اسمه رجب ، ففي الصعيدية تدعي ابنته أمام القاضي انها زوجته وأنه خدعها في الزواج وأدعى الفتى وهو فقير لا يملك شروى نقير[1] ، وهي تطلب الانفاق وإلا فالطلاق ، فيدفع عن نفسه بالتلاعب بالألفاظ ، ويدعي أنها عنده في راحة وهناء . تحكم في الأدخال والإخراج ، وتستبد في بيته استبداد الحجاج ، ولكنها في استبدادها آمنة مطمئنة لأنها لا تخاف اللصوص ولا تحمل الزيت إلى السراج ، ولا تعاني غسل القدور والثياب . وما يزالان حتى ينالا من القاضي المال ، فيعودا بأحسن حال . وفي اليمنية ، يدعي الغلام أنه صاحب ناقة ، استأجرها منه وقال : إذا بلغنا اليمن لا أسلمك الزمام حتى أسلمك الأجرة عن تمام ـ فسأله القاضي عن ذلك فضحك حتى استلقى على قفاه وقال : قد جعلت تسليم الأجرة موعداً لتسليم الزمام ، فأنا لا أسلمه الأجرة والسلام .

فأعجب القاضي ببيانه ، وخاف من حد لسانه ، وحكم له ، ثم طلب منه دينار المنع[2] فهدده بالهجاء أو يشتري عرضه منه بالمال ، فدفع له ديناراً من الذهب

---

(1) شق نواة التمر .

(2) ما يأخذه القاضي من المدعى عليه إذا منع الدعوى عنه .

ليسكت عنه ، ودفع لغلامه وهو خصمه ديناراً آخر حتى لا يكون في الحكم مأخذ . وفي الإنبارية تدعي الفتاة على رجل أنه قتل أباها ، ثم تأتي بأبيها وبغلامه شاهدين عليه فتفوز من الدية بالترضية . وفي البغدادية والحلبية والصورية للفتاة مواقف ، وفي الساحلية والمصرية والعدنية للغلام في الخداع والاحتيال مآثر .

وبطل مقامات الشيخ ناصيف كسائر أبطال المقامات ، عالم كبير قدير ، وأديب بليغ بارع ، وذكي لامع داهية ، ولكنه محتال يخادع الناس ليفوز بأموالهم ، ويسخر منهم ليتمتع بنعيم الحياة ، ويكذب في سبيل الفوز والنجاة :

والصـدق ان ألفـاك تحت العطب ... لا خـير فيه فاعتصـم بالكذب

بمثل هذا كان يوصيني أبي

وهو حينا طبيب عالم بأصول الطب والعلاج ، وحينا دجال يحتال بالطب للفوز بأسباب الحياة ، وهو حيناً شاعر ينظم أصول الطب وقواعد الاجتماع وروائع الحكم ، وحينا عالم في اللغة ، بارع في النحو والبديع والبيان ، وحينا واعظ يبكي السامعين ، وحينا داهية يعجز العلماء والأدباء ، ولكنه في المقامات كلها ماجن محتال ، وكذاب خداع ، إلا في المقامة الأخيرة حيث يتوب ويطلب العفو والغفران ، قال في الطائية :

أنـا الغملج[1] الـذي لا ينكر ... أكون تارة خطيبـاً ينذر

وتـارة زير نسـاء يسكر ... وتـارة مصـلياً يستغفر

وتـارة راصـد نجـم يسحر ... وتـارة شيخ علـوم يبهر

ويكثر الشيخ ناصيف من الشعر في مقاماته . فكأنه شاعر أكثر منه كاتباً ، وشعره في المقامات قوي متين ، عليه آثار الصنعة والتهذيب ، فكأنه يستمد أسلوبه من أسلوب المقامات في الصنعة والتكلف والتثقيف . وقد يخرج من ساحة المقامة ليلج باب الشعر الصحيح كما نراه في قصيدة الحكمية وفي قصيدة التوبة في الختام .

---

(1) الغملج : من لا يثبت على حال .

وسجعات الشيخ ناصيف اليازجي قصيرة ، وهي على الأغالب فقرات من عبارات ، وأجزاء من جمل . قال : حكى سهيل بن عباد قال : كان لي زوجة ضاع اليدين ، كريمة النبعتين ، فحسدتني عليها المنون ، وخانني فيها الدهر الخؤون ، فلبثت بعدها طويلا ، أردد زفرة وعويلا ، وأنوح بكرة وأصيلا . وقال : حتى دخلناها بسلام ، ونبذنا مخاوف الظلام ، تحت تلك الأعلام .

ويهتم الشيخ ناصيف باللفظ أكثر من اهتمامه بالمعنى ، ويتلاعب بالكلام تلاعباً سبق فيه القدماء ولم يبلغ شأوه فيه كاتب أو صاحب مقامات .

وكان على جانب عظيم من كرم الأخلاق . وطيب الشمائل والصفات ، ورأى شرور الناس ونقائصهم فأصبح من زمرة المتشائمين ، وحمل على الناس فلم ير فيهم غير الكذابين والمنافقين والأشرار ، وتأثر بالمتنبي في تشاؤمه ، قال المتنبي :

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

وقال الشيخ ناصيف :

فإن راعيت إنساناً فما أنت بإنسان

وقال :

وصفت الناس بالنكر وإني لست بالناس
ولكن نسي الغافل أني أحد الناس

وقال :

أعوذ بالمهيمن الفياض من أهل هذا الزمن المهتاض [1]
أسلمهم كالأرقم [2] اللضلاض [3] يلسع كل قادم وماض

ويجمع الشيخ ناصيف اليازجي في مقاماته مئات من أمثال العرب مما لم يجمعه

---

(1) الظالم .
(2) الحية التي فيها سواد وبياض .
(3) المتلفت يميناً وشمالاً .

أحد قبله . ويذكر فيها أيام العرب ووقائعها ، وأسماء المطاعم والنيران وساعات الليل والنهار ، والرياح ، وأيام برد العجوز ، ومشاهير العرب وخيولها وبما اشتهر كل منها ، والكواكب السيارة والبروج ، وما يطلق على الخيل والإبل باعتبار الأعمار والألوان ، وقيود المساكن والسعة والامتلاء والخلاء ، وغير ذلك مما لا يستغني عنه الأديب ، ومما يدل على اطلاع واسع على اللغة ، وعمل مضمن مفيد ، فللعرس الوليمة ، وللميت الوضيمة ، والساعة الأولى من النهار البكور ، والرابعة الضحى ، والثامنة العصر ، والتاسعة الأصيل . والساعة الأولى من الليل الشفق ، والثالثة الغسق ، والثامنة الهزيع ، والعاشرة السحر ، والحادية عشرة الفجر ، والثانية عشرة الصبح . وأول خيل السباق المجلي ثم المصلي ثم المسلي والعاشر السكيّت . وفيها هزيز الريح وحفيف الشجر وهزيم الرعد ودوي المطر وعزيف الجن وصرير القلم ، وفيها شيخ الرأس وهشم الأنف ووقص العنق وهتم الأسنان وقصم الظهر ، وفيها كسرة الخبز وفلذة الكبد ، وصبابة الشراب ، وفرزدقة العجين ، وخصلة الشعر وكبة الغزل ، وفيها أسماء الإنسان باعتبار الإنسان من الجنين والطفل ، إلى الهرم والهم في الرجل ، والعجوز والحيزبون في المرأة ، وكاليافع فالفتى فالطرير في الشاب ، يقابلها الكاعب فالناهد فالمعصر في الفتاة ، وفيها قيود الإشارة ، فبالرأس أومأ ، وبالجفن أومض ، وبالحاجب غمز ، وبالشفاه رمز ، وباليد إشار ، وبالكم الاح .

وفي المقامات أبحاث لغوية عديدة ، ومشاكل نحوية كثيرة يحتاج إليها المتخصصون في اللغة والنحو ، ويرتاح إليها المعجبون بمشاكل الإعجاز والإعراب ، فابنة البطل تنادي : يا شاري اللبن الرخيص الثمن ، بالرفع والنصب والجر . وفيها أقسام التنوين العشرة ، وما يعرب من مكانين كامرىء وابنم ، وما يعرب أصله ويبني فرعه كحذام ، وفيها أرجوزة مختصرة في علم النحو سماها خلاصة الخلاصة وجمع فيها أكثر أبحاث النحو فيما لا يتجاوز سبعة وعشرين بيتاً من الشعر .

وفي مقامات الشيخ ما يدل على ذكاء غريب ، ومقدرة فائقة ، وصنعة صعبة ، مما لم يسبقه إليه لغوي أو كاتب ، ففيها أبيات المديح التي إذا طرحت أنصافها صارت هجاء ، وأبيات الهجاء التي تتحول بالتصحيف مدحاً ، وفيها الأبيات العاطلة أي التي لا نقط فيها ، والمعجمة وكلها منقط ، والملمعة وهي التي شطر منها مهمل وشطر معجم ، والخيفاء وهي الأبيات التي كلمة منها منقطة وكلمة بلا نقط ، والرقطاء وهي التي حرف منها مهمل وحرف معجم ، وفيها عاطل العاطل وهو الذي لا نقط في اسمه ولا في مسماه كالدال دون العين ، وفيها أربعة عشر بيتاً لا تستحيل بالانعكاس ، ولم يرد عن العرب منها إلا أبيات أربعة للحريري ، قال :

قمر يفرط عمداً مشرق   رش ماء دمع طرف يرمق

وفيها بيتان طردهما مديح وعكسهما هجاء ، وغير ذلك من الألغاز والأحاجي والتفنن في الصنعة ، مما يعجز عنه الفحول ، وإذا قيل : وأية فائدة في مثل هذه الصنعة المتعبة ، والسباق المضني ؟ قيل : وأية فائدة في مباريات الألعاب والمصارعة وغيرهما حتى تعطى الجوائز للفائزين دون حساب ؟ وإذا كان في الركض ورمي كرات الحديد والمصارعة تمرين للأبدان ففي مثل هذه الصنعة تمرين للعقول والإفهام . وما زال الشيخ يجري فيجد الكتاب والأذكياء في اللحاق به ، ولو كان في أشياء لا يظهر فيها فائدة أو منفعة ، وما يزال قسم كبير من حياتنا وأعمالنا لا نفع منه ولا نتاج .

والفن القصصي في مقامات الشيخ ناصيف مثله في سائر المقامات ، ضعيف لا عقدة فيه ولا حبكة ، غير أن الشيخ يقترب من جودة الفن في بعض مقاماته حتى يصعب حل العقدة ، فيشتاق القارىء إلى معرفة النهاية .

وإذا فقدت مقامات الشيخ ناصيف اليازجي مقامها كمقامات ذهبت لغتها ومات أسلوبها ، فإنها لا تفقد مقامها كمجموعة من الأبحاث اللغوية ، وأمثال العرب وأيامها ، وبعض القيود ، كقيود الأصوات والإشارات والأسنان ، وغير ذلك مما يحتاج إليه الأدباء .

مقابلة بين مقامات البديع ومقامات اليازجي

1 ـ مقامات البديع أقرب إلى الفكاهة والسخرية ، ومقامات اليازجي أقرب إلى الجد حتى إذا هزلت كان هزلها قريباً إلى الجد .

2 ـ البديع أجمل خيالاً ، وأحلى استعارة ، وأبدع تشبيها وكناية .

3 ـ البديع أقرب إلى الإنشاء المرسل ، واليازجي أرسخ قدماً في الأسلوب المقامي .

4 ـ اليازجي أقرب إلى الصنعة والتثقيف . وأكثر تفننا في السجع والتوريه والمشاكل اللفظية الصعبة . وأقدر في الألغاز والأحاجي . والتفنن في ثنايا اللفظ وصعوباته .

5 ـ اليازجي أقرب إلى جمع أمثال العرب وشوارد اللغة والأيام والقيود وما شاكل ذلك .

6 ـ كلاهما متشائم . يرى الناس شراً والناس مخادعين منافقين . ولا سبيل إلى الفوز بأسباب الحياة إلا بالحيلة والكذب والخداع .

المقامة السروجية

أخبر سهيل بن عباد قال : أردت الخروج إلى سروج(1) لعلي أحد لابي ريد(2) أثرا أتيمن به . أو اعثر على أحد من عقبه . فحسرت عن ساقي ويدي وقلت سروج يا ناق فسيري وجدي(3) . . .

ويلتقي بميمون بن حزام فيوصيه قال : يا بني . إذا ركبت من الصحراء

(1) مدينة ق الجزيرة بين الفرات ودجلة .
(2) بطل مقامات الحريري
(3) اسرعي من وجد

فاطلب حد العذراء[1] . وإذا نمت فاعتنق الصبي[2] . ولا تصل على النبي[3] . واشرب من كأس الفاجر[4] لا من كأس التاجر[5] . وتصدق على الأمير[6] بجني عرس الفقير[7] . وإذا كلفت حمل الجنازة[8] فاطلب المفازة . وإذا اعتمدت السلب[9] في الليل فعليك بنهب الخيل[10] . وإذا دخلت الحلقة فاحذف[11] السلام ، واقتصر على ما كذب[12] من الكلام . وحرم الصبر[13] على الأسير . والجبر[14] على الكسير . واقطع السواعد[15] . ولا تتبع القواعد[16] . . . واحذر لنفسك من الصوم[17] . وادخل السوق عند النوم[18] . واتبع ملاح[19] الجواري[20] . ولا تتبع الكاتب[21] . والقاري[22] . واطرد

---

(1) لقب الكوفة .
(2) السيف .
(3) الطريق .
(4) محل انفجار الماء في الينبوع .
(5) بائع الخمر .
(6) قائد الأعمى .
(7) حفرة حول النخلة الصغيرة ليجتمع فيها ماء المطر .
(8) زق الخمر .
(9) المشي أو الركوب .
(10) نوع من الركض أي أسرع .
(11) خفف .
(12) وجب .
(13) الحبس إلى أن يموت المحبوس .
(14) القهر والإغتصاب .
(15) مجاري المياه .
(16) النساء اللواتي لم يتزوجن .
(17) القيام بلا عمل .
(18) الكساد .
(19) الرياح التي تجري بها السفن .
(20) السفن .
(21) الذي يحرز الصفيحة إذا انشقت .
(22) صانع الضيافة .

الـلابس (1) واكرم العاري (2) . واحرص على الأعراض (3) دون الجواهر (4) ، واعدل عن المسلمات (5) إلى الكوافر (6) ، واضرب كبد الأمام (7) ، وأستعذ (8) الله ما بقيت والسلام .

قال : وكان القوم قد أرعوه سماعاً ، فانكروا عليه اجماعاً ، لكنهم اعتصموا بالحزم . فصبروا كما صبر أولو العزم (9) ، حتى إذا فرغ من توصيته أخذوا بناصيته . وقالوا أولى لك يا شولة عدوان (10) ، وهيلة غطفان (11) ، قد أمرت بالسوء ونهيت عن الإحسان . فأرغى الشيخ وأزبد . وقال ما اشبهكم بولد الخليل بن أحمد (12) . . .

ثم فسر لهم ما أراد من غريب الكلام ، فدفعوا له عن كل عبارة دينارين . وكتب الوصية سهيل بن عباد فنال من القوم أجرته ، ثم خرجا يجران الذيول وراح الشيخ يقول :

---

(1) المدلس .
(2) الضيف .
(3) جمع عرض الكرامة والشرف . أو الظاهر .
(4) الحجارة الكريمة . أو المحتويات .
(5) اللواتي يبتذلن للرحال .
(6) المستترات .
(7) أسلك في وسط الطريق .
(8) استعن به .
(9) قيل المراد بهم نوح وإبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداود وعيسى .
(10) جارية كانت لبني عدوان وكانت تنصحهم فتعود نصيحتها عليهم وبالاً فصارت مثلاً .
(11) عنز كانت لبني غطفان تنطح من يأتيها بالعلف وتأنس بمن يحلبها .
(12) مستنبط العروض قيل إنه كان يوماً يقطع بيتاً من الشعر فدخل عليه ولد له ورآه يحدث نفسه بكلام غريب ، فخرج يقول : جن أبي . . فاجتمع الناس عليه ، فلما علم القصة نظر إلى ولده وقال :

لـو كنـت تعلـم ما أقـول عذرتني   أو كنـت اجهل ما تقـول عذلتكا
لكن جهلـت مقالتـي فعذلتني   وعلمـت أنـك جاهـل فعذرتكا

يا رب يوم قد قرعت الظنبوب (1) مندفقاً فيه اندفاق الشؤبوب (2)
أشرب بالزق (3) وأسقي بالكوب (4) والناس بين غالب ومغلوب
أنا أبو ليلى وسيفي المعلوب (5)

والأسلوب في هذه المقامة مسجوع ، قصيرة فقراته ، موزونة أجزاء عباراته ، تظهر عليه آثار الصنعة والتكلف . وليس في المقامة نكتة أديب . أو نقدة إجتاعية ، أما الفن القصصي ففيه كثير من الضعف ، والعقدة في شرح الكلمات الغريبة لا في صلب القصة ، وأما الشعر فيعتوره الضعف ، ويغلب عليه الهلهلة ، ولكن في المقامة شيئاً طريفاً هو هذا الكلام الذي يخالف ظاهره باطنه ، وهو ما سعى إليه الشيخ فأدركه ، وأراده فوفق في الوصول إلى ما يريد .

شعر الشيخ ناصيف اليازجي

إذا كان الشعر وسيلة إلى التعليم ، وسبيلاً إلى حفظ قواعد العلم وأصوله ، فالشيخ ناصيف اليازجي من أكبر شعراء التعليم بل أكبرهم ، ومن أقدر من نظم القواعد شعراً بل أقدرهم ، وكان مثل هذا الشعر يلذ للقدماء ، وما يزال بعض المحدثين يرى فيه سبيلاً إلى التعليم ، وطريقاً إلى إفادة المتخصصين ، وما يزال بعض من يريد التعمق في اللغة يستندون إلى شعر الشيخ ناصيف ، ويحفظون من اراجيزه ، ويغرفون من بحره ، قال :

وتابع التابع فيما أعربا في كله اتباع لفظ وجبا

---

(1) عظم الساق كناية عن الجدّ والإسراع .
(2) الدفعة من المطر .
(3) وعاء الخمر من جلد .
(4) إبريق صغير لا عروة له .
(5) سيف الحرث بن ظالم الذي قتل به خالد بن جعفر الكلابي والبيت الأخير للحرث .

وللشيخ ناصيف من هذا الشعر التعليمي الذي يحلو لبعضهم أن يسميه شعراً ، ارجوزة مختصرة في اللغة ، وأرجوزتان في الصرف ، وأرجوزتان في النحو ، وأرجوزة في علم العروض والقوافي ، وأرجوزة في البيان ، كما أن له أرجوزة مختصرة في الطب ، ولا يقل الشيخ ناصيف في أراجيزه من حيث الفن الشعري ، والغاية التعليمية ، عن أمثاله من أصحاب هذه الأراجيز .

وإذا كان الشعر حكماً متفرقة ، وأفكاراً سديدة منشورة ، فقد كان الشيخ ناصيف اليازجي من الشعراء الحكماء ، نظم كثيراً من الأفكار الحكمية الشائعة ، ووصف كثيراً من أخلاق الناس وصفاتهم ، ولكنه كان إلى وصف الأخلاق السيئة أقرب منه إلى ذكر الأخلاق الحميدة ، فالإنسان في رأيه شرير كذاب منافق ، وبين الناس كثير من الأشرار المنافقين ، والإنسان عنده بخيل مغرور طماع ، وبين الناس عدد كبير من البخلاء المغرورين .

وللشيخ في مقاماته أرجوزة حكمية ضمنها بعض الأفكار الصائبة ، والحكم السائرة ، وأبدع في وصف الأشرار من الناس ، فكلهم يذمّ غيره ، وكلهم مطبوع على البخل ولا يجود إلا لغاية في نفسه ، وكلهم طامع يريد أن يغترف البحر ولا يترك منه لسواه قطرة . والإنسان ينسى من الإحسان جبلاً ولا ينسى من الإساءة ذرة ، وهو أناني لا يحب غير نفسه . فإذا أحب غيره فحبه يعود إلى نفسه ، ولعل هذا الحب الذي يراه الشيخ نقيصة ، ويراه أكثر علماء الأخلاق شراً ، هو الحب الصحيح الخير الثابت .

والإنسان عند الشيخ يجهل نفسه ، وهو مطبوع على الظلم والإساءة ، فإذا لم يظلم فلعلة ، وإذا لم يسيء إلى الناس أساء إلى نفسه . والناس لا يحمدون الإنسان إلا إذا مات . وقد وفق الشيخ في هذه الفكرة فما زلنا كذلك :

لا يحمد القوم الفتى إلا متى ... مات فيعطى حقه تحت البلى
من قال لا أغلط في أمر جرى ... فهذه أول غلطة ترى

والإنسان عند الشيخ ناصيف اليازجي كالإنسان عند المتنبي . جاهل منعم في الحياة ، لا يفكر إلا باصطباح واغتباق ، وعاقل معذب يهتم بمعالجة أمور الناس ، والفقير في رأي الشيخ ناصيف اليازجي أسعد من الغني ، ولا سيا إذا كان تقياً :

وأيسر كل موت موت عبد   فقير زاهد حسن السياق
فليس له على ما فات حزن   وليس بخائف مما يلاقي

وكان الشيخ ناصيف اليازجي ديناً تقياً ، لذلك كان يرى تقوى الله أفضل السجايا ، وأنفع الخصال للإنسان . أما الحياة عنده فدار ممر ، وأما أخسر الناس فمن جمع من المال فوق ما يحتاج إليه .

وأخسر ما يضيع العمر فيه   فضول المال تجمع للرفاق

والشيخ ناصيف في حكمه أميل إلى الإنفراد منه إلى الإجتماع ، وأقرب إلى منفعة النفس منه إلى السعي في إصلاح الناس . فهو يرى أن يداوي الإنسان نفسه بالتقية . وأن يحمي نفسه من الظالمين بالسكوت على ظلمهم :

ودر مع الدهر وانظر في عواقبه   حذار أن تبتلى عيناك بالرمد
متى تر الكلب في أيام دولته   فاجعل لرجليك أطواقا من الزرد
واعلم بأن عليك العار تلبسه   من عضة الكلب لا من عضة الأسد

غير أن الشاعر الحكيم لا يكتفي بالحكم ينظمها شعرا ، ولا يقنع بالفكرة السامية يجمعها جمعاً أو ينثرها نثراً ، ولا يكون الحكيم شاعراً ولو نظم فلسفة أفلاطون وحكم أرسطو ، ولكن الشاعر الحكيم هو الذي يستعمل الحكم في أغراضه ، ويستخدم الأفكار السامية في موضوعات شعره ، والفكرة السامية لا تكون شعراً فنياً إلا إذا وقعت في موقعها ، وربطت بين الحكمة والفن ، والبلاغة في الكلام موافقته لمقتضى الحال ، وإذا كان الشيخ ناصيف اليازجي قد قلد المتنبي في حكمه ونظمه فما يزال المتنبي حكيم الشعراء في وضع الحكمة موضعها . ونظمها

حيث تقتضي الحال نظمها ، وفكرة بسيطة رشيقة وضعت موضعها خير من حكمة عميقة نثرت في غير الحال التي تقتضيها .

وإذا كان الشعر كما يجب أن يكون فناً جميلاً ، يجمع بين أرقى الفنون الجميلة ، من موسيقى جميلة عذبة ، وصورة جميلة رائعة ، وفكرة سامية رشيقة ، وعاطفة جياشة دفاقة ، فإن حظ الشيخ ناصيف اليازجي من الشعر لم يكن وافراً ، والشعر إذا لم يصلح للغناء خسر دعامة قوية من دعائمه الثلاث ، وليس في شعر الشيخ ما يصلح للغناء الجميل ، والموسيقى العذبة .

وللشيخ تشبيهات جميلة أحياناً ولكنها قليلة ، وله تشبيهات قبيحة ، وصور ضعيفة ، تظهر عليها آثار الصنعة ، قال :

ما زلت مستنداً إليك محدثاً　　فكأنني خبر وأنت المبتدا

أما حكمه فقد كان يقصد إلى أكثرها قصداً ، ويعمد إلى نظمها عمداً ، وقلما كانت تأتيه عفو الخاطر ، فكأنه فيها حكيم لا شاعر .

أما من حيث الشعور فقد كان أكثر شعر الشيخ صنعة وتثقيفاً ، وكان يرى الشعر نكتة غريبة ، أو تورية لطيفة ، أو فائدة علمية ، أو فكرة حكيمة ، قال :

أجل الشعر ما في البيت منه　　غرابة نكتة أو نوع لطف

ولكن للشيخ مواقف تتدفق العاطفة منه جياشة مطبوعة ، فيزاحم شعراء الفن في طبعه وشعوره ، ويجري مع شعراء الطبع في رقته وسلاسته ، قال في رثاء ولده حبيب :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي　　أسفا عليه ويا دموع أجيبي

والشيخ مولع بالبديع ، والبديع وشي الكلام يزيده رونقاً على شرط أن يكون سائغاً مطبوعاً لا تكلف فيه ، قال في رثاء ابنه حبيب :

لك يا ضريح كرامة ومحبة　　عندي لأنك قد حويت حبيبي

وفي كلمة حبيبي تورية جميلة ، زانتها العاطفة ، وجملها الطبع المرسل .

والخلاصة أن الشيخ ناصيف اليازجي من أشهر اصحاب المقامات وأقدرهم ، وله أشياء سبق فيها ، ومقالاته جامعة لكثير مما لا يستغني عنه الأدباء المتخصصون ، وفيها قدرة وذكاء ، وقيمتها في منزلتها اللغوية لا منزلتها الأدبية ، أما شعره فمن أوسع الشعر التعليمي إذا كان هذا النوع من النظم شعراً ، وأما حكمه فأفكار منثورة ، وأما في الفن الشعري فهو مقلد لم يبلغ شأو المطبوعين إلا في لمحات كان الشعور القوي يفيض فيها فيوفق .

الدروس الإجتماعية والأخلاقية (الخلقية)

كان العرب في الجاهلية قبائل متفرقة يحارب بعضها بعضاً ، ولذلك كانت عرى الإجتماع بين القبائل ضعيفة متفككة ، غير أن رباط القبيلة الواحدة الإجتماعي كان متيناً وثيقاً .كأن القبيلة أسرة كبيرة تلتف حول زعيمها كما يلتف الأبناء حول أبيهم .

وكانت أكثر القبائل العربية تعيش حياة البداوة ، تنتقل بأنعامها من مكان إلى مكان سعياً وراء الكلأ ، ولذلك قلت فيها الطبقات الإجتماعية .

أما من حيث الأخلاق فقد غلبت الشجاعة والكرم عندهم سائر الصفات ، وذلك لأن حياة القبائل كانت حروباً متتابعة ، وغزوات متتالية ، ولأن قسماً كبيرا من الجزيرة العربية كان أجدب فقيراً ، فإذا لم يكن الكلأ خصيباً اشتدت وطأة الفقر والحاجة .

وكانت العصبية القبلية الصراط الذي يسير عليه العربي في حياته الإجتماعية ، ومن أمثالهم المأثورة : أنصر أخاك ظالماً كان أم مظلوماً .

وقال الشاعر :

وما أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وكان في الجاهلية بعض القبائل المتحضرة ، وكانت قريش تجار العرب يذهب تجارها إلى العراق واليمن والشام ، فاكتسبوا بعض مظاهر الحياة الإجتماعية الراقية ، وكانوا يدينون بالربا الفاحش ، وكان الكثيرون منهم يطففون في الوزن والكيل والقياس .

وكان المناذرة في العراق عمالاً للفرس ، واكتسبوا منهم شيئاً من حياة الحضارة المترفة ، فبنوا القصور الفخمة ، ولبسوا الخز والديباج .

وكان الغساسنة في الشام عمالاً للروم ، فأخذوا من حضارتهم ، وتنعموا في حياتهم ، فلبسوا رقاق النعال ، وعلقوا ثيابهم على المشاجب ، وزينوا قصورهم بالفسيفساء ، غير أن العرب كلهم ، حضرا كانوا أم بدواً ، ظلوا إلى البداوة في اجتماعهم أقرب ، وإلى الفطرة السمحة في أخلاقهم أميل .

ولما كان الإسلام سن للناس قواعد إجتماعية جديدة ، ومبادىء خلقية كريمة ، فانتشر الصدق والتقوى بين المسلمين ، وأصبح العرب أمة واحدة تدين بمكارم الأخلاق ، وتقسط في الوزن والكيل والقياس ، وتحرم الخمر والميسر والربا .

وكان للجاهليين بعض الدروس الإجتماعية الخلقية ، نجدها متفرقة منثورة في شعرهم ، فقد دعا بعضهم إلى الصلح بين القبائل المتنازعة ، والتعاون بين القبائل المتفرقة ، ومساعدة الفقير والضعيف والمسكين ، كما دعا بعضهم إلى العفة والصدق وغيرهما من مكارم الأخلاق ، قال زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وقال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقال النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

وقال :

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

غير أن هذه الآراء الإجتماعية ، وتلك الحكم الخلقية لم تكن إلا خطرات متفرقة ربما كان من أقصى التساهل تسميتها دروساً .

وكانت الدولة الأموية ، فنشأ في الأمة تياران مختلفان ، تيار ديني ، وتيار قومي عربي ، أما التيار الديني فكان حرباً على اختلاف الطبقات الإجتماعية ، وشعاره « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ودينه ـ المسلمون سواسية كأسنان المشط ـ فلا طبقات إجتماعية مختلفة ، ولا مكارم في الأخلاق إلا ما أوصى به القرآن وورد في الحديث والسنة ، وكانت حياة هؤلاء اقرب إلى الزهد والتقشف ، والبعد عن ترف الحياة ونعيمها ، والتشدد في منع الخمر وسائر المحرمات .

أما تيار القومية العربية فقد كان الناس عنده طبقات : العرب وهم السادة ، والموالي وهم الأتباع . والعرب طبقات بعضها فوق بعض ، وقد قوي هذا التيار حتى منع على الموالي وظائف الدولة ، وحرمهم الزواج من شريفات العرب ، ولو كانوا من المسلمين الأتقياء ، وأخذ شعراء التيارين وخطباؤهما وكتابهما يتجادلون ويتنافرون ، ولكن جدلهما لم يبلغ مبلغ الدرس المنظم والبحث المنسق المحكم .

وغلب على أنصار القومية العربية الميل إلى التمتع بملذات الحياة ، ونعيم العيش وترفه ، ولم يتقيدوا بأحكام الدين كلها ، وانصرفوا إلى جمع الأموال وبناء القصور وما إلى ذلك من مباهج الحياة وزخارفها .

وكثرت الدروس الإجتماعية الخلقية في العصر الأموي ، ولكنها لم تتجاوز خطرات الشعراء ومواعظ الأئمة والزهاد إلى التحليل الأدبي الفني ، فقد كثر الذين يحثون الناس على التمسك بمكارم الأخلاق ويدعون إلى التعاون والإخاء ، والتمسك بأهداب الدين ، والبعد عن المنكر وما حرمه الله ، غير أن هذه الآراء كان ينقصها الدرس الفني الشخصي . والتحليل النفسي الأدبي .

وكانت الدولة العباسية فتغيرت الأخلاق وتبدلت ، وخطا الإجتماع إلى الحضارة خطوات واسعة سريعة ، فلم يتقيد بالعادات المألوفة تقيداً كبيراً ، ولم يراع

التقاليد القديمة مراعاة معتدلة ، بل تطرف واشتط لا يعرف اقتصاداً ولا يؤمن باعتدال .

واختلط العرب بالفرس اختلاطاً متيناً . وبعدت الأمة في حياتها عن البداوة وأخلاقها ، وانغمست في الحضارة واجتماعها ، وقوي نفوذ الفرس واشتد ، وجاهد الخلفاء في محاربة هذا النفوذ جهاداً كبيراً فقتل المنصور أبا مسلم الخراساني ، وفتك الرشيد بالبرامكة ، غير أن نفوذ الفرس في الأخلاق والاجتماع كان أقوى منه في السياسة وأشد .

وللفرس مدنية قديمة زاهرة ، وحضارة راهية راقية ، ولم يؤثر الدين الإسلامي في الفرس تأثيره في العرب ، ففسدت الأخلاق ، وأكثر الناس من اللهو والعبث والمجون .

وكثرت الأموال في العراق ، ووفرت الثروات والأموال ، وكثرت الجواري والغلمان ، وتعددت أسباب اللهو والفسق والطرب فانصرف الناس عن الحرب إلى اللهو ، وعن الجهاد في سبيل الفتح والاستملاك إلى الاجتهاد في سبيل الترف والنعيم .

وقضت السياسة أن تبتعد الحكومة عن العرب وأدبهم ، وأن تتخلص من فضلهم وسيادتهم ، قيل أن أحدهم زين للمنصور أن يستبدل بالكعبة مكاناً في العراق يحج الناس إليه ففعل ولم ينجح .

وأطلق الخلفاء والحكام حرية القول فتمادى الشعراء والكتاب في احتقار الماضي وهدمه ، ورأوا في الدين الإسلامي مجد العرب وسيادتهم فهزىء الشعوبيون بتعاليمه ، وارتكبوا محرماته جهراً لا يخجلون ولا يخافون ، وأعلنوا الكفر والزندقة ، ولم يتورعوا عن الجهر بالفسق والفجور في القول والعمل .

وأخذ الكتاب والشعراء يتفلسفون في الاجتماع والأخلاق حتى برر بعضهم العبث والمجون ، واتخذوا من علم الكلام سبيلاً إلى الدروس الاجتماعية والخلقية .

ورد الزاهدون على الماجنين ، وانتقلت الدروس الإجتماعية والخلقية من ميدان الوعاظ والزاهدين ، إلى آفاق الأدباء من كتاب وشعراء فتفننوا في درس أخلاق الناس ، وأبدعوا في تحليل المشكلات الاجتماعية ، واصلاح أحوال الناس ، ومن أشهر الكتاب في الأخلاق والإجتماع في العصر العباسي الأول ابن المقفع ، وله كتاب الأدب الكبير ، وكتاب الأدب الصغير وكلاهما دروس في الأخلاق والإجتماع ، وإذا كان قد ترجم كتاب كليلة ودمنة ، فإنه قد تصرف في ترجمته تصرفاً كبيراً ، وكتاب كليلة ودمنة كله دروس خلقية واجتماعية .

ومن الكتاب الذين أدركوا العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني الجاحظ ، وله في كتاب البخلاء دروس تدل على سعة في التفكير ، وذكاء في البحث ، وقدرة في الدروس والحكم لا تقل عن قدرة الدارسين في العصر الحديث .

ومن أشهر الشعراء الذين درسوا في فساد الأخلاق ، وتفلسفوا في الدعوة إلى حياة إجتماعية ترتكب فيها المحرمات ، ويسهل فيها أمر الآثام والموبقات بشار بن برد وأبو نواس قال :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجد رباً غفوراً

ومن الشعراء الذين دعوا إلى مكارم الأخلاق ، والزهد في الحياة والإجتماع أبو العتاهية وغيره من الزاهدين .

واضطرب حبل الإجتماع في العصر العباسي الثاني وما يليه ، واختل توزيع الأموال بين الناس فكثر الأغنياء المترفون ، وكثر الفقراء المعدمون ، وانتشر الفساد والرشوة بين الحكام والإدارة ، وأصبحت الدسائس سنة مألوفة . وغلب الطمع في المال على النفوس فلم ير الناس عيباً في الكذب والنفاق ، أو عاراً في النهب والسرقة والإستغلال .

وترجم العرب كتب الفرس والروم ، وبحثوا في الحكمة والمنطق ، واشتغلوا بالعلم والفلسفة والإجتماع ، فكان للكتاب والشعراء جولات موفقة في الدرس

والبحث والوضع والتأليف ، ونبغ فيهم فلاسفة في الإجتماع والأخلاق ، وللفارابي مدينته الفاضلة وهي كتاب يبحث في علم الإجتماع ويدرسه درساً علمياً موفقاً ، وللغزالي دروس واسعة في الاجتماع والتهذيب ، وللمتنبي حكم إجتماعية خالدة ، وللمعرى دروس إجتماعية خلقية راقية ، وفي المقامات دروس موفقة في الإجتماع والأخلاق .

غير أن اضطراب الأمن في الأمصار ، وضعف مركز الخلافة في بغداد حولا ميدان البحث والدرس أحيانا ، ميداناً للقتال والفتك والتدمير ، فكانت الفرق الدينية ، والمذاهب الفكرية والإجتماعية والخلقية تترك سبيل الدرس والإقناع أحيانا ، وتلتجىء إلى السيف في نشر عقائدها . قيل أن القرامطة قتلوا عشرين ألفاً على طريق الحج في يوم واحد .

وكانت عصور الإنحطاط ، فجمدت العقول والقرائح ، وساد الظلم ففسدت أخلاق الظالمين ، ويئس المظلومون من الحياة الدنيا فانصرفوا إلى الأمل بالسعادة والنعيم في جنات النعيم ، وضعفت الدروس كلها حتى الدروس اللغوية ، ولم تسلم دروس الأخلاق والإجتماع من الضعف والإنحطاط .

ونام العرب زماناً طويلاً على بساط الذل والقيود والجراح ، ودوت مدافع نابليون في مصر فأفاقوا ليروا ضعفهم وانخذالهم ، ويشعروا بقوة الغرب ورقيه ، فأخذوا يترجمون ويدرسون ، ويقلدون ويبتدعون ، وكان للدروس الإجتماعية والخلقية من اهتمامهم نصيب وافر، وباب واسع ولجوه إلى ميدان الرقي والإصلاح، وقام الكتاب والشعراء والخطباء يدعون إلى الإتحاد والتساهل ، ويحثون على نبذ التعصب ونشر الإخاء ، وتأثروا بمبادىء الثورة الفرنسية فقاموا يدعون إلى الديموقراطية ومحاربة الإستبداد، وأعجبهم رقي المرأة في الغرب فقاموا يدعون إلى ترقيتها وتعليمها ، ودعا بعضهم إلى السفور وترك الحجاب ، وبعضهم إلى إعطائها من الحقوق ما للرجل في السياسة والأخلاق والإجتماع .

وانقسم الناس في حياتهم الإجتماعية والخلقية أقساماً ، وتفرقوا جماعات وفرقا

ومذاهب فترك بعضهم العادات القديمة ، والتقاليد الموروثة وتطرفوا في تقليد الغرب في اللباس والرقص والأخلاق والعادات حتى أصبح بعض هؤلاء يجهلون لغتهم ويحتقرونها ، ولا يتكلمون في مجتمعاتهم بها ، وتمسك بعضهم بالقديم لا يريد جديدا ، ولا يرى في الغرب خيرا ، ولا يجد في أخلاق الغربيين غير الفسق والفساد والفجور ، ووقف بعضهم بين العرب والغرب يتمسك بما يراه جميلاً مألوفاً ، ويأخذ ما يراه نافعاً مفيداً .

وتوغل الأدباء والعلماء في الدرس فجروا أشواطاً واسعة في ميادين الإجتماع والأخلاق والنظم الإجتماعية والفضائل والرذائل وغير ذلك مما يتعلق بالإجتماع والأخلاق .

ويتفق أكثر الباحثين والدارسين على الدعوة إلى التساهل والإخاء والتفاهم بين الشعوب والحكومات ، ومحاربة الظلم والإستبداد ولكنهم يختلفون في سبيل الإصلاح الخلقي فيدعو قاسم أمين وولي الدين يكن مثلاً إلى حرية المرأة وترك الحجاب ، ويدعو المنفلوطي إلى التحجب وصيانة المرأة من التجدد والفساد . ويدعو ولي الدين إلى تقليد الغرب تقليداً واسعاً ، ويدعو المنفلوطي إلى الرجوع إلى القديم ففيه مكارم الأخلاق . ويدعو بعضهم إلى الأخذ بيد الفتاة وقيادتها في طريق الزواج ، ويتمسك بالأنظمة والقوانين ويأبى الطلاق ، ويدعو بعضهم إلى حرية الفتاة في أمورها كلها ومنها أمور الحب والزواج . ولجبران خليل جبران جولات واسعة في هذا الميدان .

الجاحظ (775 م ـ868 م)

اسمه عمرو بن بحر ، وكنيته أبو عثمان . ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه أي بروزهما ، وقد ولد في البصرة واختلف في سنة مولده فقيل سنة150 هـ . وقيل سنة 159 هـ . وكان منذ حداثته محباً للعلم . مجتهداً في تحصيله يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وسار ذكره في خلافة المأمون فأعجب بكتبه ومدحها . واستقدمه إليه وصدره ديوان الرسائل . ولكنه لم يتحمل نظامها فاستعفى بعد ثلاثة أيام فاعفي .

ثم اتصل الجاحظ بابن الزيات وزير المعتصم فكتب له وأصاب مالاً وافراً ، ورحل إلى مدن الشام وغيرها . فأفاد علماً واطلاعاً .

وكانت خلافة المتوكل فاستوزر ابن أبي دؤاد وكان لابن الزيات خصماً ، ففتك به وخاف الجاحظ فاستخفى ، ولكن قبض عليه وجيء به مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين في قميص سمل ، غير أنه استطاع بحسن بديهته وحلو نادرته أن ينال عفو الوزير ، واتصل به وقدم له كتاب البيان والتبيين ، ثم اتصل بابنه أبي الوليد ، وخلفه الفتح بن خاقان ، ثم اتصل بالمتوكل ولم يحظ عنده قال : « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري . فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني » .

وعمر الجاحظ طويلاً ، ومات في البصرة سنة 255 هـ . الموافقة سنة 868 م وقيل انه مرض في آخر أيامه وأصيب بالفالج النصفي والنقرس ، زاره المبرد قال : « كيف أنت ؟ » فقال : « كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير ما أحس به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » ، وقيل ان كتبه وقعت عليه فقتلته .

شخصيته

كان الجاحظ مشوه الوجه جهما ،ناتيء العينين ،قصير القامة ،لا تنفتح العين على أبشع منه منظرا ،ولكنه كان خفيف الروح حسن المعاشرة ،ظريف الحديث ، مولعا بالنادرة إلى أقصى حدود الولع ،قال : « ما تركت النادرة ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة » ، وأجمل ما فيه من روح الفكاهة أنه كان يتندر على نفسه ، وكثيراً ما سخر من جحوظ عينيه وقصر قامته وبشع منظره .

وكان مجتهداً في طلب العلم لا يفتر عنه نهاراً أو ليلاً . وكان شديد الذكاء

سريع الملاحظة حاد الفطنة حاضر البديهة يتخذ الأدب وسيلة للعلم ، والتسلية واسطة للفائدة .

شخصيته الأدبية

هو من أشهر كتاب الأدب العربي ، مزج بين العلم والأدب ، وجمع بين الخيال والتفكير ، قال ابن العميد : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » وهو كاتب ديموقراطي شعبي . تنازل إلى أدنى الطبقات فوصف البخلاء واللصوص والشحاذين والعرجان والبرصان وغيرهم مما لم يفعله كاتب عربي غيره . وقل من يفعله من كتاب العالم كله .

آثاره

روي أنه خلف ثلاثمائة وستين مؤلفاً بين كتاب كبير يزيد على ألف صفحة ككتاب الحيوان ، ورسالة صغيرة لا تزيد على بضع صفحات ، وأشهر هذه الآثار كتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين ، وكتاب البخلاء وغيرها ، وهو يبحث في العلوم على اختلاف أنواعها ، والأدب على مختلف فنونه ، والعادات والأخلاق على تعدد طبقات الناس فكأنه أخذ من كل علم بطرف ، وله فرقة كلامية عرفت بالجاحظية .

منزلته

إذا كان الأدب في نهضتنا الحديثة يحتاج إلى مثل ابن المقفع ممن يجمع بين بلاغة اللغة وفهم الجماهير ، فالعلم والأدب معاً في حاجة إلى مثل الجاحظ ممن يخضع قواعد العلم الجافة لطلاوة الأدب وحلاوته ، ويخضع الأدب لأبحاث العقل وتحليله ، فالفكر يسئمه البحث العلمي الجاف ، ويعلوه الصدأ إذا اكتفى بالأدب وحده ، وما يزال بين علمائنا وأدبائنا هوى عميقة ، ومسافات شاسعة .

عصره العلمي

كان عصر ابن المقفع عصر ترجمة ونقل . ترجم العرب فيه أدب الفرس وفلسفة الهند وحكمة اليونان . وكان لهذه الكتب أثرها في عصر الجاحظ . فنشأ من اختلاط الثقافات ثقافة جديدة ، هضمتها العربية ومثلها أدباء العرب وعلماؤهم ، فأخذوا في التأليف والإبتداع ومزجوا بين العلم والأدب ، فكان عصر الجاحظ عصر علم وأدب ، وتأليف فيهما . وكانت كتب الجاحظ وهو أفضل ممثل لعصره « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » .

اجتهاده

إذا كان الأدب فناً يرزقه النابغون ، ونفحة إلهية يجاد بها على فئة مختارة من الكتاب والشعراء ، فالعلم شيء لا بد له فوق الذكاء والنبوغ من درس متواصل واجتهاد جبار ، وكان الجاحظ مولعاً بالدرس راغباً في الإستفادة ، درس على النظام مبادىء الكلام وطرق التفكير حتى إذا نضج عمله ، واينع علمه انصرف إلى التأليف مجتهداً في ذلك اجتهاده في درسه . قال المأمون في كتبه : « وقد كان بعض من نرتضي عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة فقلنا قد تربي الصنعة على العيان فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصنعة ، فلما فليتها أربى الفلي على العيان كما أربى العيان على الصنعة » وكفى بالمأمون العالم شاهداً عدلاً على فائدة كتب الجاحظ وأحكام تأليفها .

بحثه العلمي

من أسس البحث العلمي الحديث أن يتجرد الباحث من كل عاطفة وهوى وتقليد وأن يشك في كل شيء ثم يتقدم إلى البحث فلا يؤمن بشيء حتى يفهمه ويرتاح له تفكيره ، ومن المعروف في التاريخ أن هذا النوع من البحث العلمي لم ينتشر في العالم المتمدن الراهن إلا بعد باكون وديكارت وأضرابهما ، أما الجاحظ فقد بنى علمه على الشك قال منذ نحو ألف سنة « وبعد فاعرف مواضع الشك وحالاتها

الموجبة لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وكانت كلمة واحدة قالها أرسطو كافية لحسم كل نزاع يقوم بين علماء أوربا قبل النهضة الحديثة ، أما الجاحظ فقد خالف أبا الفلسفة ، وجرؤ على تخطئة المعلم الأول وفي ذلك من الإصلاح ما فيه .

وفي كتب الجاحظ العلمية بعض ما لايقبله العقل الحديث ولكن فيها أبحاثاً علمية راقية فقد عرف تأثير الوهم في النفوس وعلله تعليلا علميا راقيا ، وشعر بتأثير الإقليم في الأجسام والأخلاق ، وبحث تأثير الرعد في الكمأة ساخرا مما لا يزال بعضنا يعتقده إلى اليوم ، وكثيرا ما بنى علمه على المشاهدة والتجربة والإمتحان وهي أبواب المعرفة في العلم الحديث .

مهما يكن من علم الجاحظ فهو أديب أكثر منه عالما ، فصفات الأدب فيه أغلب من صفات العلم ، وكتبه العلمية مملوءة بالأشعار والأخبار والنوادر ، ولا غرو فقد تغلبت الثقافة العربية في عصره على سائر الثقافات ، وعمل الأدب في العلم فأخضع جفافه لطلاوته ، واختلط كلاهما في الكتب الموضوعة اختلاطا فنيا لذيذا لا تجد مثله في الكتب المترجمة ، وأدب الجاحظ واقعي ينتزع صوره من المحسوسات ، ولا يتحرج من الاستعارة والتشبيه إذا اقتضتها البلاغة ، ولكن تشابيهه مادية محسوسة على براعة في التصوير وسلاسة في العبارة وسهولة في التركيب .

وهو شعبي يملؤه بنوادر العامة وأحاديثهم ووصف أفكارهم ومعتقداتهم ، وينقد طبقات المجتمع على اختلافها ، ويحلل أخلاقها وعاداتها ، وكتاب البخلاء من أثمن الكتب العالمية وأرقاها .

أسلوبه

للجاحظ في الإنشاء أسلوب خاص يعرف به ، فهو كثير الاستطراد إذا تناول موضوعاً بحثه ونقب فيه حتى إذا خاف ملل القارىء استطرد إلى الأمثال والأشعار والنكات والنوادر ، ثم عاد إلى الموضوع فلم يترك منه شيئا كبيرا أو حقيرا حتى يتناوله

بالنقد والبحث إلى أن تفهمه العامة ويرسخ في أذهان الجماهير .

ومن صفات انشائه الأطناب والإسهاب والتكرار والمرادفة لأنها أكثر إبلاغاً للمعنى وأشد تأثيراً في النفوس ، وما يزال هذا الأسلوب أسلوب التعليم إلى اليوم .

وجمل الجاحظ قصيرة مقطعة كأنها سجع دون قافية ، وقد تأتيه السجعة عفواً فلا يتركها ، وقد تطول جملته ولكن طولها لا يشينها لأنها تتألف من فقرات قصيرة مترادفة .

ومعاني الجاحظ مترادفة مكرورة يغلب عليها عدم الترتيب والتنسيق ، ولا تتقيد بوحدة الموضوع ، لأنه كان يعتقد أن في هذه الوحدة ضجراً مهما سما الغرض ، وعلت قيمة الموضوع ، وبلغ بيان إنشائه ، قال : « اني رأيت الاسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها » .

ولغة الجاحظ رقيقة مطبوعة تفهمها العامة ولا تنبو عنها أذواق الخاصة ، وهي لغة البلاغة وأسلوب المستقبل الحي ، قال : « وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، وهو يحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الإعراب ووحشي الكلام » . رحمه الله ورحم البحتري وابن المقفع وما إليهم من فحول البلغاء .

فكاهته

ربما كان للجاحظ مثيل في أدبه وإنشائه ، ولا شك في أن بين علماء العرب وفلاسفتهم من هم أوسع منه بحثاً وأدق تفكيراً ، وأكثر منه تخصصاً ، ولكنه كان وما يزال نسيج وحده في فكاهته ، رُبي عليها صغيراً ، وتعودها كبيراً ، وجنت عليه كاتباً ، ولم يتركها شيخاً هرما هما تنتابه الآلام وتعمل فيه النفوس والأوجاع .

والجاحظ يتندر على نفسه ولا ينسى أن يجود على النساء بحيل طريفة ، وعلى الشبان المخنثين بسخافات معروفة ، وعلى البخلاء بنوادر مطربة ونكات صائبة ، ولم

ينج من نقده أحد ، وله في المعلمين كتاب نقد ولم تفقد بعض نوادره .

ولم يتخذ الجاحظ من نادرته لهواً عابثاً ، أو فكاهة سخيفة ، بل اتخذها للترفيه عن نفس الباحث وجعلها وسيلة للتعليم والفائدة ، قال : « إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق وصعوبة الجد لم يصبر عليه إلا من تجرد للعلم وفهم معناه » .

ولم يكن الجاحظ عالماً وأديباً فحسب ، بل كان معلماً ، والعلم غير التعليم ، وكثيراً ما يعجز أكبر العلماء عن إفادة صغار الطلبة ، ولعل أول ما يحتاج إليه المعلم ذلك الأسلوب الفكاهي يرفه به عن نفس الطالب فيتعلم دون أن يشعر بوطأة العلم ، ويستفيد دون أن يضجر ويسأم ، ولا يتعلم الطالب حتى يجد في الدرس لذة تفوق لذة الكسل ، ولا يستفيد حتى يجد في المدرسة لذة لا يجدها في المقهى والملعب ، وإذا كان أرسطو معلماً أولاً فالجاحظ معلماً ثانياً ، أما الثالث فنحن في انتظاره .

والجاحظ من أبلغ الكتاب في تاريخ الأدب العربي ، والبلاغة في الكلام موافقته لمقتضى الحال ، ولذلك دعا الجاحظ إلى الإتفاق بين الألفاظ والمعاني ، وشدد في أسلوبه ووصاياه للكتاب على مراعاة مقتضى الحال قال : « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والإسترسال في موضع الإسترسال »

وهو يهتم بالتنقيح والتهذيب ، واختيار الألفاظ الشريفة ، ولكنه يرى الإسترسال مع الطبع أولى من الصنعة ، ومراعاة مقتضى الحال أهم من التثقيف والإختيار .

وأهم ما يتحلى به الجاحظ البيان ، وأشد ما يشدد عليه وضوح الدلالة والإيجاز قال : « الإستعانة بالغريب من الألفاظ عجز » وقال : « أحسن الكلام ما كان قليله

يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه » .

كتب الجاحظ

روي أن للجاحظ ثلاثمائة وستين مؤلفاً بين كتاب كبير ورسالة صغيرة ، ولكن لم يصل إلينا منها غير القليل ، وقد ذكر في كتاب الحيوان أسماء كتب ألفها ، ولم يعثر منها على أثر .

ومن كتب الجاحظ التي سلمت من التلف ، كتاب في التجار ، وكتاب في الرد على النصارى ، ورسالة في النساء ، ورسالة المعاش والمعاد ، ورسالة التربيع والتدوير ، غير أن أكبر كتبه وأشهرها ثلاثة : كتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين ، وكتاب البخلاء .

والسمة الظاهرة في كتب الجاحظ كلها قوة الجدل ، وكان زعيماً لفرقة من المعتزلة عرفت بإسمه ، وهو إذا جادل استند إلى منطق قوي ، وحجة معقولة ، وكثيراً ما يحتج للشيء ويهاجمه فيجيد في الموقفين ، مدح النبيذ وذمه ، وهاجم البخل ودافع عنه ، ورد على النصارى ودافع عنهم .

كتاب الحيوان

يقع كتاب الحيوان في سبعة أجزاء كبار ، وغايته من هذا الكتاب كما يقول ، جمع ما تفرق في الكتب ، وما انتشر على الالسنة من الأقوال والحكم والأمثال والأشعار في الحيوانات وعلاقاتها مع الإنسان .

وتأثر الجاحظ في كتابه بعلماء الحيوان الذين سبقوه ولا سيما أرسطو الفيلسوف اليوناني الكبير ،كما تأثر بما ورد في القرآن والحديث عن الحيوان ،وبما جمعه الأدباء والرواة من حكم العرب وأشعارها فيما يتعلق بالحيوان ،وكان يسأل البدو والأعراب والفلاحين عما لا يجده في الكتب ،أو عما يشك فيه من أقوال العلماء .

ويقسم كتاب الحيوان إلى سبعة أجزاء ،وهو يبتدئه بمقدمة طويلة يرد فيها

على من انتقد كتبه السابقة ، ويذكر الكتب التي وضعها ، ثم ينتقل إلى منافع الكتاب عامة ، وله في هذا الفصل آراء جميلة في الخط والشعر والآثار ثم ينتقل إلى الكلام عن الإنسان والحيوان فيذكر مبادىء عامة تتعلق بهما ، ويختم الجزء الأول بمناظرة بين الديك والكلب ، والجاحظ امام كبير من أئمة المناظرة والجدل .

ويتابع الجاحظ كلامه فيختم المناظرة بين الديك والكلب، ثم ينتقل إلى الكلام عن الحيوانات فيخصص تسعين صفحة للحمام ، ويتوسع في الكلام عن الذبان والذر والحية والهدهد والطير وغير ذلك، ويتخلل أبحاثه كلام عن النيران والألوان واليهود والمجوس ، ونوادر عن الاعراب ، ونكات عن علاقة الإنسان بالحيوان ، ويشحن كلامه بأمثال العرب وعاداتهم ، ويجرؤ فيرد على الأطباء والفلاسفة ويخالف آراءهم .

وفي كتاب الحيوان علم وأدب ، ونقد ونكات وتسلية فكأنه موسوعة جمعت كثيراً من معارف عصره جاء في ضحى الإسلام « وكتاب الحيوان معرض لكل الثقافات من عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشية ودهرية ويهودية ونصرانية وإسلام » .

وفي كتاب الحيوان نقد أدبي بليغ قال : « وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ولا يرضى بالرأي الفطير » وقال : « وما أكثر من يبتدىء الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين ، فيكتب عشرة ، والحفظ مع الاقلال أمكن ، وهو مع الإكثار أبعد » وقال: « وليس للكاتب أن يهذب كتابه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ الذي حذف فضوله وتصرفه ، وأسقط زوائده حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه إلا بأن يجدد للقراء إفهاما مراراً وتكرارا ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد عاداتهم » .

وفي الكتاب علم وفكر ومنطق ذكر أن من الحمام حماما يزق فراخه ولا يزق فراخ غيره ، ومنه ما يزق فراخ غيره ، وذكر أن بعض اناث الحمام لا تريد إلا

ذكرها ، وأن بعضها لا تمنع شيئاً من الذكور . وقال في الحية : « زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان ، فسألت اعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق ، فقلت له « فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعض ؟ » فقال: « أما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب ، كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم ، وتتغدى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها معاً فإذا هو أكذب البرية » . وقال : « وقال صاحب المنطق ويكون في البلدة التي تسمى باليونانية ـ طبقون ـ حية صغيرة شديدة النهش ، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، ولم أفهم هذا ، ولمَ كان ذلك » .

ونقل الجاحظ عن أرسطو « ان أناث العصافير أطول أعماراً من ذكورها ، وان ذكورها لا تعيش إلا سنة واحدة » وانتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك ، ويتساءل الجاحظ في بحثه « ابالتجارب تصيح الديوك أم بطبعها ؟ » وللجواب عن ذلك يبحث فيما إذا كان الديك في قرية وحده يصيح أم لا ؟

ولا يتقيد الجاحظ في بحثه بالموضوع الذي يبحثه ، بل ينتقل من فكرة إلى فكرة ، ويثب من فنن إلى فنن ليروح عن القارىء سأمه قال : « ومتى خرج القارىء من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ، ومن الشعر إلى النوادر ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس شداد . . . ثم ينتقل إلى فرح وفكاهة ، وإلى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً»، وقد خرج من الكلب والديك إلى الإمامة والشيعة فإلى الشعر وأثره في القبيلة يرفعها ويضعها إلخ . . .

ويتبع الجاحظ في استقصائه الطريق القويم ، ويسير إلى هدفه من المعرفة واليقين على الصراط المستقيم ، والأصل في الأخبار تصديقها إذا لم تخالف النقل ولم تنر على أحكام العقل ، والعاقل لا ينفي خبراً يقبله العقل ويؤيده النقل ولو خالف هواه ، وهدم رأيه واعتقاده ، وفي ذلك ما يؤيد عقل الجاحظ العلمي ، وتفكيره المنطقي قال : « والحق الذي أمر الله به تعالى ، ورغب فيه وحث عليه ، أن تنكر من

الخبر ضربين : أحدهما ما تناقض وتعذر ، والآخر ما امتنع في الطبيعة ، وخرج عن طاقة الخلقة ، فإذا أخرج الخبر من هذين البابين ، وجرى عليه حكم الحيوان فالتدبير في ذلك التثبت ، وأن يكون الحق في ذلك ضالتك ، والصدق بغيتك ، كائناً ما كان ، وقع منك بالموافقة . أم وقع منك بالمكروه » .

وللجاحظ في تأثير الاقليم في الإنسان والحيوان أبحاث تدل على علم وافر وعقل ناضج ، وله في البحث عن المعرفة واليقين طريقة تشبه الطريقة التي كانت أساسا للإنقلاب العلمي في نهضة أوربا الحديثة .

وفي كتاب الحيوان معارف يستفيد منها المثقف ، ومعلومات ينتفع بها الباحث والطالب ، وفيه فكاهات ونوادر كالقاضي الذي ألح عليه الذبان فأحرجه ، وحيل الأعراب في التخلص من السخرة وذلك بأن يطلوا البعير الكريم بالدبس فيتساقط عليه الذباب فيظن أن به جرباً وغير ذلك كثير .

كتاب البيان والتبيين

هو كتاب أدبي نقدي يقع في أربعة أجزاء ، ويخلو من نوادر الجاحظ الطريفة المستملحة ، وفكاهاته اللطيفة المستظرفة ، وكأنه وضعه للخاصة من الأدباء فلم ير حاجة إلى تسهيله ، أو يجد سبباً لتخفيف العبء عن قرائه .

ويجمع كتاب البيان والتبيين طائفة من الأمثال السائرة ، وقدرا وافراً من النثر البليغ ، والشعر الفني الرفيع ، ويضع الجاحظ ذلك كله تحت مبضع النقد والتحليل فيجرح ويرجح ، وينقد وينتقد ويفضل نثراً على نثر ، وشعراً على شعر ، ويقدم كاتباً على كاتب ، وشاعراً على شاعر ، ويأتي في أثناء ذلك على أبواب من البلاغة والبيان والبديع دون أن يرتبها وينظمها ، أو يضع لها قواعد وأصولاً ، ولا ننسى أن البيان والبديع لم يكونا في أيام الجاحظ من العلوم التي لها قواعد مرتبة وأصول منظمة ، فكأن الجاحظ كان من الذين غرسوا بذرة البيان والبديع فنمت على أيديهم وترعرعت وأتت أكلها على أيدي سواهم .

وفي البيان والتبيين نقد أدبي جميل يحكم الجاحظ فيه العقل المنظم طوراً ، والذوق السليم أطواراً حتى كان هذا الكتاب من خيرة الكتب التي استند إليها علماء البيان والبديع في تنظيم هذين العلمين فوضعوا لهما القواعد المرتبة ، والأصول المنظمة .

وأسلوب الجاحظ في كتاب البيان والتبيين قوي بليغ لا يسهل سهولة أسلوبه في علم الحيوان ولا يتعقد تعقده في كتاب البخلاء .

وكتاب البيان والتبيين من أشهر الكتب القديمة في البحث عن البلاغة وأصولها ، والفصاحة وقواعدها ، والفن في الشعر والنثر وشروطه ، والجاحظ يبني مقابلته ومفاضلته وحكمه فيه على قواعد أدبية لا يرتبها ، وأصول فنية لا ينظمها ، ويبتدع للنقد الأدبي قواعد وأصولاً ينثرها ويقيس عليها عندما تقتضي الحال النقد والقياس .

وفي كتاب البيان والتبيين فكاهات ونوادر ولكنها أقل منها في كتاب الحيوان أو في كتاب البخلاء ، وهو أقرب منهما إلى الجد والرزانة .

وإذا كان في كتاب البيان نقد أدبي ، وقواعد للبيان والبديع ، فإن الجاحظ لم يصل فيه إلى التنظيم والتخصيص ، بل كان كثيراً ما يرسل أحكامه عامة شاملة ، ولا يلام على ذلك فالتخصيص في النقد لم ينضج إلا في العصر الحديث ، قال : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، منزهاً عن الإختلال ، مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى فصلت الكلمة عن هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، وقد قال عامر بن عبد القيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » .

كتاب البخلاء

هو كتاب أدبي انتقادي يقع في جزء واحد ، وقد خصصه الجاحظ بفئة واحدة من الناس هي فئة البخلاء ، وهو لا يختلف في أسلوبه الإنتقادي عنه في أسلوبه العلمي أو أسلوبه الأدبي ، فالفكاهة شعاره . والنادرة تهيمن عليه فلا يتركها « ولو قتلته في الدنيا وأدخلته النار في الآخرة »

وتغلب الحوادث في هذا الكتاب على النقد . فكان الجاحظ يترك للقراء الحرية في آرائهم ، وكأن بخلاءه في حكاياته أشخاص لا دمى . وأرواح لا أشباح ، ولذلك قيل : « لو عرف العرب فن التمثيل لكان الجاحظ من أكبر الممثلين بل من أكبر من ألف في التمثيل » .

وقلما تظهر شخصية الجاحظ في حكايات بخلائه . فهو يعبر عن آرائهم بألسنتهم ، وعن حوادثهم بأعمالهم ، وهو يحتج لكل فئة منهم بلسانها فإذا بالحجة قوية مقنعة ، وإذا بالمنطق محكم معقول ، وهو إذا هاجم البخل خلته من أكبر الناقمين على البخل والبخلاء . وإذا دافع بخيل عن البخل حسبت الجاحظ رأس البخلاء . والممثل القدير يلبس لكل حالة لبوسها . ويتجرد من شخصيته ليمثل شخصيات أبطاله ، والجاحظ من المعتزلة وقد أنشأ فرقة نسبت إليه . والمعتزلة يستندون إلى الجدل في إثبات عقائدهم ، وإلى علم الكلام في الرد على خصومهم .

ويتفنن الجاحظ في نوادر البخلاء ومنافستهم في طرق التوفير والإقتصاد ، وسبل الشح والقبض والبخل فإذا ربط أحدهم العود الذي يحرك به زيت المصباح في المشكاة ضناً بأن يأتي بعود جديد كلما أراد تحريك الزيت سفه بخيل آخر رأيه ، وسخر من جهله ومعرفته بعلم الإقتصاد ، وبين له خطأه بأن الحر والريح يجففان العود ، أما البخيل العارف بعلم الإقتصاد والتوفير فيستعمل مسماراً من الحديد لأن الحديد لا يشرب الزيت ولا يتلف منه شيئاً .

ونوادر بخلاء الجاحظ معقولة حينا وخارجة على أحكام العقل حيناً آخر ،

وهي مستحسنة ممدوحة تارة ، وقبيحة مكروهة طوراً . غير أن الكاتب يلبس بخلاءه ثوب الفكاهة وخفة الدم حتى إذا كرهنا البخل لم نكرههم ، وإذا سخرنا من بخلاء غيرهم لم نسخر منهم لأن فيهم على بخلهم ذكاء مقبولاً ، ونادرة مستحسنة ، وطريقة لطيفة مستساغة . ذكر أن إحدى النساء الفقيرات زوجت ابنتها فجهزتها بأفضل ما تجهز به بنات الأغنياء ، فلما سألها زوجها عن ذلك وهو لا يشك في أمانتها قالت : « كنت كلما عجنت مرة رفعت من الدقيق حفنة وما زلت أدأب على ذلك منذ يوم ولادتها إلى أن زوجتها فاجتمع لي من ذلك مال كثير » .

ولا يترك الجاحظ في بخلائه النادرة التي اشتهر بها ، والفكاهة التي كانت شعاره ، وتدور أكثر حوادثه على أهل مرو في خراسان ، وقد ذكر أن البخل طبيعة فيهم لأنه طبيعة بلادهم حتى أن الديك عندهم يسلب الدجاجة طعامها ، ولم يرد ذلك في غير تلك البلاد .

ويتألف كتاب البخلاء من حكايات قصيرة ، ونوادر هزلية يتفنن فيها الجاحظ في نقد أخلاق البخلاء ما شاء له عقله وذكاؤه أن يتفنن ، وأنما ينقصها سبك الحوادث وترتيبها والربط بين أجزائها فكأنه حديث لا حكاية ، ورواية لا قصة .

وأسلوب الجاحظ في كتاب البخلاء يراوح بين القوة والضعف والسهولة والتعقيد ، وكثيراً ما يستعمل الكاتب فيه عبارات عامة وكلمات أعجمية ليزيد في تأثير النادرة ، وقوة المحادثة ، وقد سطا النساخ على هذا الكتاب فشوهوا أسلوبه ، وشحنوه غلطات حتى أصبح معقداً يصعب فهمه .

ويسهب الجاحظ في أكثر احاديث أبطاله حتى تصبح الحكاية القصيرة حديثاً طويلاً . قال أحد البخلاء لآخر وقد رآه يستصبح في مسرجة من خزف « أو ما علمت أن الخزف والحجارة يحسوان الدهن حسوا . . . وإنما أنت تطعم النار وتسقي النار ، ومن أطعم النار جعله الله يوم القيامة طعاماً للنار ! » قال المستصبح « فكيف أصنع ـ جعلت فداك » قال : « تتخذ قنديلاً فإن الزجاج أحفظ من غيره . والزجاج لا يعرف الرشح ولا النشف ، ولا يقبل الأوساخ التي لا تزول إلا بالدلك الشديد ،

أو بإحراق النار ، والزجاج أبقى على الماء والتراب من الذهب الأبريز . . . وإذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج صار المصباح والقناديل مصباحاً واحداً ، ورد الضياء كل واحد منهما على صاحبه ، واعتبر ذلك بالشعاع الذي يسقط على وجه المرآة ، أو على وجه الماء ، أو على الزجاجة ثم أنظر كيف يتضاعف نوره » ويمضي الجاحظ في بيان فضل الزجاج في المصباح على الذهب والخزف وغيرهما فيخيل إلينا أنه يتكلم في مسألة سياسية عظيمة ، أو مذهب اجتماعي رفيع ، أو عقدة كلامية مهمة ، أما شخصية البخيلين ففي هذه المحاورة الطريفة ، وأما شخصية الجاحظ ففي هذا الجدل وذلك الأطناب حتى لا يترك لمعترض حجة ، أو لمخالف اعتراضاً .

كتاب تهذيب الأخلاق

من كتب الجاحظ التي تتضمن دروساً في الأخلاق والإجتماع ، وفي هذا الكتاب أبحاث عقلية تدل على عقل يسير مع عقول الفلاسفة ، وعلم لا يقل عن علمهم مع الفارق بين الموسوعات وكتب التخصيص .

والجاحظ في هذا الكتاب جاد لا يهزل ، وليس في كتابه هذا ما في أكثر كتبه من النوادر والفكاهات .

وهو يسير فيه على أسلوب البحث والتعليل والتعريف والتحديد فالخلق عنده « حال النفس ، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والإجتهاد » والجاحظ لا يكتفي بالتعريف والتحديد بل يضرب على تعريفاته الأمثال من الأخلاق الحميدة والأخلاق المذمومة .

والجاحظ من حيث نظره إلى أخلاق الناس من المتشائمين ، فهو يرى « أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً ، وأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس » والبرهان على ذلك عند الجاحظ « ان الإنسان إذا استرسل مع طبعه ،

ولم يستعمل الفكر والتمييز ، ولا الحياء ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم » .

وإذا كان الناس مطبوعين على الأخلاق الرديئة ، منقادين للشهوات الدنيئة ، فقد وقع الإفتقار إلى الشرائع والسنن ، والسياسات المحمودة .

ولا يكتفي الجاحظ من درسه الأخلاق بالتعريف العلمي ، والتحليل المنطقي ، بل يسعى إلى السبل التي تهدي الناس إلى الأخلاق الكريمة . وتردهم عن سبل الأخلاق السيئة .

ومن الناس من يشعر بسوء الأخلاق الرديئة وشرورها ، ولكنهم يؤثرون الإصرار عليها ، وليس من سبيل إلى تقويم هذه الطائفة إلا بالقهر والتخويف ، والعقوبة إذا لم يردعها الترهيب .

ومن الناس من لا يرجى صلاحه ، ومنهم من يقبل كثيراً من الأخلاق المحمودة ، وينبو طبعه عن بعضها ، ومنهم من يصلح بالرياضة والتهذيب ، ومن يصلح باللطف والوعد واللين .

والعلة الموجبة للأخلاق في رأي الجاحظ النفس ، ولها قوى ثلاث ، النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس الناطقة ، ويذكر هذا التقسيم بفلاسفة الإسلام بعد الجاحظ ، فكان أبا عثمان أطلع على فلسفة اليونان وتأثر بها ، ولا سيما انه ينبسط في شرح قوى النفس تبسط الفلاسفة .

وأفضل النفوس الناطقة ، ولها فضائلها ورذائلها ، فمن فضائلها اكتساب العلم والآداب وقهر النفسين الآخريين ، وحث صاحبها على فعل الخير والحلم والعفة وطلب الرئاسة من الوجوه الجميلة وغيرها من الفضائل ، وأما رذائلها فمنها الخبث والحيلة والخديعة والمكر وغير ذلك من شرور العقلاء .

وبعد أن يستفيض الجاحظ في بحثه عن قوى النفس ، ويتبسط في الكلام عن الأخلاق ، يبحث عن اختلاف الأخلاق باختلاف النفوس . فقد يكون الغنى

مكسباً لصاحبه عيوباً ونقائص ، وقد يكون الفقر مفيداً صاحبه فضائل ومحاسن .

وينتقل الجاحظ إلى التعليم فيذكر السبل التي يستطيع الناس أن يروضوا بها نفوسهم على الفضيلة ، ويعدوها لاكتساب المحامد ، فمنها النظر في كتب الأخلاق والسياسات . ثم الارتياض بعلوم الحقائق ، ومنها مجالسة أهل العلم والإقتداء بهم ، ومن لم يتمكن من ذلك فليبذل جهده في تدقيق الفكر ومجاهدة النفس ، وأن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها .

وينتقل الجاحظ إلى الكلام عن الإنسان التام ، فلا يحرمه من ملذات الدنيا ، ونعيم العيش في الحياة ، ولكنه يطلب منه أن يجتنب السرف والإفراط ، ويعتمد من الشهوات واللذات المعتدلة ما كان من الوجوه المرتضاة الحسنة ، ويأخذ نفسه بذلك ، ويحظر عليها الطمع في لذة مكروهة ، أو شهوة مسرفة ، ويهجر أصحاب الملذات ومعاشرتهم ، وينقبض عن الشفهاء ومخالطتهم ، وينبغي لمن يطلب التمام أن يعلم أنه لا سبيل له إلى بلوغ غرضه ما دامت اللذة مستحسنة والشهوة مستحبة .

وينبغي لمن طلب السياسة التامة أن يستهين بالمال ويحتقره . وينظر إليه بالعين التي يستحقها . فإن المال إنما يراد لغيره ، وليس هو مطلوباً لذاته ولكنه آلة تنال بها الأغراض .

وينبغي لمحب الكمال أيضاً أن يعود نفسه محبة الناس أجمع ، والتودد إليهم ، والتحنن عليهم ، والرأفة والمحبة لهم ، فإن الناس قبيل واحد تجمعهم الإنسانية ، ثم ينبغي له أن يكره الملق ويبغض المتملقين ، وأن يتعرف عيوبه حتى يمكنه توقيها .

ومن النقاد من يشك في نسبة هذه الرسالة إلى الجاحظ لأنها تختلف عن أسلوبه في جمال الأدب الفني ، وتخرج على روحه الفكهة المتندرة التي لا تترك النادرة ولو قتلتها في الدنيا ، وأدخلتها النار في الآخرة ، فإذا ثبتت أنها له فإن الجاحظ من كبار الباحثين في الأخلاق والإجتماع ، ولا تستكثر عليه . فقد كان رحمه الله موسوعة جمعت من كل فن فناً .

العلم أولاً والأدب ثانياً

قيل : كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً .

يحسن بنا أن نقسم هذا القول ثلاثة أقسام : (1) الجاحظ العالم . (2) الجاحظ الأديب . (3) الجاحظ المعلم .

الجاحظ العالم

عاش الجاحظ نحواً من تسعين سنة فأدرك العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني ، وتثقف بثقافتهما ، وأثر فيه علمهما وأدبهما .

وكان العرب في أيامه قد ترجموا كتب الروم في الفلسفة والعلم والمنطق ، وكتب الفرس في الأدب والسير والأخلاق . وأخذوا ينشطون إلى درس هذه الكتب وفهمها والبحث والتأليف فيها ، وأثرت الفلسفة في الدين فنشأت الفرق الدينية ، والمذاهب الكلامية ، وقد أسس الجاحظ فرقة في الاعتزال عرفت بالجاحظية .

وعصر الجاحظ عصر البحث والتأليف ، كما كان عصر ابن المقفع عصر الإطلاع والترجمة ، وللجاحظ من صفات العلم الإجتهاد ، وإذا كان الأدب وحي الآلهة أو نفثات الشياطين ، فالعلم ثمرة الدرس والجد ، ونتاج السهر والنصب والإجتهاد ، وكان الجاحظ مولعاً بالدرس ، راغباً في المعرفة والإطلاع ، قيل إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، حتى إذا نضج عقله ، وارتوى من علمه ، انصرف إلى التأليف مجتهداً فيه اجتهاده في الدرس وطلب العلم ، وقد فلىّ المأمون كتبه فشهد له بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة .

وللجاحظ من صفات العلماء الشك ، فقد كان يبني عليه علمه ، ويصل منه إلى اليقين ، قال : « وبعد ، فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له » . ولم يكتف من الشك بالقول بل كان يقرن القول بالعمل ، حتى شك في أقوال أرسطو ، وأرسطو عند الفلاسفة العلماء المعلم الأول ، لا يخطئ [illegible] في قول قاله . ومن المعروف في تاريخ العلم ان اليقين

المبني على الشك لم تعرفه الفلسفة قبل ديكارت ، فكأن الجاحظ جاء قبل عصره بمئات السنين ، وإذا لم يؤ سس فلسفة يقينية ثابتة أساسها الشك وركنها البحث ودعامتها التجربة فقد غرس بذرة البحث في الصراط المستقيم على قدر ما يسمح بذلك عصره وبيئته ، وتتحمله الفلسفة القديمة وتستطيعه .

وللجاحظ في العلم كتاب الحيوان ، وفيه عقل كبير وعلم كثير ، ومـا يزال بعض أبحاثه صحيحاً مفيداً إلى اليوم مع تقدم العلوم ورقيها ، وله في علم الإجتماع والنقد كتاب البخلاء ، وفيه نظر ثاقب ونقد حكيم ، ومعرفة واسعة بأخلاق هذه الفئة من الناس .

وللجاحظ من أبحاث العلـم وشروطـه المشاهـدة والتجربـة ، وقـد أسست الفلسفة الحديثة على المشاهدة والتجربة والإمتحان ، فكانت هذه النهضـة القـوية السامية التي ارتقى فيها الإنسان في مائتـي سنـة من درجـات العلـم والإكتشـاف والإختراع ما لـم يبلغ بعضه في ألوف السنين ، وكثـيراً ما كان الجاحـظ يعمـد إلى الحيوانات فيقتلها ويشرحهـا ، أو يرضـخ بيضهـا ليفحص ما فيه ، ويدفنهـا حية ليراقب حركاتها ، ويجمع بينها في أناء واحد ليشاهد تآلفها وتخاصمها .

وللجاحظ من صفات العلم الإستقصاء والإستقراء ، فإذا أراد البحـث عن اليقين شك في رأيه فعمد إلى الكتب يطالعها ، وانصرف إلى العارفين يسألهم ، ثم لا يكتفي بذلك بل يضع ما يقرأه تحت مبضع النقد . فينفي أو يجرح أو يثبت ، ويعمل عقله الناضج فيما ينتقده ، فيوقن بعد شك ، أو يشك بعد يقين ، أو ينفـي بعـد استقصاء واستقراء .

ومن أبحاث الجاحظ التي تدل على علم وافر ، وعقل راجح ، بحثـه تأثـير الإقليم في الأجسام والأخلاق ، واختلاف الناس في عقولهم وأذواقهم وطباعهم ، ومما هو جدير بالتقدير أن هذا البحث ما يزال من ميادين العلم الواسعة في العصر الحـديث ، يجـري العلماء فيه ويتسابقـون ، ويعملـون عقولهـم فيه فيتباينـون ويختلفون .

ومنها بيان تأثير الوهم في النفوس مما لا يزال أطباؤنا اليوم فيه مختلفين ، ومنها بحث في الكمأة يسخر فيه من آراء أبناء عصره وقد كانوا يعتقدون أن المطر والرعد ينبتان الكمأة ، وما يزال الكثيرون منا هدفاً لنقد هذا العالم القديم وسخريته ، وفي كلامه عن الحياة والحمام والذر والكلاب أبحاث تنفع الطلاب منا والناشئين والمثقفين .

وإذا كان في أبحاث الجاحظ ما نقضه العلم الحديث ، وفي آرائه ما ظهر خطأه ، وبان ضعفه ، كالقول بالتولد الذاتي مثلاً ، والسخر من العوام الذين لا يؤمنون بهذا الرأي ، فقد كانت تلك الآراء الخاطئة شائعة يقول بها الفلاسفة ويؤمن بها العلماء ، وليس الجاحظ فيلسوفاً منقطعاً إلى الفلسفة ، ولا عالماً متخصصاً بالبحث والعلم ، بل كان أديباً أخذ من كل علم بطرف .

الجاحظ الأديب

إذا كان للجاحظ في العلم كتاب الحيوان ، وفي النقد الإجتماعي كتاب البخلاء ، فإن له في الأدب كتاب البيان والتبيين وعدد كبير من الرسائل سواه ، وكتاب البخلاء يمزج النقد الدقيق بالفن الأدبي الرفيع ، وفي كتاب الحيوان طائفة كبيرة من الأمثال الرائعة ، والأشعار المختارة ، والنثر البليغ ، وإذا كتب للجاحظ الخلود ففي أسلوبه الأدبي لا في أبحاثه العلمية .

وللجاحظ من صفات الأدب دقة الملاحظة ، وحضور البديهة ، وحدة الفطنة ، وحلاوة الحديث ، وطلاوة الأسلوب ، ولولا أسلوبه الأدبي لم تنتشر كتبه العلمية .

وأدب الجاحظ واقعي ينتزع صوره من الأشياء المحسوسة ولا يتعمق في التشابيه ، أو يبعد في الإستعارات ، فكأنه يكتب للخاصة والعامة معاً لا للأدباء وحدهم ، قال : « ولربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحاً شديد السواد لكثرة لذبان » . وقال : « كأنه بناء بني أو صخرة منصوبة » .

وأدب الجاحظ شعبي ملأه بنوادر العامة ، وأحاديث الجماهير ، ولا يجاريه كاتب آخر في هذا الميدان ، وقلما نجد كاتباً عالج فئات المجتمع كلها على اختلافها ، وربما كان للطبقات السفلى من اهتمام الجاحظ أكثر مما كان للطبقات العليا ، فقد كتب في البخلاء والتجار واللصوص والمتسولين والعرجان والبرصان ، وكتب في نوادر المعلمين وحيل النساء وسخافة الشبان المخنثين مما لم يفعله غير القليل الى اليوم ، وللذبان والذر عنده نصيب من البحث يفوق نصيب الأسد والفيل والفرس .

وللجاحظ من صفات الأدباء خفة الروح والتفنن في إرضاء القارىء بما يستطيع من سهولة وبيان ، وبما أ نعم الله عليه من الفكاهات والنوادر ، وأرغب ما يكون القراء في المتندرين المطبوعين ، وربما كان للجاحظ مزاحمون في العلم والبلاغة والإنشاء ، ولكنه يفوق الأدباء في نادرته ، ربي عليها صغيراً ، وتعودها شاباً ، وأولع بها كهلاً ، ولم يتركها شيخاً هرماً هما .

وأجمل ما في نوادر الجاحظ أنه كان يتندر على نفسه ، ولا يخجل من قبحه ، قال « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني » ودخل ديوان الرسائل للمأمون فلم يبق فيه غير ثلاثة أيام لأنه كره تكاليف الوظيفة ، ولم يطق تحمل حياة الجد فيها ، وقال : « ما اخجلني الا امرأتان رأيت احداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنا على طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت : أنزلي كلي معنا فقالت : « إصعد أنت لترى الدنيا » وكان الجاحظ قصيراً « أما الثانية فأتتني وأنا على باب داري وقالت: لي إليك حاجة ، وأنا أريد أن تذهب معي . فقمت فذهبت معها حتى أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له : مثل هذا وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها اتتني بخاتم وأمرتني أن أنقش عليها صورة الشيطان . فقلت لها : يا سيدتي ما رأيت شيطاناً قط فذهبت فجاءت بك » وربما كانت هذه الحوادث من اختراع الجاحظ

وابتداعه ، وسواء أصحيحة كانت أم مخترعة ففي ذكرها ما يدل على خفة روح أدبية .

وللجاحظ من صفات الأدب حدة الفطنة ، وسرعة البديهة ، قبض عليه وجيء به أمام ابن أبي دؤاد فعاتبه على إخلاصه لأبن الزيات ووبخه فقال : « لأن أسيء فتحسن خير لك من أن احسن فتسيء » وعفا عنه ابن أبي دؤاد وأمر بحداد ليفك قيوده ، فغمز بعض أهل المجلس ليعذب الجاحظ قليلاً ، فأطال في أمره ، أما الجاحظ فلم يحفل بجد المجلس ووقاره ، وخطورة الموقف ورهبته ، وهيبة الوزير وبطشه ، بل لطم الحداد على خده لطمة قوية وقال : « أعمل عمل شهر في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة » .

ولم تفارق الجاحظ خفة روحه في مرضه وآلامه فكان يجيب من يسأله عن مرضه فيقول : « وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل » وكان إذا اشتد عليه المرض وبرح به الألم دعا ابن اخته وقال « لم يبق من ملذات الدنيا إلا ثلاث ، أكل القديد ، وحك الجرب ، وذم البخلاء » .

وأثرت كتب الجاحظ في الجماهير فطلبتها الخاصة لجمال أدبها ، وقوة بلاغتها ، ودقة نقدها ، وأولعت بها العامة لأنها سهلة في أسلوبها ، شعبية في أغراضها وموضوعاتها ، فكاهية في نوادرها .

الجاحظ المعلم

العلم غير التعليم ، وكثيراً ما يعجز العالم الكبير عن تعليم الطالب الصغير ، ولم يكن الجاحظ عالماً فحسب ، بل كان معلماً ماهراً نافعاً ، وأول ما يحتاج إليه المعلم ، أسلوب سهل مريح فيتعلم الطالب دون أن يشعر بوطأة العلم وجفافه ، ويستفيد دون أن يرهق عقله ويتعب أعصابه ، ولا شك في أن بين علماء العرب من هم أوسع من الجاحظ بحثاً ، وأرجح عقلاً ، وأدق تفكيراً ، وربما كان بين الأدباء من هم أجمل منه تشبيهاً وأرقى فناً ، ولكن الجاحظ يجيد في ميدان فن التعليم قلما

يجاريه فيه عالم أو أديب أو كاتب ، فهو يمزج الجد بالهزل في حياته ، ويقرن العلم بالأدب في إنشائه ، والفكر يسئمه البحث العلمي الجاف ، ويعلوه الصدأ إذا انصرف إلى الأدب وحده ، وقد شعر الجاحظ بذلك وعرف أنه يكتب للجماهير قال : « إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق وصعوبة الجد لم يصبر عليه إلا من تجرد للعلم وفهم معناه » وفي هذا الكلام ما يدل على أن العلم مر ، والجد صعب ، ولذلك كان الجاحظ يخرج عن البحث العلمي ليورد شعراً أو نادرة أو نكتة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى البحث العلمي كأن الراحة عنده في تنوع الأعمال لا في الفراغ منها ، وهذا الرأي من أحدث الآراء في علم النفس الحديث ، ولا شك أن في الموضوع الواحد ضجراً مهما سمت معانيه ، وبلغ بيانه ، وعذبت ألفاظه ، قال الجاحظ « إني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها » .

وفي الأسلوب الفكاهي ما يحمل إلى تقبل العلم دون ضجر أو عناء . يتكلم الجاحظ عن الأسد والسنور وما بينهما من التشابه كلاماً علمياً على قدر ما يستطيع عصره أن يفهم من العلم ، ثم ينتقل من الجد إلى الهزل ، ومن العلم إلى السخرية والنقد فيقول : « ذكر أصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فكانا آدم السنانير وحواءها ، ولذلك السنور أشبه شيء بالأسد ، وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل » وفي هذه النادرة رد قوي على أصحاب الأخبار ، وفيها هزل ونقد وسخر مما يفتح مجالاً للبحث والإستفادة ، ولو كان لكل حقيقة علمية نادرة أدبية لهان العلم على طلابه ، وسهلت المعرفة على ناشديها .

ويتكلم الجاحظ عن الذبان حتى إذا أطال أورد فكاهة أو نادرة لا يستثني منها نفسه ، ثم يعود إلى البحث العلمي ، ولكنه لا يلبث حتى يتركه إلى ضرب الأمثال ورواية الأشعار مما له صلة بالذباب ، وبين بحث ونادرة وشعر يرغم القارىء على المطالعة إرغاماً فيستفيد دون تعب أو إرهاق .

وللجاحظ من صفات المعلمين التكرار والترادف في أسلوبه وهو يمثل في ذلك أسلوب عصره ، وكان العرب في ذلك العصر قد ترجموا علوم الأمم وآدابها وأخذوا يدرسون هذه العلوم والآداب فاحتاجت الكتابة إلى التكرار والترادف لترسخ في الأذهان . والتبسط والمرادفة أكثر إبلاغاً للمعنى من الإيجاز وأشد تأثيراً في النفوس ومن الأمثال السائرة قولهم في الإعادة إفادة . وما يزال أسلوب الجاحظ في التكرار والإعادة أسلوب التعليم إلى اليوم وما يزال المعلمون يعيدون الأصول والقواعد ويكررونها مرات كثيرة ويغيرون الشواهد والأمثال ، وقد تعاد القاعدة أو المعنى أحياناً خمسين مرة قبل أن ترسخ في أذهان الطلاب .

وللجاحظ من صفات التعليم السهولة والبيان حتى تفهمه العامة دون أن يسف أو يتبذّل قال : « وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه وهو يحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ويحطه عن غريب الإعراب ووحشي الكلام » . ويتفق الجاحظ في هذا الرأي وكبار الأدباء والشعراء ، قال ابن المقفع « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » . وأوصى أحد الكتاب قال : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » . وقال البحتري يصف بلاغة رسائل ابن الزيات :

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد

وإذا كان لكبار الكتاب والشعراء والمعلمين مزايا يختلفون بها عن صغارهم وضعافهم فأبرز مزاياهم السهولة والبيان .

وللجاحظ من صفات التعليم عدم الترتيب وضعف التنسيق وهلهلة الوحدة في الموضوع وقد يرى بعض الناقدين أن في هذه الصفات ضرراً في التعليم كما يرى بعضهم أن فيها تسلية فتأتي الفائدة دون تعب .

وللجاحظ من صفات المعلمين الأستطراد ، فإذا تناول الجاحظ موضوعاً بحث فيه فإذا خاف ملل القارىء استطرد إلى موضوع آخر وانتقل إلى نادرة أو شعر آخر فما يزال يفعل ذلك من استطراد وانتقال وعودة إلى الموضوع حتى يشبعه بحثاً ويكفي في

الدلالة مثالاً على استطراد الجاحظ أن للحمام في كتاب الحيوان تسعين صفحة كبيرة فيها شيء كثير من الأشعار والأمثال والنوادر والحكايات وللذر نحو ما للحيوان ، وللذباب باب كامل يبتدىء فيه بالغاية من خلق الحيوانات الضارة ثم يبحث في الذباب بحثاً علمياً ويصفه ثم لا يلبث حتى يستطرد فينتقل إلى ذكر الأمثال المضروبة في الذباب ، وعندما يصل إلى الكلام عن الحاح الذباب على الأنف يستطرد إلى الأنف فيتكلم عن مقامه ، وما له من الإحترام والأثر في حياة الإنسان ، ثم ينتقل إلى النوادر فيذكر حيل الأعراب في تخليص إبلهم الكريمة من السخرة وما يزال متنقلاً من بحث إلى نادرة ، ومن مثل إلى شعر حتى يستوفي بحثه فإذا هو علم وأدب ، وفائدة وتسلية .

ومن أبرز مزايا الجاحظ التعليمية ، المزج بين العلم والأدب ، وبين الفائدة والتسلية ، وإذا كنا في حاجة إلى أساليب ترقي الكتابة ، وتسهل الإنشاء فنحن أحوج ما نكون إلى أسلوب أدبي تتحلى به كتبنا العلمية فتسهل على طلابها ، ويفهمها غير المتخصصين فيها ، ولن ينتشر العلم بين الجماهير حتى نجد في كتب العلم لذة وفائدة وتسلية ، وما تزال كتب العلم في اللغة العربية جافة لا لذة فيها ، فلا يصبر عليها غير المتخصصين .

والخلاصة أن في كتب الجاحظ علماً وأدباً . وأن أسلوب الجاحظ أسلوب المعلمين بسهولته وتكراره واستطراده ومزجه بين العلم والأدب .

قيمة كتاب الحيوان في عصرنا

أية قيمة لكتاب الحيوان في عصرنا وقد تقدم العلم أشواطاً عما كان عليه في عهد الجاحظ ؟

لا شك في أن كتاب الحيوان للجاحظ قد أصبح من الكتب العلمية القديمة التي نقض العلم أكثر آرائها وسفه أكثر معارفها وخطأ كثيراً من معلوماتها ، ولا شك في أن أكثر القيم العلمية في كتاب الحيوان للجاحظ قد أصبحت من امتعة العجائز

وأشباههن ممن لا يعرفن من الحياة أكثر مما عرفه العوام وأشباه العوام في عصر الجاحظ ، ولكن الكتاب لا يخلو من بعض القيم العلمية والفوائد الأدبية ، فليست دراسته مضيعة للوقت ومفسدة للتعليم ، وربما كان لهذا الكتاب فوائد كثيرة أذكر أهمها :

الفائدة التاريخية

يكاد كتاب الحيوان يكون تاريخاً جامعاً لآراء العلماء والأدباء في الحيوان ، فهو يذكر أراء أرسطو وغيره من العلماء والأدباء والمشايخ في مختلف أنواع الحيوان ويعدد آراء الاعراب والجماهير ومشاهداتهم .

ولكل علم ، مهما ارتقى وعلا وتبدلت آراؤه ومفاهيمه ، تاريخ . على طلاب هذا العلم أن يطلعوا عليه ويربطوا قديمه بحديثه ويكونوا على بينة من تطوره ورقيه . وما زلنا ندرس الفلسفة القديمة من عربية ويونانية وهندية وفارسية ونخصص لدراستها السنين على رغم تبدل الآراء الفلسفية وتحولها وانقلابها رأسا على عقب ، وما زلنا ندرس تاريخ الهندسة والكيمياء والفيزياء وغيرها ، فأولى بنا ألا نهمل دراسة آراء العلماء في الحيوان وتطورها .

الفائدة العلمية

ان في كتاب الحيوان آراء علمية ما تزال صالحة مقبولة ، ومعلومات يستفيد منها العوام وجمهور المثقفين ، وهذه المعلومات كثيرة ، منها : وليس كل ما طار بجناحين فهو بالطير ، وليس كل عائم سمكة . وما يزال كثير من الناس في أيامنا يعتقدون أن الخفاش من الطير ويعتقدون أن كل ما عام سمكة .

وأكثر الناس في بلادنا يعتقدون أن الكمأة تكون دون بذرة ، وأن الرعد والمطر يأتيان بها . وقد سخر الجاحظ من آراء علماء عصره في الكمأة قال : « قال جعفر بن سعيد : سأل كسرى عن الكمأة فقيل له : لا تكون بالمطر دون الرعد ولا بالرعد دون المطر » . واذا لم يعرف الجاحظ كيفية نبت الكمأة فإن من يقرأ كلامه يشك في

لرأي الشائع المخطىء ، فيدفعه الشك إلى البحث عن ذلك .

ومن الآراء العلمية الصحيحة التي نعثر عليها في كتاب الحيوان رأيه في أن الحية نوعان ، منها السام ومنها الذي لا سم فيه ، مما لا يزال الجمهور يجهله . ومنها بيان تأثير الفزع في النفوس حتى يقتل ، وتأثير الفكر في الجسم تأثيراً فيزيولوجياً مباشراً . وهو بحث واسع من أهم أبحاث علم النفس وفلسفته ، وما يزال العلم الحديث يسير في مجاهله يكتشف فيه الإكتشافات تلو الإكتشافات . أما عالم الرهم والحدس فمن أوسع عوالم العلم الحديث ، وكثيرون هم الذين تؤثر فيهم الأوهام فيمرضون من حيث لا أدواء ، ويشفون من حيث لا أدوية . ولكن بعض كبار العلماء العصريين ينكرون ذلك كله . وكان الأطباء في عصر الجاحظ ينكرون أن الفزع وحده يقتل ، فكذبهم كتاب الحيوان بالمنطق والبرهان الحسي الواقعي والإستقراء والإستقصاء .

ومن آرائه العلمية الصحيحة معرفته بتأثير الإقليم في الأجسام والأخلاق ، وتغلغل هذا التأثير إلى الأعضاء الداخلية كالطحال والكبد .

قيمته من حيث طريقة البحث

يكاد كتاب الحيوان من حيث طريقته العلمية في البحث يكون كتاباً فلسفياً حديثاً ، بنى علمه على الشك ، فكان يشك في الشيء ثم يبحث ويستقري حتى يصل إلى المعرفة فاليقين ، قال: «أما بعد ، فاعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له » . وكان الجاحظ يعتمد على المشاهدة والتجربة والإمتحان ، وكثيراً ما كان يعمد إلى الحيوانات فيقتلها ويشرحها ويرضخ بيضها ليفحص ما فيه ، ويدفنها حية ليرقب حركاتها ، ويجمع بينها في إناء واحد ليشاهد تآلفها وتخاصمها ، وقد بنيت الفلسفة الحديثة على الشك ، فابتدأ ديكارت يشك في نفسه ، وقامت أركان العلم الحديث على المشاهدة والتجربة والإمتحان التي وضع أهم اسسها فرنسيس باكون. فكأن الجاحظ قد جاء قبل عصره بأجيال ، وجدير بالكثيرين من أبناء هذا العصر الذين يجرون وراء كل نعامة ،

ويصفقون لكل ناعق ، ويصدقون كل مشعوذ ، أن يستفيدوا من كتاب الحيوان وطريقة بحثه وأسلوب تفكيره .

الجرأة العلمية

ربما كان العلم أحوج من السياسة والإجتماع إلى الجرأة والإقدام ، فقليلون هم الذين يجرؤ ون على الشك في أن مذنب هالي يبعد عنا مئة ألف سنة ضوئية ، والثانية النورية ثلاثمئة ألف كيلومتر ، وأقل من هؤلاءء هم الذين يجرؤ ون على الشك في أن عدد الذرات في المليمتر المكعب من الماء يبلغ عدداً لا اسم له فيعبر عنه بواحد إلى يمينه تسعة عشر صفرا ، وكثيرون من العوام وأشباه العوام وبعض العلماء يؤ منون بأن في قدرة المرء أن يحيا اليوم على سطح القمر . وقد قرأت مقالاً لأحد الأدباء يقول فيه إن إحدى النساء عاشت ستة أشهر دون طعام وشراب . فعلينا ألا نؤ من بشيء لا نفهمه ولو قال به اينشتين ومدام كوري وعلماء الأرض كلهم . وليس لكل العلماء من الحرمة والتقديس في قلوبنا ما كان لأرسطو في قلوب القدماء . رحم الله الجاحظ وعلى جرأته العلمية السلام .

أسلوبه الفكاهي

كان الجاحظ رحمه الله يمزج الجد بالجهل ، فيرفه عن القارىء ويحمله إلى الإستفادة دون تعب أو عناء . وإذا كان العلم في عصرنا يحتاج إلى أشياء كثيرة فهو أحوج ما يكون إلى تخفيف وطأته على طلابه وتلطيف جفاف أبحاثه على دارسيه ، وكتبنا العلمية تكاد تكون كلها جافة لا يصبر عليها إلا طلاب العلم المتخصصون المنقطعون إليه ، ولولا الإمتحانات والعلامات ما صبر على مطالعة الكتب العلمية عندنا غير القليل . قال الجاحظ : « إني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها » . والإنسان يحب العلم ويطمح إلى كشف المجهول ، ولكنه لا يصبر على السير في مجاهل العلم وثناياه إلا إذا رفه عن نفسه بالنادرة والسمية . وهب العلم نغماً عذباً رائعاً أو فتاة لعوباً حسناء فالمرء يملها إذا طال عليه أمرها . ولو انتفع مؤلفو الكتب العلمية بأسلوب الجاحظ

الفكاهي لانتشر العلم بين الملايين وأقبل عليه جمهور المتعلمين والمثقفين ، وهذا الإنشاء من أحب الأهداف التي يسعى إليها الكتاب والأدباء والعلماء ، والمجال واسع أمام كل هؤلاء وما أحوجنا إلى تلطيف العلم بالأدب وتغذية الأدب بالعلم ، وما أحوجنا إلى كتاب الحيوان .

وكتاب الحيوان كتاب أدبي أكثر منه كتاباً علمياً ، أو أصبح في عصرنا كذلك لأنه خسر القسم الأكبر من قيمته العلمية ولكنه لم يخسر شيئاً من فكاهته ونوادره ، ولم يفقد بليغ إنشائه وعالي أسلوبه . والجاحظ أحد أئمة الطرق الأربع في الكتابة العربية ، وهو وابن المقفع يتراوحان ملاءة الفخر في السلاسة والبلاغة ، وإذا كان أسلوب ابن المقفع أسلوب الحكايات والأمثال والأخبار ، فأسلوب الجاحظ أسلوب العلم والأدب معاً .

وفي كتاب الحيوان طائفة كبيرة من الأمثال المضروبة والحكم السائرة والأحاديث الشريفة والصور الفنية الرفيعة والأشعار البديعة الرائعة مما قيل في الحيوان والإنسان «الأنف واللسان الخ» . . . وفيه معرض لأقوال الكتاب والشعراء والعلماء وذكر بعض عادات عصره وآرائه وعادات الأعراب وآرائهم .

نقل الجاحظ عن أرسطو أن اناث العصافير أطول أعماراً من ذكورها ، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة . وانتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك ، ويبحث أبالتجارب تصيح الديوك أم بطبعها ، ثم يبحث فيما إذا كان الديك في قرية وحده يصيح أم لا ؟ وكتاب الحيوان معرض لكل الثقافات ، عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشية ودهرية ويهودية ونصرانية وإسلام .

قال الجاحظ : « متى خرج القارىء من القرآن صار إلى أثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ثم يخرج من الخبر إلى الشعر ومن الشعر إلى النوادر ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس علمية » .

النقد الأدبي

تطور النقد الأدبي في اللغة العربية بتطور العصور ، وتبدل بتبدل الثقافات وامتزاجها ، وارتقى في تطوره بارتقاء العقل والفكر والمنطق .

ولم يكن للنقد الأدبي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام قواعد مرسومة ، وأصول منظمة متبوعة ، بل كان النقاد يتبعون أذواقهم في النقد ، ويسير كل منهم على أهوائه الخاصة في تفضيل شاعر أو تقديم خطيب ، وكثيراً ما كان الناقد يفضل الشاعر لقصيدة واحدة نظمها ، أو بيت من الشعر قاله ، غير أن تلك القصيدة كانت تمثل ناحية من نواحي الشعر المعروفة ، وهذا البيت كان يرمز إلى فن من فنون الأدب المألوفة . وقد فضل عمر بن الخطاب زهير بن أبي سلمى لحكمته ، وفضل علي بن أبي طالب أمرأ القيس لفنه ، وفضل النابغة لجمال جرسه ، وجزالة لفظه ، وفضل زهير لقوله :

فما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل

ولعل هذا البيت يرمز إلى مديح زهير كله ، كما كانت من ومن ومن ترمز إلى حكمته .

وكان أكثر النقاد من الشعراء ، وأشهرهم النابغة الذبياني . وكان إذا قدم سوق عكاظ ضربت له قبة من ادم وأقيم حكماً بين الشعراء ، فينقد قصائدهم ، ويفضل شعراً على شعر ، ويقدم شاعراً على شاعر ، وقصته مع الخنساء وحسان بن ثابت مشهورة ، وإذا كانت هذه الرواية صحيحة فقد كان للنقد في العصر الجاهلي

بعض القواعد والأصول .

وأخذ بعض النقاد في عصر صدر الإسلام يتوسع في البرهان إذا نقد ، ويعمد إلى التحليل في حكمه إذا حكم ، فلما أفاق الشعر من سباته في العصر الأموي ، وتعددت مراكزه في دمشق والكوفة والبصرة ومكة والبادية ، أخذت آفاق النقد تنبسط ، وميادينه تتسع ، ومال النقاد إلى شيء من الدقة في الأحكام ، وتحديد بعض الخصائص في التحليل .

وكان للقوم أندية للنقد والتحليل ، كنادي سكينة بنت الحسين ، ومقامات أدبية كالمربد في البصرة ، ومجالس الخلفاء في دمشق . وانتشر الغناء في الحجاز ، والإنشاد في العراق والشام . فدخل النقد في ميدان الأوزان والألفاظ ، والسهولة والرقة ، والخشونة والعذوبة ، ثم اشرف على المعاني والأسلوب فانتظم بعض الإنتظام ، وفرق بين شعر منسجم وشعر متفكك ، وكلام رائق حكيم وآخر فارغ سخيف ، وحلل النقاد الفرق بين شعر فني مؤثر كشعر عمر بن أبي ربيعة ، فوصفوه بالفستق المقشر ، وشعر جاف ثقيل كغزل الفرزدق ، كما ميزوا بين شاعر رقيق فياض يغرف من بحر ، وشاعر جزل قوي ينحت من صخر ، وأخذت أذواق النقاد تتقارب ، وأحكامهم تتشابه ، فقسموا الشعراء طبقات ، وكادوا يتفقون على أن امرأ القيس والنابغة وزهيراً شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية ، وأن الأخطل والفرزدق وجريراً شعراء الطبقة الأولى في صدر الإسلام ، غير أنه كان لكل واحد من هؤلاء أنصار يفضلونه على سواه ، ويتخذون لهذا التفضيل أصولاً يتبعون فيها التحليل والتشريح حيناً ويسيرون مع الذوق الفني أحياناً .

في العصور العباسية

ترجم العرب كتب الأدب والحكمة والفلسفة والمنطق ، ودرسوها ففهموها ، وارتقت احكامهم فارتقى نقدهم ونما ، واينعت ثماره وآتت أكلها ، ووضع النقاد للنقد أصولاً احكموا وضعها ، وعمدوا إلى المنطق في نقدهم فاشترك العقل الحكيم

والذوق السليم ، فكان للنقد قواعد دقيقة ، وأصول منتظمة مدونة ، غير أن النقاد كانوا يختلفون في تطبيق هذه القواعد ، ويتباينون في نتاج هذه الأصول ، فيقدم بعضهم أبا تمام لجمال معانيه ، ويقدم غيرهم البحتري لرفعة فنه .

وكان النقاد طبقات ، فمنهم من يجعل همه البحث في اللفظ والأسلوب والتركيب ، ومن يحول اهتمامه إلى الموسيقى والتصوير ، ومن لا يرى غير المعنى الشريف والفكرة التي توافق مقتضى الحال ، ومنهم من يتوسع في نقده فيقابل بين عصر وعصر ، ويشك في نسبة الشعر إلى قائليه ، ومنهم من لا يرى حكماً إلا الذوق السليم ، ومن لا يرى ناقداً فاهماً غير المنطق الحكيم ، ومن يعتمد على عقله ويستند إلى منطقة ثم لا يلبث حتى يحكم ذوقه وفنه .

ولم يعمل النقد في ميدان النثر ما عمله في آفاق الشعر ، فقل نقاد النثر ، إلا أن أحكامهم كانت إلى المنطق الحكيم أميل ، وإلى الميناء الأمين أقرب .

في النهضة الحديثة

ضعف النقد في عهود الإنحطاط كما ضعفت فنون الأدب كلها ، فلما كانت النهضة الحديثة بعث النقد حياً من مواته ، وسار مسرعاً في طريق التقدم والإرتقاء ، وتأثر نقاد النهضة بنقاد الغرب ، فبنوا نقدهم على قواعد العقل وأصوله ، وأسس المنطق وأحكامه . فذكروا الأسباب والمسببات ، وربطوا بين العوامل والنتائج ربطاً يزين أحكامه العقل ، ويثبت أركانه الذوق ، وكان لبعض النقاد فضل كبير على الأدب في النهضة الحديثة ، فردوا الكتاب إلى الصواب ، وحذروا الشعراء من التقليد والجمود والعيوب ، وفتحوا طرق النقد الحديثة يسير عليها النقاد والكتاب والأدباء ، ثم كثر المترجمون والمؤلفون ، وانتشرت الصحف والمجلات ، وتوترت أعصاب الشعراء والكتاب فقل النقاد ، وإذا كنا في هذا العهد من النهضة في حاجة إلى شيء فنحن أحوج ما نكون إلى النقاد .

ومن أشهر نقاد الأدب عند العرب الجاحظ في البيان والتبيين ، ويقوم نقده على أصول الذوق الفني ، وقواعد البلاغة والبيان ، ومنهم المعري في رسالة الغفران ، وابن الأثير في المثل السائر ، وإبراهيم اليازجي في غلطات الكتاب ، وسليمان البستاني في مقدمة الألياذة .

المعري (973 م ـ 1075 م)

ولد في معرة النعمان سنة 363 هجرية . واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، وكنيته أبو العلاء ، وفي السنة الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بعينه اليسرى ، ثم باليمنى . فكانت أولى نكبات الدهر عليه ، ودرس في صغره على أبيه ، ثم ذهب إلى حلب وفيها أكابر العلماء ورجال الأدب ممن دعاهم سيف الدولة إلى بلاطه ، ثم سافر إلى انطاكية واطلع على ما فيها من نفائس الكتب ، فأثرت فيه الثقافة الرومية ، ثم سافر إلى طرابلس ومر في طريقه باللاذقية فنزل في دير فيها وتمكن من دراسة فلسفة الديانتين اليهودية والمسيحية .

وساءت الأحوال السياسية في الشام ، وطمع المعري بالمراتب العالية والشهرة الواسعة ، فرحل إلى بغداد سنة 398 هجرية ، واطلع على مكاتبها الشهيرة ، واشترك بالمجامع العلمية والأندية الأدبية ، ولكنه لم يلبث حتى تركها لمرض أمه ، ولأنه لم يوفق فيها ، وربما كان من أكبر الأسباب في عدم توفيقه في بغداد اباؤه وإعجابه بنفسه ، إذ كان يأنف من التكسب بالشعر والأدب . وكان جريئاً صريحاً ، والصريح يثقل على الجلساء ، وكثيراً ما يجب السكوت عن قول الحقيقة ، وكان لا يحسن المصانعة وهي خلق أبعد ما يكون عن طباع النوابغ والأذكياء .

وعلم بوفاة أمه وهو في طريقه إلى المعرة ، ففقد بها ركناً كان يأمل أن يستند إليه في خيبته ويأسه ، ولذلك نقم على الدنيا وعزم على الزهد والإنقطاع عن الناس .

ولم يخلق المعري قوياً مغامراً يركب الأهوال ويضرب في آفاق الأرض وراء

العظمة والسلطان ، بل خلق للزهد والنظر في الحكمة وأسبابها ، والبحث في الفلسفة ومجاهلها ، ولذلك كره الدنيا فزهد فيها ، ونقم على الناس فاعتزلهم ، وأقام في بيته لا يبرحه ، وسمى نفسه رهن المحبسين ، محبس نفسه ، ومحبس عماه ، وعكف على النظم والتأليف ، والتزم ما لا يلزم في حياته وفلسفته وأدبه ، ولكنه لم يوفق في عزلته ، فقد كان المعجبون به يقبلون على زيارته ، والوفود تترى لتتلقى عنه العلم والأدب ، وبعدما نيف على الثمانين أودت به علة لازمته ثلاثة أيام .

وللمعري شخصية أدبية قوية شغلت الناس أجيالاً ، فمنهم من يجعله في مقدمة الشعراء لأن في شعره جمال الفكرة ، ومنهم من يحسبه فيلسوفاً فحسب ، لخلو شعره من جمال الموسيقى ، وعدم إجادته في فن الرسم ، وله منزلة كبيرة عند الأعاجم لأن شعره من النوع الذي لا يخسر شيئاً من جماله إذا ترجم ، ولذلك يعجب أدباء الفرنجة منا لأننا لا نضعه في رأس الشعراء عندنا .

وهو رائع الخيال ، ولكن هذه الروعة تختفي وراء لزوم ما لا يلزم ، والإنصراف عن الرسم الشعري إلى الفلسفة والبديع والاغراب ، إلا أن ذلك الخيال يجليّ في رسالة الغفران . ويكفيها فخراً أن أجمل أثر أدبي عند الإفرنج شبيه بها .

شعر المعري

إذا أردنا بالشعر احد الفنون الجميلة الرفيعة الذي يجمع بين جمال الرسم بروعة خياله ، وعذوبة الموسيقى بجمال جرسه وانغامه ، وجمال الفكرة الفنية التي توافق مقتضى الحال في إبداعه ، فالمعري ليس شاعراً ، وإذا كان هنالك من لقبه بفيلسوف الشعراء فالفلسفة غير الحكمة ، والفكرة في الشعر فن لا فلسفة .

غير أن للمعري فلتات يجاري فيها أجود الشعراء بروعة خياله ، وجمال فكرته الفنية ، قال في الرثاء :

غير مجد في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد

وفي هذا المطلع فكرة فنية لأنها توافق مقتضى الحال في الرثاء ، ولكنها تتغلغل إلى ميادين الفلاسفة مما لا يوافق روعة الشعر في رأي بعض النقاد . وقال :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب م فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم م الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم م العهد هوان الآباء والأجداد
سر ان اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد

وفي هذه الأبيات خيال مبدع رائع ، يخلق من تراب الأرض بشرا أحياء ينظرون إلينا نظرة النصح والتعليم والإرشاد ، ويوبخون المتكبرين الذين يمشون في الأرض مرحاً يشمخون بأنوفهم مختالين ، ويدوسون أجسام آبائهم وأجدادهم جهالا مغرورين .

ولكن المعري في شعره أميل إلى التعليم منه إلى الخيال ، ولذلك لا يلبث حتى يترك هذه الصور الفنية الرائعة ، وينتقل إلى الحكمة والعظة ، قال :

تعب كلها الحياة فما أعجب م إلا من راغب في ازدياد
خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

والمعري مولع بالمعرفة منذ صغره ، راغب في الإطلاع على أسرار الغيب منذ حداثته ، مات أبوه وللأعمى من العمر نحو أربع عشرة سنة ، فقال :

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن

ولم تكن حكم المعري خطرات شاعر ينظمها عندما يحتاج اليها ، ولا آراء فكرية يتخذ منها الشعراء سبيلاً إلى أغراضهم ، بل جمع تلك الآراء دون غاية إلا غاية المعرفة والإطلاع ، وألف تلك الحكم تأليف حكيم لا تأليف شاعر ، فإذا رتبنا

هذه الحكم ، ونظمنا تلك الآراء ، [illegible]ت من ميادين الفلاسفة لا من آفاق الشعراء .

وللمعري في السياسة والإجتماع وما وراء الطبيعة حكم متفرقة ، وآراء قد تبدو متناقضة ، حتى إذا ألفنا بينها ، ونظمنا أجزاءها ، ظهر المعري في الإجتماع من المتشائمين ، وفيما وراء الطبيعة من الشاكين ، غير أن له آراء تخرج عن التشاؤم والشك ، فإذا بالمعري قرن الحكماء وخدن الفلاسفة .

عاش المعري في عصر كثرت فيه الفرق الدينية ، وكفرت كل فرقة غيرها من الفرق ، واطلع على تعاليم النصرانية واليهودية وفلسفتهما ، فرأى أن الإنسان ينشأ على ما نشأه عليه أبواه ، فيرى طائفته أحسن الطوائف ، وفرقته خير الفرق .

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على ما كان عوّده أبوه
وما دان الفتى بحجى ولكن   يعلمه التدين أقربوه

ورأى المعري في اختلاف الطوائف والفرق ما أثار الحروب والنزاع ، والتجأ إلى عقله الذي لا يعرف مشيراً سواه ، فوجد الدين الصحيح في الأعمال الصالحة ، والبعد عن الشر والطمع والحسد ، قال :

ما الدين صوم يذوب الصائمون له   ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطرحا   ونفضك الصدر من غل ومن حسد

وقال :

سبح وصلّ وطف بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له   أطماعه لم يلف بالتماسك

ولم تكن حال الحكام في عصره بأفضل من حال زعماء الفرق الدينية ، فنقم المعري على الحكام والأمراء ، ورآهم أدوات للشر والفساد ، غير أنه رأى في الحاكم

رأيا لم تره أوروبا قبل الثورة الفرنسية . قال :

مـلّ المقـام فكم أعـاشر أمة	أمـرت بغـير صلاحهـا أمراؤها
ظلمـوا الـرعية واستجـازوا كيدها	وعـدوا مصالحهـا وهـم اجراؤها

ولم تكن الحال الإقتصادية في أيام المعري بأفضل من السياسة والدين ، فتألم أبو العلاء لشقاء الفقراء ، ولكنه نظر إلى الحياة نظرة الحكيم المتصوف ، فرأى الشقاء الإقتصادي دون الشقاء الإنساني ، وكانت الحياة في رأيه حلماً قصيراً يمر الإنسان فيها على عجل فلا يصح أن يكون له منها شيء يجوز أن يحسبه ملكاً له ، قال :

لـو كان لي أو لغـيري قيد انملة	من البسيطة خلت الأمر مشتركا

واشتراكيتـه فلسـفية نظرية ، والنـاس سواسية ولـكن في الشر والشقاء ، لا فرق بين أغنياء وفقراء ، قال :

ويا بلاداً مشى عليها	أولـو افتقـار وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازي	فكل من فيك أشقياء

ولم تكن المرأة في رأي المعري أفضل من الحاكم والسياسي ، أو خيراً من رجل الدين والفقير والغني ، فهي ليست في حاجة من العلم الى شيء حتى درس القرآن ، بل يكفيها النول والمغزل ، ولا بد من التضييق عليها فلا تعاشر إلا الصغار :

إذا بلـغ الـوليد لديك عشرا	فلا يدخـل على الحـرم الوليد
الا ان النسـاء حبال غي	بهـن يضيّع الشرف التليد

وهي محتالة همها الكيد والشر والفساد

أعـوذ بالله من ورقـاء قائلة	للـزوج إنـي إلى الحمام احتاج !
وهمهـا في أمـور لو يوافقها	كسرى عليها لشـين الملك والتاج

وليست الحياة عند المعري بأفضل من المرأة ، فخير للإنسان ألا يولد فإذا ولد فخيرله الاّ يعيش ، وإذا عاش فخيرله ألا يتزوج ، وإذا أراد الزواج فخير النساء العقيم :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

والحياة جناية الآباء على الأبناء ولو كان هؤلاء حكاماً وأمراء وزعماء ، وتمسك المعري برأيه ، وعمل بمذهبه ، فأوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبي عليَّ م وما جنيت على أحد

ويتخذ المعري في التعليم مذهباً خاصاً كان الفلاسفة والعلماء قبل النهضة العالمية الحديثة في أشد الحاجة إليه ، فهو يتخذ العقل وحده مدبراً ومشيراً ، وهو يأبى أن يصدق ما لا يقبل العقل تصديقه ، قال :

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلّة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وما يزال الكثيرون منا ، وممن نعدهم علماء عقلاء ، في حاجة إلى الإنتفاع بهذا الأعمى البصير ، وما زلنا نصدق ما لايمكن أن يكون ، ونؤمن بما لا يقبله العقل المفكر .

غير أن المعري يتطرف في استناده إلى العقل ، فيريد أن يكتشف به ما وراء الطبيعة ، وللعقل حدود إذا تجاوزها ضل ، وله آفاق إذا بحث فيا وراءها فسدت أحكامه ، ولكن ربما كان التفريط أفضل من التقصير ، وأعمال العقل في غير ميدانه خيراً من أهماله في آفاقه .

رسالة الغفران

هي رسالة رد بها المعري على رسالة جاءته من صديق له اسمه علي بن منصور ، ولقبه ابن القارح ، والرسالة قسمان ، قسم يتخيل به المعري علي بن

منصور سارحاً في الجنان ، متنقلاً من مجلس أدب إلى مجلس أنس وطرب ، ومن وليمة إلى لذة ، ومن لذة إلى راحة ، ومن جنة الناس إلى جنة العفاريت ، ومن هناك إلى مكان يشرف على النار . أما القسم الثاني فكلام عادي ، لا فن فيه ولا خيال .

وسميت هذه الرسالة رسالة الغفران لأن أبا العلاء صور ابن القارح فيها يلتقي في الجنة بالشعراء ، فيسأل كل واحد منهم : « بم غفر لك ؟ » . وقد التقى بالحطيئة في مكان وضيع في اطراف الجنة فقال : « لقد رضيت بمكان وضيع » . فقال الحطيئة : « ما وصلت إلى هنا إلا بعد هباط ومياط(1) ، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن » .

وأطلق المعري في هذه الرسالة لخياله العنان ، فابتدع صوراً غلا فيها ، وخرج بها عن المعقول ، غير أن غلوها مقبول لأنها تصور مشاهد في الجنة والنار والموقف مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولأن المعري أراد من وراء غلوه السخرية والنقد من الذين يؤمنون بما لا يمكن أن يكون . وإذا سخر وانتقد عمد إلى البراءة والمسكنة والإيمان المطلق ، وقال : « إن الله على كل شيء قدير » .

ويصور المعري علي بن منصور متنقلاً بين أدباء الجنة ، يتنادمون ويتذاكرون الأشعار والأمثال ، فتدخل عليهم الملائكة تحييهم ، ويخطر لأبن القارح شيء كان يسمى في هذه الدنيا بالنزهة ، فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، ويطوف في جنة غرس فيها شجر لذيذ اجتناؤه ، كل ثمرة [illegible] تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظل غاط(2) ، وإذا بالشيخ يرى معاريج الفضة والذهب ، وآنية الزبرجد والياقوت ، والأنهار من خمر يلعب بها سمك الذهب والفضة ، ولو وقعت جرعة من هذه الأنهار في البحر الملح لحلا « والله على كل شيء قدير » .

---

(1) اضطراب ومجيء وذهاب .

(2) مديد .

ويلتقي ابن القارح ببعض الشعراء والأدباء ، ويمر بهم رف من أوز الجنة ينتفضن فيصبحن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة ، ويغنين لهم ، فإذا خطر للشعراء أن يختار كل شاعر جارية له ، خافوا أن يقال عنهم « أزواج الأوز » .

ويتذاكرون الشعر ، فتقع بين النابغة الجعدي والأعشى الأكبر مشاجرة تكاد تنقلب فتنة . قال الجعدي : « لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك » . ولعل الغلط عند المعري شر من الظلم .

ويصف ابن القارح دخوله الجنة فإذا هو قد خاف الغرق في العرق بعد إقامته في الموقف زهاء شهر أو شهرين ، فزينت له النفس الكاذبة أن ينظم أبياتاً من الشعر في رضوان ، فلم يبال خازن الجنان به ، فأعاد الكرة فإذا به كمن يحرك ثبيرا ، ويحدد المعري الشعر فإذا هو « كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحس ، وأن أهل العاجلة كانوا يتقربون به إلى الملوك والسادات » .

ولم يجد ابن القارح عند رضوان أذناً مصغية ، فتحول إلى زفر فأحاله إلى النبي وعترته ، فالتقى بحمزة بن عبد المطلب ومدحه بشعر فاوصله إلى علي بن أبي طالب ، فيسأله عن صك التوبة فإذا به قد ضاع ، ويشهد له قاضي حلب بالتوبة ، فيعده علي بالخلاص ولكن بعد انتهاء موقفه ، فيلتجىء إلى العترة المنتخبين ، ويذكر لهم حرمته عندهم من أنه كان في الدار الفانية إذا كتب كتاباً قال في آخره : « وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين . وعلى عترته الأخيار الطيبين » . ويستشفع ابن القارح بفاطمة بنت النبي فتوصي به أخاها إبراهيم فيأذن له بالدخول . ولسنا نظن المعري كان جاداً في إيمانه من الدين بمثل هذه الحرمة .

ويعود المعري إلى وصف حياة ابن القارح في الجنة . فإذا به قد خطر له أن يصنع مأدبة تكون كمآدب الدار العاجلة . فتنشأ أرحاء على الكوثر تجعجع لطحن بر الجنة ، ويؤتى بمختلف الطيور والحيوانات فتذبح دون ألم ، حتى إذا أكل القوم وسمروا وتنشادوا الأشعار مر بهم طاووس من طواويس الجنة ، فيشتهي الشيخ أكله ،

فيتكون كما اشتهاه في صفحة من الذهب ، فإذا قضى منه الوطر انضم بعض عظامه إلى بعض ، ثم عادت طاووساً . فتقول الجماعة : « سبحان من يحيي العظام وهي رميم » .

ويتمتع الشيخ بالحور ، والحور ضربان ، ضرب خلقه الله في الجنة لا يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من صالح ، أما الأول فقد تكون الحورية منه رمانة أو حبة عنب أو غير ذلك ، وقد تمنى بلقاء صاحبها قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة ، وأما الثاني فقد تكون الواحدة منه في الدنيا زنجية سوداء ، أو مجدورة عوراء ، وقد تكون من أقبح النساء فتنقلب حورية بيضاء عيناء .

ويزور جنة العفاريت ويسمع أشعارهم ، ويرى أسدا هناك يفترس ما شاء من الحيوانات ، فلا هو يشبع ولا هي تنقص ، ويلتذ المأكول لذة الآكل .

ويشرف على النار ، فيرى بشار بن برد وأمرأ القيس وعمرو بن كلثوم ، ويرى صخراً وكأنه جبل على رأس نار .

ويعود إلى الجنة ويقابل آدم ويسأله عن شعر نسب إليه . ويسير في الجنة فيرى حيّات يلعبن ، وإذا بإحداهن كانت تسكن دار الحسن البصري فحفظت القرآن فغفر الله لها .

ويذكر الشيخ ما كان يلحق أخا الندام في الدنيا من فتور في الجسد من المدام ، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن ينزف له لب ، فإذا به يخال في العظام الناعمة دبيب نمال .

وفي الرسالة خيال سار في سبيل لم يعرفها الأدباء ، فاخترع صوراً غريبة ، ورسم مشاهد تخرج عن المحسوس ولكنها لا تنقطع عنه ، وتحلق في الإبتداع ولكنها لا تنفصل عن المألوف ولا تنبو عنه أو تخرج عليه .

وفي الرسالة فن رائع ، فقد حفظ المعري لكل شخص من أشخاص الرسالة

أخلاقه وخصائصه وميزاته ، فالحطيئة غفر له بشفاعة من قريش ود لو لم تكن . والأخطل في النار يشتاق إلى مجالس يزيد . والأدباء في الجنة يتناشدون الأشعار ويتشاجرون .

وفي الرسالة سخر ، يدخل الحية إلى الجنة ، ويجعل المغفرة ارزاقا ، ويصور لأهل الجنة أن الله في حاجة إلى عيون من الملائكة تخبره بما يصنعون ، وفيها سخر من الذين يرون أن حفظ القرآن وحده يغفر ذنوبهم ، ومن الذين لا يرون في الجنة إلا الملذات الجسدية من حور وولدان ، وعسل وخمر وفاكهة ، ومن الذين تغلب أهواؤهم على عقولهم . نفي كل سطر معاريج من الفضة والذهب ، وفيها سخر من أحكام القدر نفسه ، فإذا بالجنة يدخلها من هم شر من أهل النار .

وفي الرسالة نقد حكيم بليغ ، ولكنه لا يصل في النقد الأدبي إلى مرتبة المنطق الحكيم المؤيد بالحجة والبرهان ، فتحديده للشعر عام لا تحليل فيه ولا تخصيص ، وعندما حكم أن لبيدا لم يقل شعراً في الإسلام لم يؤيد حكمه بالبرهان ، ولما فاضل بين النابغة الجعدي والأعشى ، لم يخرج عن أحكام القدماء « فالنابغة أطول من الأعشى نفساً ، وأكثر تصرفاً ، ولقد بلغ من البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبله » . أما الأعشى فإن « بيتا من أبياته ليعدل بمائة من أبيات النابغة » . ولعل مقام الرسالة في النقد الاجتماعي والفكري أقوى منه في النمد الأدبي .

وفي الرسالة خيال خصيب منتج ، ورسالة الغفران من الرسائل الأدبية المعدودة في العالم ، وبينها وبين الكوميديا الألهية تشابه في الخيال والصور والمشاهد ، حتى رأى بعض النقاد أن دانتي أطلع على رسالة الغفران وتأثر بها ، غير أن في أسلوب الرسالة شيئاً من الغرابة وقف في طريق انتشارها بين العامة والجماهير .

ويختم المعري رسالته الفنية بهذا المشهد الفني الرائع ، قال : « ويتكىء علي ابن منصور على مفرش من السندس ، ويأمر بالحور العين أن يحملن ذلك المفرش ، فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجد أو عسجد ، فيكون

الباريء فيه حلقاً من الذهب تطيف به من كل الأشراء[1] حتى يأخذ كل واحد من الغلمان ، وكل واحدة من الجواري المشبهة بالجمان ، واحدة من تلك الحلق ، فيحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود ، فكلما مر بشجرة نضحته[2] أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ، وبمسك مما جني من دماء الفور[3] . بل هو بتقدير الله الكريم .

وتناديه الثمرات من كل أوب ، وهو مستلق على الظهر : « هل لك يا أبا الحسن هل لك ؟ » ، فاذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره انقضب[4] من الشجرة بمشيئة الله ، وحملته القدرة إلى فيه ، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التحية ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

وإذا كان الخيال قوة تخترع شيئاً من لا شيء ، أو تؤلف شيئاً من أشياء لا ائتلاف بينها ، فليس في رسالة الغفران خيال ، غير أن الخيال الذي يخترع شيئاً من لا شيء وهم لا فن .

وإذا كان الخيال قوة تبتدع الصور من الوجود ، وتؤلف بين الأشياء تأليفاً فنياً جميلاً ، فخيال المعري سام رائع ، ودانتي لم يخترع الجحيم اختراعاً ، وملتون لم يبتدع الفردوس من لا شيء ومثلهما المعري ، وإذا كان في رسالة الغفران سمك من الذهب والفضة فالسمك والذهب من الأشياء الموجودة المحسوسة ، وإذا كان قد خلق الحور من الثمار فإنه لم يخترع شيئاً غير موجود .

وإذا كان في رسالة الغفران صور تبعد عن المعقول ، فقد حاكها عقل المعري قصداً ليسخر ممن لا عقول لهم ، والله على كل شيء قدير .

---

(1) الأنحاء .

(2) رشته .

(3) نوع من الغزال والواحد فائر .

(4) انقطع .

المعلم بطرس البستاني
(1819 م ـ 1883 م)

ولد المعلم بطرس البستاني في قرية الدبية من أقليم الخروب بجبل لبنان سنة 1819 ، ثم درس القراءة العربية والسريانية على الخوري ميخائيل البستاني، وأرسل بعد ذلك إلى مدرسة عين ورقة حيث درس علوم اللغة العربية واللغات السريانية واللاتينية والإيطالية والإنكليزية والفلسفة واللاهوت والشرعة الكنسية ، و في عام 1840 هبط بيروت ، ووافق هبوطه إليها قدوم مراكب الدول الأوروبية المتحالفة مع تركيا ، وانتشارها على سواحل لبنان تريد دحر جيوش إبراهيم باشا ، وإخراجها من البلاد ، فاستخدم الإنكليز المعلم بطرس البستاني ترجماناً ، وفي تلك الأثناء أتصل ببعض مرسلي الأميركان واتفق وإياهم على أن يعلمهم العربية ويترجم لهم الكتب ، ثم اعتنق مذهبهم ، وفي سنة 1846 عاون الدكتور كارنيلوس فانديك على إنشاء مدرسة في عبيه ، وتولى فيها التعليم عامين ألف خلالهما كتاباً في الحساب أسماه « كشف الحجاب في علم الحساب » ثم كتابا في النحو أسماه « بلوغ الأرب في نحو العرب » .

وفي سنة 1848 تولى وظيفة الترجمة في قنصلية أميركا ، وفي تلك الأثناء درس اللغتين اليونانية والعبرانية ، وقام بأعمال شتى في الجمعيات المختلفة ، وعاون الدكتور « سميث » في ترجمة التوراة ، ثم باشر بتأليف معجميه المشهورين « محيط المحيط » و « قطر المحيط » ، وفي سنة 1860. أنشأ صحيفة وطنية دعاها « نفير سوريا » وقد رمى فيها إلى تقريب القلوب بعد المجازر التي جرت في تلك السنة . وفي سنة 1863 أنشأ المدرسة الوطنية على قاعدة الحرية الدينية ، ومبدأ الجامعة الوطنية ، يريد بها تأليف القلوب ، ونشر المبادىء الوطنية على صدق في جانب الدولة ، وإخلاص في جانب الوطن ، فقصدها الطلاب من جميع البلدان الشرقية ، وكان لها أثر واسع .

وفي سنة 1870 ، أنشأ صحيفة الجنان ، ثم جريدة الجنة ، وفي سنة 1875 شرع في وضع دائرة المعارف يعاونه فيها ابنه سليم . وقد أبدى من الهمة في تأليف هذا الكتاب وطبعه ما لا يتوقع من فرد .

وتوفي البستاني في سنة 1883 بعد حياة ملأها بالأعمال المجيدة في خدمة الوطن والعلم . فقد كان مثالاً للجلد والثبات والدأب على العمل والبذل في سبيل الخير .

والمعلم بطرس البستاني ، من كبار رجال الاصلاح في النهضة الحديثة ، ومن أشدهم تأثيراً في تهذيب الأخلاق ، وإصلاح المجتمع في الشرق العربي ، وكانت مدرسته مسرحاً للدروس الخلقية ، وصحيفتاه ميداناً للدروس الإجتماعية ، وكتبه دائرة معارف للعلم والمعرفة والثقافة ، ففي الجنان مقالات ممتعة في الإجتماع والأخلاق وسائر آفاق النهضة . وله خطب كثيرة في الأندية والمحافل تشهد له بطول الباع في الدرس والإطلاع ، والتفنن في النقد والبناء والإصلاح .

ولم يحصر المعلم بطرس البستاني همه في ميدان واحد ، أو يقصر عمله على بعض نواح من مناحي الحياة ، بل عمل على رقي العلم والثقافة بتأليف المعاجم تارة ، والكتب المدرسية ، والموسوعات العلمية والأدبية طوراً ، وجاهد في تنقية الأخلاق وترقية الإجتماع بالتدريس حيناً ، والصحافة حيناً ، وإلقاء المحاضرات والخطب أحياناً ، واشتراكه في الجمعيات العلمية والأندية الأدبية والثقافية أحياناً .

وكان لترقية المرأة نصيب وافر من بحثه ، ولتعليمها وتهذيبها سهم كبير من خطبه ومقالاته ، ومن آرائه أن تعليم المرأة « يوسع قواها العقلية ويهذبها ، ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه ، ويقوم إرادتها وعواطفها الأدبية ، ويرتب سلوكها وتصرفها فيزيد رقة قلبها رقة ، وحنوها حنوا ولينها لينا ، . . . ولم تخلق المرأة لتكون في العالم بمنزلة صنم يعبد أو أداة زينة تحفظ » .

ومن كلام له في وجوب تعليم النساء «لا يخفى أن الأنسان ذكراً كان أم أنثى ،

عند دخوله عالمنا هذا بالولادة ، يكون موكولاً بجملته إلى عناية غيره وتدبيره ، فهو لا يدرك ما حوله من الموضوعات ، ولا يستطيع الجد في طلب قوته ، وباقي حاجاته » ويتخلص من هذه المقدمة في وجوب تعليم المرأة شأنها في ذلك شأن الرجل ، وفي هذه المقدمة أسلوب حكيم في الدخول إلى الموضوع ، ومنطق سليم في إثبات ما يريد الكاتب إثباته ،أما الأسلوب فأقرب إلى الجدل المنطقي، والبرهان العقلي منه إلى الإنشاء الأدبي والجمال الفني .

والمعلم بطرس البستاني لا يخرج عن موضوعه ، ولا يجري في ميدان يبعد عن آفاق بحثه ، فموضوعه تعليم المرأة لا مساواتها له بالحقوق: «ولا يخفى أن للمرأة اختصاصات ليس للرجل حظ فيها وبالعكس ، غير أنهما قد يشتركان في حقوق متساوية بينهما ، ومن جملتها ما نحن في شأنه » .

ويعدد البستاني ما يجب على المرأة ان تتعلمه فيذكر من ذلك الديانة واللغة ، وعلم تربية الأولاد والتاريخ والحساب وغير ذلك مما تحتاج إليه في هذه الحياة ولا سيما إن احتاجت إلى كسب المعاش .

وأسلوب البستاني حكيم في معناه ، منطقي في محاكماته واحكامه جدلي مقنع في بحثه وتفكيره ، وهو أقرب إلى أساليب المفكرين والعلماء منه إلى أساليب رجال الجمال الفني والأدباء ، أما من حيث اللفظ فهو سهل يشبه أسلوب المجلات العلمية ، وهو أبعد الكتاب المجيدين من السجع وتهذيب الجملة ، يكتب كأنه يتحدث ، وينشىء للخاصة والعامة معاً فلا يغرب لفظه ولا يضعف تركيبه ، غير أن جملته تطول أحياناً وذلك عندما تمتزج البراهين وتدعو الحال إلى الجدل المنطقي ، وإذا كان يختار من الألفاظ أبسطها ، ومن التعابير أسهلها فإنه لم يجار الشيخ إبراهيم اليازجي في جمال عباراته ،ولا سليمان البستاني في قوة نقده، غير أن الذين ينسجون على منواله من كتابنا أكثر من الذين يسيرون على غرار سواه .

ومن مباحثه في الإجتماع دعوته إلى التساهل الديني والتفاهم بين الطوائف ،

والأخذ بمحاسن المدنية الغربية ، وبعد فإنه من كبار رجال النهضة في الدروس الاجتماعية والخلقية .

جبران خليل جبران
(1883 م ـ 1931 م)

ولد سنة 1883 في بلدة بشري في شمال لبنان . وكانت أمه صالحة تقية أما أبوه فكان مولعاً بالخمر ، كما كان قليل الشغف بالدين ورجاله .

وسافرت أم جبران سنة 1895 برفقة أولادها إلى بوسطن من أعمال الولايات المتحدة ، وهنالك درس جبران فن التصوير على نفسه وعلى بعض المصورين . ثم رجع إلى بيروت ودخل مدرسة الحكمة حيث قضى أربع سنوات ثم قصد باريس سنة 1908 ، واتصل فيها بمعاهد الرسم والتصوير ، ومكث هنالك نحو ثلاث سنوات زار في أثنائها رومة وبروكسل ولندن وغيرها من عواصم الحضارة والفن ، ثم عاد إلى نيويورك ، واطلع على بعض كتب نيتشه فأعجب بفلسفته وآرائه وأخيلته وراقه مذهب القوة عنده وقد اضطرب جبران في هذا الطور من حياته بين شخصيتين : شخصية تأخذ بالقوة وتثور على العقائد والدين وشخصية تتبع الأميال وتحب الإستمتاع بالحياة ، فكان على حد قوله « يميل إلى الهدم ميله إلى البناء . فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد » . وقد ظهرت شخصية الإستمتاع في كتاب « الأجنحة المتكسرة » (1918) و « دمعة وابتسامة » (1913) . وظهرت شخصية الثورة في كتابه « الأرواح المتمردة » .

وفي سنة 1918 نشر أولى مقالاته باللغة الأنكليزية في مجلة « الفنون السبعة » ومما نشر له فيها تجمع كتابه « المجنون » .

وفي سنة 1931 قضى عليه داء السل بعد حياة وصفها بعضهم بالكفر

والإلحاد ، والإندفاع وراء الشهوات الجسدية . وقد قال مخاطباً نفسه : « لقد نحرت حبك على مذبح شهوتك يا جبران ! أنت مصاب بداء الكلام يا جبران ، ولأنك تخجل من كل ما قيل من ضعف بشري ، تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل ، والألوان البهجة ، والكلام الجميل لا يرفع الشناعة إلى مستوى الجمال ، والألوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة . وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية إلهاً ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة » .

غير أن الذي يعرف جبران ورموزه ، وينعم النظر في خياله الصوفي يمكنه ألا يرى في هذا الكلام كفراً وإلحاداً ، أو فساداً وعبثاً وشهوات .

ومن آثار جبران في اللغة العربية : « دمعة وابتسامة » ، و « الأرواح المتمردة » ، و « الأجنحة المتكسرة » ، و « عرائس المروج » و« العواصف » .

ومن آثاره في اللغة الإنكليزية : « النبي » و « المجنون » و « رمل وزبد » و « السابق » و« يسوع ابن الإنسان » .

وجبران خليل جبران من أكبر الذين بحثوا في ميدان الأخلاق وجروا في ساحه ، ومن أشهر الذين درسوا في علم الاجتماع وآفاقه . وهو يختلف عن أدباء النهضة الذين عاشوا في الشرق بتأثره بالثقافة الأميركية . وابتعاده عن الحركة الوطنية المشتعلة في الأقطار العربية .

وانطلقت نفس جبران الكبيرة وهو في وطنه إلى التحرر من قيود التقاليد ، والخروج من قضبان الأنظمة والقوانين ، وقيل انه احب ، وان عقبات من الإستبداد والظلم وقفت في طريقه ، فثار واهتاج ، وكسر قيود التقاليد وقضبان الأنظمة ، واندفع في حريته حتى بعد عن المألوف ، وقام يدعو إلى الحب الحر في بلاد شرقية كانت تحافظ على التقاليد وتقدس الأنظمة والقوانين ، وتخضع للكهنة والرهابين ، قال في الأجنحة المتكسرة : « بلغوا المقبرة ، فانتصب المطران يرتل ويعزم ، ووقف

الكهان حوله ينغمون ويسبحون ، وعلى وجوههم الكالحة نقاب من الخلو والغفول » .

وتمتزج ثورة جبران العاطفية التي هاجها الحرمان بثورته الفكرية التي تطمح إلى الحرية المطلقة ، فيغلو في ثورتيه ، ويعمد إلى تحطيم النظم والقيود ، فيقول : « منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن ننقاد إلى العميان ، ونركع أمام اصنامهم ، مذ عرفتك ونحن في يد المطران مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ، ويقذفنا حيثما شاء ، هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للإستعباد ؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي أوقدتها ، ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق ، وشريك السفاحين بقتل الأبرياء . . . أمامنا الحياة ، وما في الحياة من الحرية ، وما في الحرية من الغبطة والسعادة . فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ، ونكسر القيود الموثوقة بأرجلنا ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير إلى هيكل الله الأعظم ! هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة إلى بلاد بعيدة لا تطالها أيدي اللصوص ، ولا تبلغها لهاث الأبالسة » .

وإذا كان من الفلاسفة النظريين من يدعو إلى إفلات الغرائز البشرية من قيودها ، ومن يعلم بتقويتها لا بمقاومتها ، فإن القوانين الخلقية لا تزال تمنع هذه الغرائز من الإنفلات ، والأنظمة الإجتماعية ما تزال حرباً على الحرية المطلقة ، ولعل النصر للقانون لا للإنفلات ، والغلبة للنظام لا للإنطلاق .

ورحل جبران إلى الولايات المتحدة ، ونعم بنصيب كبير من الحرية التي كان ينشدها ، فلم ير هناك كاهناً يقف في وجهه ، أو مطراناً يلعب به كيفما أراد ، ولكنه لم ينعم بالغبطة التي كان ينشدها ، ولم يدرك السعادة التي كان يطلبها ، بل رأى الناس هناك مقيدين بسلاسل تفوق بقوتها وشدتها السلاسل التي يقيد الشرق بها الكاهن والمطران .

رأى جبران أن الناس في أميركا يقدسون المال فتقيدهم أغلاله ، ويفنون

العمر في جمعه فلا يعرفون الغبطة والنعيم ، وإذا عبدوا الله فلأن الله يمطر للإنسان ذهباً كما يمطر « للسنانير فئراناً ، وللكلاب عظاما » .

ولم ير جبران فرقاً بين سجين التقاليد ، وسجين الشهوات ، والغريب أن كلا منهما يحيي الآخر فيقول : « عم صباحاً يا أخي السجين » .

وجبران من الأدباء ذوي المخيلات الواسعة ، والنفوس الظمأى إلى الراحة والطمأنينة ، الراغبة في الإنفلات من قيود التقليد ، وأغلال المادة ، ولذلك لم يرق له العلم المادي ، ولم تعجبه المدنية الغربية في ابتعادها عن الروح والخيال ، فحمل على النفوس الملتصقة بالأرض ، والعقول المقيدة بالمادة ، وعمد إلى الأسلوب الرمزي ، والإنشاء الخيالي البعيد ، فكتب « النبي » و « المجنون » وغيرهما ، وكان لكتابته تأثير في نفوس الغربيين الطامحين إلى الراحة والطمأنينة أكثر من تأثيرها في نفوس الشرقيين الراغبين في العلوم الطبيعية والقوى المادية ، ولذلك كانت كتب جبران في الإنكليزية أبعد خيالاً ، وأقوى أثراً من كتبه في العربية .

وجبران أديب قوي الحس تألم لآلام الناس ، وكاتب فياض الشعور كره الظلم والإستبداد ، ولكنه تأثر بنيتشه في مذهبه ، وأعجب بفلسفته ، وراقه الطموح إلى ما فوق الإنسان ، فاضطرب بين الشعور بآلام الضعفاء ، والميل إلى سبيل القوة في إصلاح الإجتماع ، فكان يميل إلى الهدم كما يميل إلى البناء ، وكان « صديق الناس وعدوهم في وقت واحد » .

والغريب أن الذين ثار جبران من أجلهم ثاروا عليه ، وأن الذين دافع عنهم هاجموه ، وكانوا للمستبدين بهم عوناً عليه ، غير أنه وجد في الفتيات والفتيان أنصاراً أعجبوا به فأحبوه ، وبين الناشئين محبين عظموه وقدموه ، وقرأوا كتبه ، ومالوا إلى آرائه .

ويغلو جبران في هدمه فيندد بكل شريعة وسلطان ، ويريد « أن يتحرر العالم من عبودية الشرائع والنواميس التي سنها بعواطف القلب البشري ، ويقف برأس

مرفوع أمام عرش الآلهة » . وهو يرى « أن الأرض ضيقة ، ومن الجهل أن تتجزا إلى ممالك وإمارات » .

وجبران في أدبه مصور بارع ، وفي فنه رسام مبتدع ، وهو حبيب الشباب لما في ثورته من خروج على التقاليد ، ولما في أسلوبه من السلاسة وجمال اللفظ وسهولة التركيب ، ولكن سهولته تنحدر أحياناً إلى الضعف ، فكأن خياله غلب لفظه ، وكأن اللغة الإنكليزية عنده أثرت في أسلوبه العربي .

ولي الدين يكن
(1873 م-1921)

ولد في الأستانة سنة1873 ، وجده ابن أخت محمد علي باشا ، ويكن بالتركية أبن الأخت .

درس ولي الدين العربية والتركية وشيئاً من الإنكليزية ، ثم درس الفرنسية وأجادها ، وألم باليونانية ، وتزوج أمرأة يونانية نصرانية .

وكان ولي الدين في أول نشأته يقاوم الأحرار فى مصر ، ويدافع عن السلطان عبد الحميد . ورحل وهو في الثالثة والعشرين إلى الأستانة . وأنعم عليه عبد الحميد بالرتبة الثانية وأكرمه ، ثم عاد إلى مصر والسلطان راض عنه واثق به ، ولكنه عاد ناقماً على استبداد السلطان ، ومكايد رجاله ، ودسائس جواسيسه ، فأنشأ جريدة « الاستقامة » وحمل فيها على أعوان الظلم وزبانية الشر ، فمنع السلطان دخول الجريدة إلى الولايات العثمانية ، فاضطر ولي الدين إلى إغلاقها ، وأخذ يكتب فى الصحف المصرية منددأ بسياسة المستبدين .

وكان عبد الحميد يتبع سياسة الحيلة والمصانعة ، فيعد الأحرار بالإصلاح ، ويوليهم المناصب ليسكتهم ، ولذلك استدعى ولي الدين إلى الأستانة ، وجعله عضواً في مجلس إدارة الجمرك ، ثم رقاه فجعله عضواً في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن ولي الدين لم يحسن المصانعة ، فأهان رئيس كتاب عبد الحميد وطعن عليه في

بعض الصحف الأجنبية ، ولم يعفَّ عن كبار المقربين من السلطان ، فكثرت الوشايات به ، حتى فتش منزله فوجد فيه ما اثبت حملته على السلطان ، وسجن ثم نفي إلى سيواس ، وكان عبد الحميد يقتل الأحرار أو يصانعهم ، فعين ولي الدين في منفاه معاوناً لمدير أوراق الولاية ، ثم ولي سيواس أحد الولاة الأحرار فأكرم ولي الدين ، ولما أعلن الدستور العثماني سنة 1908 رجع ولي الدين إلى الآستانة ، ثم عاد إلى مصر وأخذ يكتب في الصحف الكبيرة ، ثم نشر كتاب خواطر نيازي والصحائف السود ، والمعلوم والمجهول . وأنشأ سنة 1913 جريدة « الإقدام » في الإسكندرية ، ثم عين كاتباً في وزارة العدلية ، وعين أخيراً كاتباً في ديوان السلطان حسن كامل ، وحسنت حاله ، ولكن المرض هاجمه واشتد عليه الربو ، وقيل أنه أصيب بداء الصدر . ومات سنة 1921 فقيراً متألماً ، ونقل جثمانه إلى القاهرة ، ودفن في مقبرة الأسرة اليكنية .

وكان ولي الدين نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، سريع التأثر والتقلب ، شديد الوطأة على خصومه ، وكان صلب المكسر في عقيدته ، إذا رأى رأياً دعا إليه بجراءة وصراحة ، لا يصانع ولا يرائي ، ولا يحسن التكتم والتستر ، وكان أبي النفس مع تواضع ولين ، يشمخ بأنفه أمام المتكبرين ، ويلين للمتضعين ، وكان حرباً على الطغاة والمستبدين ، وله نصيب وافر في زعزعة عرش عبد الحميد .

وولي الدين في دروسه الخلقية والإجتماعية ميال إلى الجديد ، ناقم على القديم ، وكان على شيء من التطرف والخروج على التقاليد المألوفة ، فقد تزوج امرأة يونانية نصرانية ، وسمى ابنه جان ، وابنته فكتوريا ، وكان يفطر علناً في رمضان ، ويدخن في القطار والناس صائمون .

ومن أشهر آثار ولي الدين « الصحائف السود » ، وهي مجموعة من المقالات ينتقد فيها بعض العادات والأخلاق ، ويعالج بعض الحوادث والمواقف الإجتماعية والغرامية ، ومنها المعلوم والمجهول ، وهو كتاب يجمع بين النقد والتاريخ ، والقصة والسيرة ، ومنها التجارب ، وهي مجموعة من المقالات الإجتماعية وغيرها .

وتقوم منزلة ولي الدين على أنه كاتب جريء ، مندفع إلى الإصلاح والتجديد اندفاعاً لا لين فيه ولا هوادة ، وهو قبلة الأحرار الناقمين على الظلم والإستبداد .

وتقوم منزلته أيضاً على أسلوب سهل مرسل ، لا تنميق فيه ولا تزويق ، ولكن أسلوبه يتفق ومزاجه ، فبينما يسير متمهلاً رفيقاً إذا به يقوى ويشب ، ثم لا يلبث أن يلين أحياناً ويضعف .

وولي الدين اديب فني ، سمت به قوى الأدب الثلاث ، فارتقى تفكيره ، وفاض شعوره ، وجمل خياله ، قال : « في ليلة من ليالي الشتاء ، سكنت تحتها الأشياء ، وتحركت الضمائر ، سوداء الجلباب بيضاء الصقيع ، طرقوا باب المظلوم ، فأطل عليهم قال : من الطارق المنتاب ؟ قالوا شفيق يدعوك . فقام إلى ثيابه فلبسها ، ومال إلى أهله فودعهم ، وتوسط رسل البين وزبانية جهنم » . وفي هذه القطعة كثير من خصائص ولي الدين في إنشائه ، ففيها عبارات قصيرة موزونة ، وفيها جمل مرسلة كأنها حديث مكتوب ، وفيها سجعة مطبوعة بين الشتاء والأشياء ، وتوازن بين سوداء الجلباب وبيضاء الصقيع ، وفي استعارتها خيال جميل ، مثل سوداء الجلباب ورسل البين ، وفيها طباق بين سكنت وتحركت ، وتوشيع بين سوداء وبيضاء ، وتورية في تحركت الضمائر ، فكأنها قطعة أدبية فنية على أسلوب سهل مطبوع ، ولولي الدين كثير مثل هذه القطعة .

وعبارات ولي الدين في بحثه مطبوعة مرسلة كأنها حديث عادي ، يتدفق فيه تدفق السيل الجارف ، يكتب كأنه يحدث أو يخطب ، حتى إذا اشتدت ثورته ، وقوي تأثره ، تغلب عليه مزاجه فشبه واستعار ، وقصرت فقراته وتقطعت عباراته وتواثبت جمله وثباً كأنها تأبى أن تستقر ، وتأنف إلى أن تسير سيراً ليناً متتابعاً ، قال في المعلوم والمجهول : « أما بنو فاروق فمغلوبون على أمرهم ، قضي عليهم ألا ينالوا في الحياة الدنيا إلا الهموم ، ويعيشون فيها لا يرون بها شمساً ، ولا يسمعون زمهريراً ، عليهم ثياب من نار ، كلما شوت منهم جلوداً بدلوا جلوداً ، تتعاقب الاناء وهم سكارى حيارى » . وهو ينوع بين الإيجاز والاطناب والمساواة ، فإذا

اقتضت الحال التكرار كرر ، وإذا كانت البلاغة في الإيجاز أوجز ، قال في الصحائف : « بيني وبينك لو شئت وفاق تزيده الأيام رونقاً وأحكاماً ، وبيني وبينك لو رمت خلاف يقضي به الموت الزؤام » . وفي تكرار بيني وبينك بلاغة لا يفيدها الحذف ، وفي الترادف بين شئت ورمت تفنن في الإنشاء ، ولا تكون المترادفات شيئاً واحداً ، فبين المشيئة والمرام فرق ، فالأولى توافق الوفاق ، والثانية أميل إلى الخلاف .

ولولي الدين تشبيهات موفقة ، وصور جميلة مبتدعة . لم يسبط فيها على القدماء ، قال في عيني شيخ : « هما مصباحا مسجد في آخريات الليل » . وقال في وصف أحدهم : « وفي رجليه خفان اصفران كأنهما سفينتان من النحاس الأصفر ، وفي عنقه سبحة أطول من الفية ابن مالك » . وقال في آخر : « وما طال بنا الجلوس ساعة إلا وصاحبنا الكاتب داخل علينا ، يقود رجلاً كالجمل على رأسه عمامة كالهودج » .

ويجمع ولي الدين أحياناً بين تشبيهاته ويوفق بين أجزائها حتى تؤلف صورة متناسقة ، قال : « رأيت إلى جانبي شيخاً رقّ . حتى صار كالعمود الفقري له رأس كراس السنة ولحية كالتقويم ، وأنف كالمسدس ، وعينان كأنهما برقوقتان ، وعلى رأسه عمامة كالبصلة الكبيرة » . والتشبيه بالبصلة يوافق غرض الكاتب من السخرية والإستهزاء . وقال : « وحين دانيته تبادلنا سلامين كمن يحثو التراب على رأسه » . وفي هذا التشبيه وصف موجز بليغ للسلام المدني الذي كان رائجاً عند الأتراك ، وعند عظمائنا الذين كانوا يقلدون الأتراك .

ويجيد ولي الدين في وصف العواطف النفسية ، ويبدع في تصوير المعقول بالمحسوس ، قال في وصف المظلوم : « فتقدم خطوات وسلم تسليم غير المشتاق » . وقال : « يا حكماء الموت هذا عجب الخلي من حال الشجي » .

وكتب ولي الدين في السياسة والاجتماع والتاريخ والنقد والإصلاح ، وغاص في بحر السياسة الغامر قبل أن يبلغ العشرين ، وظل يتخبط في عبابه حتى لفظ أنفاسه . وهو في سياسته من أنصار الجامعة العثمانية ، ولكنه كان من أنصار

الإحتلال الإنكليزي لمصر ، وظل موالياً للإنكليز يخدمهم ويخدمونه ويؤيد أتباعهم حتى اشتد عليه المرض ، فاستغنى عنه هؤلاء وأولئك وتركوه فمات فقيراً يائساً .

وكتب ولي الدين في الأخلاق والإجتماع ، فرأى الإصلاح في الخروج على القديم ، والسير قدماً في ثنايا الجديد ، كما رآه في الثورة على التقاليد والحملة على رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة وحريتها وسفورها ، ومساواتها بالرجل في العادات والأعمال وسائر الحقوق .

وكتب ولي الدين في الأخلاق والإجتماع ، فرأى الإصلاح خروجاً على القديم ، وحملة على رجال الدين ، وفطوراً وتركا للصلاة .

وولي الدين في حملاته الإصلاحية جريء مؤلم ، وثائر وثاب ، يقاوم التعصب الديني فيحمل على رجال الدين ، ويسخر منهم ، ويتهكم بهم ، ويضحك من تسليمهم الأعمى ، وتصديقهم لحوادث يسخر منها العقلاء ، وهو يدعو إلى التساهل الديني ، وينشد إتحاد المسلمين والمسيحيين ، متأثراً في ذلك بسياسته ومبادئه ، فقد حمل على الدولة التي تسجن المفطر في رمضان إلى أن يأتي اليوم الثالث من الفطر ، وعد هذا العمل جهلاً واستبداداً ، وهاجم المفطرين الذين يدعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين ، حتى يبلغ أمر الكذب عندهم أن يضرب المفطر في بيته من يدخن في جنبه سيكارة . ولولي الدين حيلة ذكرها في أكذوبة رمضان وكان الوقت صوماً ، وأراد أن يشعل سيكارة فنظر القوم إليه شزراً ، فعمد إلى الحيلة ، وأخذ يوبخ رجلاً كان جالساً إلى جانبه ، قال له : « كذا تراني يا أخي أكاد أفسد صومي ولا تنبهني إلى ما كاد يفرط مني على غير عمد » . فابتسمت الثغور ، وسري عن القوم .

ويسخر من إيمان الناس بما لا يمكن أن يكون ، واعتقادهم ما لا يصدق ، فصور شيخاً يقص عليه حكاية رجل لم يرزق ذرية ، فيطلب في ليلة القدر أن يملأ الله بيته صغاراً ، وينتبه في الغد على خمسين ولداً لا يزيد طول احدهم على الشبر ، وتأتيهم الأم باللبن في وعاء كبير ، فيثب بعضهم في الوعاء فيغرق ويبكي

الآخرون . وقال ولي الدين : قلت ذات يوم لرجل ممن يقصون مثل هذه النوادر : « تعالى الله عما تقولون ، أيكون الحكيم العادل يعلم ما تخفي الصدور ، ويفهم الدعاء كما يفهمه عبد الحميد ؟ » . وفي هذا الإنشاء لين يسير مع الطبع ، ويرق حتى يصبح حديثاً لا توازن بين فقراته .

ويحمل ولي الدين على الكذب والرياء ، ويهاجم الصحف التي تصانع السلطان وتمدح الظالم المستبد والمنافق طمعاً في منصب أو مال أو وسام ، ويهاجم المنافقين والمرائين الذين يؤثرون حب عبد الحميد على حب العادل الحميد .

وهاله ما رأى من تأخر الشعب المصري . وانقياده للجهلة والمستبدين ، وسيره وراء الزعماء والمنافقين ، فكان في سياسته من أنصار الإحتلال الإنكليزي ، وكان يرى أن الإحتلال يقضي على زعامة المنافقين ، وينشر العلم ويقضي على الجهل والفساد .

وليس ولي الدين سياسياً واجتماعياً فقط ، أو كاتباً منشئاً فحسب ، بل هو مؤرخ قاص يجمع بين التاريخ والأدب والفكاهة ، ويمزج بين الحوادث والتعليق ، والنوادر والأخبار ، ويربط بين الأسباب والمسببات ، وكتابه المعلوم والمجهول تاريخ وسيرة وأدب ، فيه من التاريخ ذكر الحوادث والتدقيق فيها ، وذكر السنين والأشهر ، والبحث في الحوادث العامة والربط بينها ، وفيه من السيرة الحوادث الخاصة وتفصيلها ، مع براعة التعبير عن العواطف النفسية ودقة الوصف ، وفيه من الأدب النقد اللاذع والسخرية ، والبحث في الإصلاح والإجتماع .

ابن الأثير

(1163 م ــ 1239 م)

اسمه ضياء الدين ، من قبيلة شيبان ، ولد سنة 1163 م . قرب الموصل ، ودرس فيها ونبغ ، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي في دمشق ، وحظي عنده ، ولما توفي صلاح الدين أصبح ابن الأثير وزيراً لأبنه الملك الأفضل .

وحدث نزاع على الملك بين الملك الأفضل صاحب دمشق وأخيه العزيز صاحب مصر ، وانتصر العزيز واستولى على دمشق ، فأعطى أخاه حصن صلخد في جبل الدروز ، والتحق ابن الأثير بالملك الأفضل في جبل الدروز بعدما خرج من دمشق مختبئاً في صندوق خوفاً من الشعب الذي أراد قتله لاستبداده وسوء سيرته .

ومات العزيز صاحب مصر ، وخلفه ابنه وعمره ثماني سنوات ، فاستدعي الملك الأفضل ليكون وصياً عليه ، فجاء إلى مصر وجاء معه ابن الأثير ، ونشبت الحرب بين الملك الأفضل وعمه صاحب دمشق . وانتصر العم فأخرج ابن أخيه من مصر وخرج معه ابن الأثير متخفياً لأن المصريين كانوا يريدون قتله لما أصابهم من كبريائه واستبداده .

واشتهر ابن الأثير بالكبرياء والعجب إلى حد الغرور ، وعرف بالإستبداد إلى حد ارهاق الناس واحتقارهم ، ولذلك لم يحكم مرة حتى تألب الناس على كرهه ، وأجمعوا على التخلص منه ، فإذا سنحت الفرصة هموا به فينجو متخفياً .

المثل السائر

علام تقوم منزلة ابن الأثير ، وماذا تعرف عن المثل السائر ؟

كتاب المثل السائر كتاب معان وبيان وبديع ، وكتاب نقد أدبي ، وكتب النقد في الأدب العربي قليلة ، وأكثر النقد عندهم مقالات متفرقة لا جامع بينها ولا أصول منظمة لها .

ويتألف كتاب المثل السائر من مقدمة ومقالتين ، وتبحث المقدمة في أصول علم البيان من حقيقة ومجاز ، وفصاحة وبلاغة ، مع بيان أركان الكتابة والسبل التي يسلكها الطلاب إلى تعلمها .

وتبحث المقالة الأولى في الصناعة اللفظية ، وهي قسمان ، القسم الأول في اللفظة المفردة ، والقسم الثاني في الألفاظ المركبة ، ومن أبحاثها السجع والتجنيس والترصيع واختلاف صيغ الألفاظ وإتقانها والمنافرة بين الألفاظ في السبك .

وتتناول المقالة الثانية الصناعة المعنوية ، ومن أبوابها الإستعارة والتشبيه ، والتجريد والتضمين ، والإشتقاق والسرقات الشعرية .

وإذا كان المثل السائر كتاب بلاغة وبيان ، فهو أيضاً كتاب أدب ونقد ، لأن المؤلف يستشهد على قواعده بالآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والشعر المنتقى ، والنثر المختار ، ويضع ما ينتقيه ويختاره تحت مبضع النقد ، فيفضل شعراً على شعر ، ويقدم نثراً على نثر ، ولا يكتفي بالتفضيل والترجيح ، بل يضع لهما قواعد بيانية ، وأصولاً فنية ، وكثيراً ما يوفق في قواعد نقده .

ورأي ابن الأثير في النقد من أفضل الآراء ، قال : « إن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم » . ولكن الذوق السليم في رأي ابن الأثير لا يرقى إلا بالتمرن ، ولا يسلم إلا بمطالعة الأدب ونقده ، قال : « فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما اخطأك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفاً ووضعه في يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلباً ، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال » .

وفي هذه القطعة رأي نقدي بليغ ، فالعلم غير المعرفة ، والمعرفة غير الفهم ، والفهم غير العمل ، وفيها دليل أيضاً على أن ابن الأثير من رجال الأدب والفن معا ، والأديب يقرب بالتشبيه ما يبعد على الأذهان فهمه ، أو يصعب قبوله .

وابن الأثير معجب بنفسه في حياته ، مستبد برأيه في سياسته ، ولذلك نراه معجباً بعلمه في مثله ، مستبداً برأيه في نقده ، ولكن المستبد الفخور قد يصيب أحياناً ، ويوفق أحياناً . حمل ابن الأثير على من سبقه من علماء الفصاحة والبلاغة ، وبين ما رأى من نقص في تحديداتهم ، قالوا في تعريف الفصاحة : « إنها الظهور والبيان » ، وفي تحديد البلاغة « انها الوصول والإنتهاء » . أما هو فيقول : « إن الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون الفاظه مفهومة ، وهي مفهومة لأنها مألوفة في الإستعمال . وإنما كانت مألوفة لأنها حسنة ، والحاكم

بين الحسن والقبيح السمع الحساس ، والذوق السليم . وقد غربلته الأسماع منذ القديم ، ولا تزال تغربل الألفاظ فيسقط منها القبيح ويبقى الحسن الفصيح » . والفرق بين تحديد ابن الأثير وتحديد علماء اللغة انه يجعل الفصاحة أساساً والإستعمال فرعاً ، واللفظ المألوف عنده نتيجة لا سبب .

أما البلاغة فتتعلق بالمركب كما تتعلق الفصاحة بالمفرد ، وعلم البلاغة غير علم النحو ، وكل عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت من اللغات يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ رائقة حسنة ، يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع ، خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة ، أما اللغة فلو رفع واضعها المفعول ونصب الفاعل لقلد في عمله هذا ، كما قلد في عمله الأول .

ويتناول ابن الأثير الكتاب والشعراء وعلماء اللغة بالنقد والتجريح ، وهو على الكتاب أشد وطأة منه على الشعراء ، أما علماء البلاغة فلم يعجبه أحد منهم ، أما الساجعون فلا يروق له من سجعهم غير القليل ، وهو يضع للسجع قواعد وشروطا ، منها أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها ، فإن كان المعنى سواء فذلك هو التطويل بعينه ، ومنها أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى ، ويحمل ابن الأثير على ابن العميد وابن عباد والحريري وغيرهم ، ثم يعمد إلى بيان فضله فيورد من كلامه أمثلة يريد أن يحذى حذوها ، ويأتي بسجعات تمت على رأيه شروط السجع فيها ، وإذا كان قد وفق فيما وضعه للسجع من أصول وشروط ، فهو لم يوفق في بلاغة الإنشاء وسلاسة الأسلوب . أما الشعر فقد وقفت منه على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطراً من العمر للمحفوظ منه والمسموع ، فالفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهي إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ، وإذا كان المراد من الشعر إبداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل اللطيف ، فعمدة الشعراء ثلاثة ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر . وأما أبو عبادة البحتري فإنه أحسن في سبك اللفظ

على المعنى ، وأراد ان يشعر فغنى . وأما أبو الطيب فقد حظي في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن أن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا » .

ويمضي ابن الأثير في استقصاء شعر حبيب وأبي الطيب وأبي عبادة ، فيقابل بين قصيدة المتنبي وقصيدة البحتري في وصف الأسد مقابلة ناقد أدبي ، فيرى أن معاني أبي الطيب أكثر عدداً وأسدى مقصدا ، وقد قصر البحتري قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فشبهه بالأسد مرة ، وفضله عليه مرة ، ولم يأت بشيء سوى ذلك ، أما المتنبي فقد تفنن في ذكر الأسد ، فوصف صورته وهيئته ومشيته ، وإذا كان البحتري أفضل من المتنبي في صوغ الألفاظ وطلاقة السبك ، فالمتنبي أفضل منه في الغوص على المعاني .

وإنشاء ابن الأثير في مثله غير إنشائه في رسائله ، فهو في الرسائل مهذب صانع يكثر من التنميق والتوشية ، ويغلب عليه البديع ومحسناته وأنواع التطبيق والتجنيس ، وهو يوفق حيناً فيجمل ، ولا يوفق حيناً فتظهر عليه آثار التكلف والاجتهاد ، أما في المثل السائر فإنشاؤه مرسل مطبوع ، يقل فيه السجع والتزيين ، ويظهر عليه الوضوح والسهولة ، فكأنه معلم يشرح درسه ، أو سياسي يوضح مبادئه ، أو نقادة يتوسع في بيان ضعف من ينتقده ، ذكر في المنافرة فيما يكون في اللفظة الواحدة زيادة الألف واللام في إسم الفاعل وإقامة الضمير فيه مقام المفعول ، كقول أبي تمام ؟

فلو عاينتهم والزائريهم لما مزت البعيد من الحميم

فقوله الزائري إسم فاعل ، وقوله هم الذي هو الضمير في موضع المفعول تقديره الزائري أرضهم أو دارهم ، أو الزائرين إياهم ، واستعمال هذا مع الألف واللام قبيح جداً .

ويقوى طبع ابن الأثير في إنشائه أحياناً فتقوى عبارته ويمتن سبكه تارة ، ويتحلى بالفن البياني وتقصر عبارته طوراً ، ويزينها تساوق وانسجام ، ويحليها جرس موسيقي جميل ، ولكن يؤثر الجدل فيه فتطول جملته أحياناً ، وتضعف عبارته ، ويتداخل بعضها في بعض حتى يخيل ان كتابه من وضع علماء الكلام لا أثر للفن الأدبي فيه .

وإنشاء ابن الأثير يمثل نفسه ، وإذا كان الإنشاء عصارة نفس المنشىء فابن الأثير في حياته مستبد مغرور ، وفي إنشائه معجب بنفسه فخور ، وإذا كان أسلوب الكاتب بضعة من فؤاده فأسلوب ابن الأثير يمثل نفسه المعجبة إلى درجة الغرور ، ولذلك لا يفتأ يتحدث عن نفسه وعلمه ويتغنى بمقدرته وسعة اطلاعه ، ويفتخر بابتداعه واختراعه ، وهو يعلو على من سبقه ويسبق من ألف قبله : « وقد هداني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الإجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعة . وإنما هي متبعة » . وقال : « وهذا شيء لم ينتبه عليه أحد غيري » . وقال : « لقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لي عن أسرارها ، واظفرتني بكنوز جواهرها ، إذ لم يظفر غيري إلا بأحجارها » .

وابن الأثير من خيرة الكتاب ، ولكننا لا نستطيع أن نعده من كتاب الطبقة الأولى ، وهو من أشهر المؤلفين في علم البلاغة والبيان ، ومن أبرز نقاد الأدب وأقواهم ، غير أن القوة فيه تنقلب إعجاباً وكبرياء ، والجرأة تتحول غروراً وانتقاداً جارحاً ، ولكن ربما كان الغرور خيراً من الجبن والتردد ، والنقد الجارح أفضل من المصانعة والرياء ، ونافد جريء هدام ، ولو كثر خطأه ، وسمج غروره ، وقبح أدعاؤه ، خير من مصانع ولو بان صوابه ، وبدا تواضعه ولطفه ، فقد يجيء بعد الهدام الثائر من يبني الصواب على خطئه ، ويعالج بالإتضاع غروره ، أما الجبان فلا يكون داعية للإصلاح ، ولا ينتج المصانع غير الكذب والرياء ، وما يزال الأدب عندنا في حاجة إلى نقد يتحلى بالجرأة والإقدام ، فيحطم الأصنام المرفوعة ، ويمزق الطبول الفارغة المنفوخة .

الشيخ ابراهيم اليازجي
(1847 م ـ 1906 م)

ولد في بيروت سنة 1847 ، ودرس اللغة على أبيه الشيخ ناصيف اليازجي ، وأطلع على الأدب العربي القديم ففصحت لغته ومتن أسلوبه ونظم الشعر في شبابه ثم انصرف عنه إلى النثر فكان من أكبر كتاب النهضة الحديثة

وكلفه الأباء اليسوعيون تصحيح ترجمة الكتاب المقدس فاشتغل به نحو تسع سنين ولذلك كان كتاب اليسوعيين أرقى الكتب من نوعه من حيث الإنشاء العربي على الرغم من أنهم لم يطلقوا يده في تصحيحه كما يريد ولا سيما العهد الجديد .

واشتغل بالصحافة ، وأنشأ في بيروت مجلة علمية أدبية سماها الطبيب ولكنها لم تعش إلا سنة واحدة .

وكان الأتراك يضطهدون الأحرار في بلاد الشام ، فحمل الشيخ عليهم وعلى التعصب الديني ، وسنة 1893 ذهب إلى مصر وكتب في صحفها وبرع في النقد وفي سنة 1897 أنشأ مجلة البيان بالإشتراك مع أحد أصدقائه ، وبعد سنة واحدة انفصل عن صديقه وأنشأ مجلة الضياء ، وظل يودعها عصارة علمه حتى مات سنة 1906 وفي سنة 1912 نقل رفاته إلى بيروت ودفن فيها ، وأقيم له تمثال قرب قصر العدل(1)

لم يترك الشيخ إبراهيم اليازجي من الآثار ما يوازي شهرته ، فكيف استحق هذه المرتبة العالية بين الكتاب والنقاد ؟

للشيخ ابراهيم اليازجي في اللغة العربية أثر قوي قد لا يجاريه فيه كاتب

(1) نقل قصر العدل والتمثال معاً من مكانيهما السابقين

آخر ، وإذا لم يترك في اللغة آثاراً توازي شهرته فلأنه كان معلماً للكتاب ، وهادياً للأدباء ، ونبراساً للباحثين والنقاد ، أكثر منه كاتباً مكثراً ، ولأنه كان حجة في اللغة قل من جرؤ على تخطيئه .

وقد أدرك الشيخ الكتابة وهي تختلج في وهدتين فانتشلها من الوهدة الأولى وحث الكتاب على النهوض من الوهدة الثانية ، وكان الكاتب قبله واحدا من أثنين ، كاتب همه السجع والإشتغال باللفظ منصرفاً عن البلاغة وأسبابها ، يعمد إلى الثوب يطرزه ويوشيه دون أن يعتني بالروح يغذيها أو يفكر بالفكر فيرقيه ، ولم يكن في الكتابة العربية الفصيحة ما يرقى بالفكر والذوق ويزيد في المعارف والعلوم ، حتى انصرف المثقفون إلى اللغات الأجنبية ينهلون منها علومهم وتوجهوا نحو الآداب الغربية يستمدون منها الفن الجميل والخيال المبدع الراقي .

أما الكاتب الثاني فقد كان ضعيفاً أسلوبه ، ركيكاً انشاؤه ، معقداً تركيبه ، يترجم وكأنه لم يترجم ، ويشحن لغته بالأغلاط حتى دعا بعضهم إلى ترك اللغة الفصيحة ، والكتابة باللهجات العامية ، ولا يزال لمثل هؤلاء الداعين اتباع وأنصار .

وجاء الشيخ فبعث في السجع روح الفكر ، ونفخ في اللفظ نسمة المعنى ، وكتب في الرياضيات والعلوم والفلك فبرهن أن اللغة العربية الفصيحة تتسع للمعاني العميقة ، وتسلس قيادها للعلم والتفكير .

أما الركاكة والخطأ فقد جرد عليهما سيف البلاغة والنقد ، ونهل من الأدب العربي القديم فحسن إنشاؤه ، وجاد أسلوبه ثم أخذ يراجع مقالاته قبل أن ينشرها ، ويدقق في جملها ومفرداتها فيغير ويبدل ، ويصحح ويهذب ، ويرجح ويفاضل ، ثم يعود إلى الكتاب والشعراء لا فرق عنده بين قدماء ومحدثين ، فيبين أغلاطهم ، وينشر في الصحف خطيئاتهم ، متكئاً على منطق لغوي قويم ، ومستنداً إلى برهان أدبي سليم ، لا يصانع في ذلك كبيراً ، ولا يداري مشهوراً ، فكثر

خصومه ، وكثر المعجبون به ونسجوا على منواله ، وكان الحسد والفضيلة من أسباب شهرته ونقده ، والدفاع عنه من سبل نشر معارفه ، قال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

ثم كان النقد ، والخوف من النقد ، من أكبر العوامل في جده ، وأقوى الأسباب في تدقيقه ، وأعجب الكتاب ببلاغته وقوة إنشائه ، فنسجوا على منواله ، وأعجبهم تصحيح أغلاط الكتاب فساروا على طريقه . ولذلك طارت له بين الكتاب والقراء شهرة لم ينلها كاتب آخر .

ومن الأشياء التي كان لها الأثر القوي في شهرة الشيخ إبراهيم اليازجي وضعه الألفاظ الجديدة للأشياء الحديثة التي لا عهد للعرب بها ، وكثيرون هم الذين اشتغلوا بوضع الألفاظ الجديدة متأثرين بالشيخ ، ثم أخذت المجامع العلمية العربية على عاتقها وضع المفردات الحديثة ، أو غربلتها . ولكنها لم تسلم من الخطأ والنقد ، فكأن الشيخ إبراهيم اليازجي كان وحده مجمعاً علمياً كاملاً ، واللغة العربية في أشد الحاجة إلى وضع الألفاظ للأشياء الحديثة ، وأكبر علماء اللغة يعجز عن تسمية الثياب التي يلبسها ، ولذلك اشتهر الشيخ إبراهيم اليازجي وذاع اسمه بين علماء اللغة وكتابها .

وإذا كانت الكتابة اليوم تسير في طريقها القويم بعيدة عن السجع الذي يكاد يكون فارغاً من المعنى ، ومبتعدة عن الركاكة في الأسلوب والغلط في اللفظ ، فإن للشيخ إبراهيم اليازجي فضلاً كبيراً في هذا الرقي .

ولم يبلغ الشيخ إبراهيم في أبحاثه العلمية الدكتور يعقوب صروف مثلاً ، أو شبلي الشميل ، أو غيرهما من كبار المفكرين في النهضة الحديثة ، ولكنه يفوق الأدباء في تفكيره ، ويسبق العلماء في قوة إنشائه ومتانة أسلوبه، وبعده عن الضعيف والساقط ، وإذا كانت نهضتنا الأدبية والعلمية والفكرية في حاجة إلى أشياء كثيرة فهي أحوج ما تكون إلى كتاب كالجاحظ واليازجي وصروف ، يمزجون بين العلم والأدب

فيزينون عمق التفكير بجمال الأسلوب ، ويحلون جفاف العلم بعذوبة الفن ، أما كتبنا العلمية فما يزال أسلوبها جافاً قاسياً حتى لا يطلع عليها غير المتخصصين من العلماء ، والمضطرين إليها من الطلاب ، وأما كتبنا الأدبية فما يزال الفكر فيها رقراقاً ، والعقل ضعيفاً ، وقد خابت رسالة المقتطف بعد موت الدكتور يعقوب صروف ، لأن أبحاثها العلمية أصبحت جافة صعبة ، لا يفهمها غير العلماء ، وهؤلاء يرجعون إليها في أصولها ، وما تزال كتب العلم الأجنبية أسهل علينا نحن أبناء اللغة العربية من الكتب المطبوعة في لغتنا .

ومن أسباب شهرته جرأته في نقد الكتاب والشعراء ، لا يصانع صنما كبيرا ، ولا يخاف طبلا فارغاً مشهوراً ، وكان يرمي صائباً في نقده ، ويستند إلى البرهان العقلي في تجريحه ، ويعتمد على الحجة اللغوية ، والأصول الأدبية في تخطئته ، انتقد الحرث بن حلزه في قوله :

اجمعوا أمرهم عشاء فلما　　أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

والهمزة في ضوضاء أصلية ، أو مقلوبة عن ياء فضوضاء مذكر لا مؤنث ، وانتقد عنترة في قوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر　　في الحرب دائرة على ابني ضمضم

قال : « ولو استعملنا المصدر لم نقل خشيت بالموت » . وانتقد ابن حجة الحموي في قوله :

منعمة لفاء مهضومة الحشا　　تكاد بأن تنقد من رقة الخصر

وفي هذا البيت خطأ وضعف ، فزيادة الباء في خبر كاد خطأ ، وإدخال ان على الخبر ضعيف .

أما كتاب عصره فقد كان سيفاً مصلتاً فوق رؤوسهم ، تكثر خطيئاتهم فيشتد نقده ويؤلم ، وكثيراً ما كان يعمد إلى السخرية والتهكم والنادرة في انتقاداته ، قال : « يقولون زف فلان على فلانة هكذا معدى بالحرف ، فيعكسون الإستعمال

ـ ويخطئون ـ لأنه يقال : زف العروس إلى بعلها . أي أهداها إليه ، ولا يقال زف الرجل إلى المرأة إلا أن يكون هذا من مقتضيات هذا العصر الذي استنوقت جماله ، وأصبح ونساؤه رجاله ، حتى رأينا الرجل يأخذ المهر ، ورأينا المرأة تتطاول إلى النهي والأمر . »

ولم يقتصر نقد الشيخ على المفرد ، بل كان له في المركب نقدات صائبة ، وآراء أدبية سديدة ، ومما زاد في شهرته أنه كان يتبع أصول نقده في إنشائه ، فكان يختار الكلام المستعمل ، ويبتعد عن الوحشي والغريب ، على الرغم من سعة اطلاعه ، وكان يساوي بين العبارات ويزاوج بين الألفاظ ، فلا يجمع بين الألفاظ المتنافرة ، أو الجمل المتباينة وهنالك الفاظ جميلة قد ينقلب جمالها قبحاً إذا وقعت مع الفاظ لا تقاربها ، وهنالك عبارات حلوة إذا كانت بين أخواتها ، وقبيحة مشوهة إذا وقعت بين ما ينافرها .

وكان الشيخ يهذب لفظه ، وينقح عباراته ، ويعمد إلى الصحيح في إنشائه الأدبي ، ولكنه كان يسترسل مع الطبع ، ويسهل في إنشائه العلمي والإجتماعي ، لأن « النثر هو القالب الطبيعي للكلام الموضوع للإبانة عن المعاني التي تتمثل في النفس ، يتخاطب به العالم والجاهل ، والذكي والبليد ، والكاتب والأمي ، فوجب أن يكون بحيث تتفاهمه هذه الطبقات كلها . ويعبر به عن المقاصد بأبين الصور وأوضحها ، وذلك يقضي بأن يستعمل لكل معنى اللفظ الموضوع له ، بحيث ينتقل من اللفظ إلى المعنى من غير واسطة » .

أما الإنشاء الأدبي والوصفي فهو عند الشيخ إبراهيم اليازجي من ضروب الشعر ، والشعر يختص بمخاطبة البلغاء وطبقات الكتاب والمتأدبين ولذلك « تبرز فيه المعاني تحت ثوب من المجاز أو الكناية ونحوهما ، وينحي فيه منحى البلاغة في المعنى ، والتأنق في الألفاظ والأساليب ، بحيث تتألف منه صور كاملة على حد ما يفعل المصور في تصوير الأشباح والمغني في تأليف النغم » .

والخلاصة أن من أكبر أسباب شهرة الشيخ إبراهيم اليازجي صحة لغته ، وجمال إنشائه ، وتصحيحه لغلطات الكتاب ، ووضعه الألفاظ للأشياء الجديدة ، وتوفيقه فى النقد الأدبي .

سليمان البستاني

(1856 م ـ 1925 م)

ولد في الشوف من أعمال لبنان سنة 1856 ، ودرس العربية والإنكليزية والفرنسية ، واشتغل بالتعليم ، وكتب في الجنة والجنان ، وطارت له شهرة قبل أن يبلغ العشرين ، فدعي إلى البصرة وعين مفتشاً في إحدى مدارسها ، ثم انتقل إلى بغداد ، وأقام في العراق ثماني سنوات ، ثم عاد إلى بيروت ، وسافر إلى الآستانة ومصر والهند وإيران ، ثم عاد إلى بغداد وأقام فيها نحو سبع سنوات ، وفي سنة 1868 ذهب إلى مصر .

وانصرف إلى درس اليونانية فأتقنها ، وترجم الألياذة إلى العربية شعراً ، والألياذة أكبر أثر أدبي في العالم .

وعندما أعلن الدستور العثماني سنة 1908 عاد سليمان البستاني إلى بلاده فانتخب نائباً عن بيروت ، ثم عين عضواً في مجلس الأعيان فوزيراً للتجارة والزراعة سنة 1913 ، وعندما دخلت الدولة العثمانية في الحرب سنة 1915 استقال البستاني وذهب إلى سويسرا ، وأقام فيها خمس سنوات ، وعندما انتهت الحرب رجع إلى مصر ، وأقام فيها ست سنوات ، ثم ذهب إلى الولايات المتحدة ليتداوى من مرض في عينيه ، ولكن الطب لم يشفه من مرضه ، فعمي ثم مات سنة 1925 ونقل جثمانه إلى مسقط رأسه .

وكان أبي النفس ، عميق التفكير ، قوي الملاحظة ، حاضر البديهة ، حديد الذكاء ، وله اطلاع واسع في التاريخ والجغرافية والإقتصاد والسياسة ، وكان له إلمام

بالطبيعيات والرياضيات ، وكان يحسن ـع لغات ، ويلم بأربع أخر ، وكثيراً ما خطب في مجلس النـواب العثماني ببضع لغات .

منزلة البستاني

تقوم منزلة البستاني في الادب العربي على ترجمة الألياذة وعلى مقدمتها ، ولم يقدم العرب على ترجمة الألياذة يوم كان الخليفة يدفع ثمن كل كتاب ثمين يترجم ثقله ذهباً ، ويوم كان للخلافة ديوان خاص بالترجمة ينال به المترجمون الوظائف الوافرة ، والهدايا الثمينة ، والضياع العامرة . أما سليمان البستاني فقد ترجم الألياذة وهو في ميدان الحياة الصاخب يجاهد ليرقى ، ويسعى لينال ، ويجد ليعيش ، وقد انفق في الترجمة والإستعداد لها وقتاً طويلاً قيل إنه بلغ سبع عشرة سنة ، كما انفق على طبعها مالاً كثيراً جمعه بعرق جبينه وشق قلمه ، وكان وحيداً في مسعـاه ، لا أمير يشد أزره ، ولا حكومة تشجعه ، ولا مغر يغريه غير ذكاء حاد ، وأدب سام طموح ، وشيطان نفاث يستبطن الأدباء فيمنعهم من الراحة والسكون .

وقد جهل العرب الألياذة لأسباب كثيرة ، ولم يترجموها لعوامل عديدة ، ففي الألياذة آلهة وآلهات ، والعرب المسلمون يكرهون تعداد الآلهة ، غـير أن ذلك لم يمنعهم من ترجمة الشاهنامة ، ثم أن الألياذة ملحمة أدبية يونانية ، والمترجمون عن اليونانية إلى العربية سريانيون فاتتهم أسرار البلاغة والأدب في اليونانية والعربية ، ولغة الأدب غير لغة العلم والفلسفة ، وإذا أنعمنا النظر في الكتـب المترجمة عن اليونانية رأينا بها ضعفاً في الأسلوب ، وتعقيداً في العبارة ، وركاكة في الإنشاء ، ومن المترجمين من كان يرى أن يتقيد المترجم بالأصل كلمة كلمة .

واستعـد البستانـي لعملـه استعـداداً كافياً ، وكان مضطلعـاً بالفـرنسية والإنكليزية والايطالية ، فقرأ الألياذة المترجمة إلى هذه اللغات وأعجب بها ، ورأى أن يترجمها عن اليونانية فدرسها دراسة خاصة بالألياذة ، ثم ترجمها إلى العربية ترجمة لا تقل في بلاغتها ومحافظتها على الأصل عن أكثر الترجمات .

والألياذة في اليونانية نحو سبعة عشر ألف بيت ترجمها البستاني في نحو أحد عشر ألف بيت ، والتزم المعنى الأصلي فيها التزاماً دقيقاً مع تجنب وحشي الكلام وحوشيه ، ولكنه لم يوفق في موسيقى الشعر توفيقه في محافظته على الأصل اليوناني .

وتكتسب الألياذة اسمها من اليون عاصمة طروادة على الدردنيل ، وكان بين طروادة واليونان صلة تجارة ونسب ، وعلاقة منافسة ومزاحمة وعداء ، وقد جرد اليونانيون حملة على طروادة ، فأحرقوا ونهبوا وخربوا حتى وصلوا إلى أليون فامتنعت عليهم ، وحاصروها عشر سنين وكادوا يرجعون خائبين لولا حيلة حربية هي في الألياذة حيلة الحصان الخشبي ، وفي الألياذة صور فنية ما تزال من أرقى ما أنتجه الخيال المبدع الراقي إلى اليوم ، وفيها كثير من الحقائق التاريخية والجغرافية ، وفيها وصف دقيق لعادات ذلك العصر ، وأخلاق أهله ومعتقداتهم وأدبهم وحياتهم ، وأعظم أبطال الملحمة هكطور زعيم طروادة وابن ملكها ، وأخيل بطل الأغريق ، وتعمل الآلهة في الألياذة عمل الأبطال ، ولكل فريق آلهة تساعده وتعينه على عدوه .

أما الألياذة العربية فتزيد على الألياذة اليونانية مقدمة نقدية بليغة هي أحسن ما كتب بين مقدمات الترجمات كلها ، حتى أوصى المجمع العلمي اليوناني بأن تترجم إلى اليونانية وتطبع مع الألياذة ، وتمتاز الألياذة العربية أيضاً بالشروح التي أفاض المترجم فيها ، وتبسط في الشرح والمقابلة بين الأغريق والعرب في الأدب والشعر والأخلاق ، فيبين ما اشترك فيه الشعبان وما اختلفا به من عادات وتقاليد وآداب وأفكار مما لم يفعله كاتب قبله ، فالعرب والأغريق كانا يتفقان مثلاً في جز النواصي حزناً على الميت ، وفي إقامة الولائم في المآتم ، وفي التفاؤل والتشاؤم والطيرة ، ويختلفان مثلاً فيما تقتضيه البيئة من بداوة وحضارة ، فالعرب سكان بادية ، والأغريق سكان مدن ، ولذلك شبه العرب المرأة بالمهاة ، وشبهها الأغريق بالبقر ، وكان العرب إذا دعوا على عدو طلبوا أن تأكل الكواسر لحمه ، أما اليونانيون فيطلبون أن تأكله الكلاب ، ولذلك أيضاً كان العرب أقرب إلى الكرم ، وأحرص على الضيافة .

وقابل البستاني بين المعاني الشعرية عند الشعبين فأجاد وأبدع ، وذكر نحو ألف بيت من الشعر الجاهلي والإسلامي وجد لها شبيهاً في الألياذة .

وربما كان نقل الألياذة إلى العربية أهم حدث أدبي في النهضة الحديثة ، وقد استفادت الآداب العربية من هذا النقل ملحمة خالدة مفضلة ، وعلماً في أساطير اليونان ما يزال أرقى العلوم من نوعه ، وأطلاعاً على تاريخ اليونانيين القدماء وتقاليدهم وطراز حياتهم ، ورفيع أدبهم ، وكانت ترجمة الألياذة حافزاً للشعراء على نظم الملاحم وإدخال هذا الفن في الأدب العربي .

ولا يقل مقام البستاني في مقدمة الألياذة عنه في الألياذة نفسها ، ومقدمة الألياذة أربعة فصول وخاتمة « وقد بحثت في الفصل الأول منها سيرة صاحب الألياذة ، وأشرت إلى منظوماته ومنزلته عند القدماء ورأي المتأخرين فيه ، وبحثت في الفصل الثاني في الألياذة وموضوعها وطرق تناقلها قبل الكتابة ثم في جمعها وكتابتها وسلامتها من التحريف ، وبسطت ما فيها من الفائدة للأدب والتاريخ ، وأوضحت ما كان من الأسباب الداعية في صدر الإسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم ، وبحثت في الفصل الثالث حكاية المترجم في وضع هذا الكتاب ، وذكرت مناهج العرب في نقل الكتب الأعجمية وساقني ذلك إلى النظر في الترجمة الشعرية . ثم إلى النظم على الإطلاق وأوزان الشعر وقوافيه ، ووضع كل منها في معانيه ، وقارنت في الفصل الرابع بين الألياذة والشعر العربي ، فوطأت لذلك بالشعر القديم وأصله وسبب طموسه ، ومناشدات سوق عكاظ . وشأن لغة قريش المضرية ، ولغة الألياذة اليونانية ، وأفردت باباً للملاحم مما يماثل الألياذة ، فأشرت إلى ضروب الشعر عند الإفرنج ، واستطردت من ذلك إلى إلقاء نظرة على الجاهليتين ، جاهلية العرب وجاهلية اليونان وعارضت في الخاتمة بين العربية واليونانية ، وبحثت في اتساع العربية وثروتها القديمة ، وكثرة مترادفاتها مع إيضاح فائدة ذلك وضرره ، وختمت بخلاصة موجزة فيما تراءى لي من الداء والدواء في النهضة الحديثة ومستقبل اللغة والشعر » .

وأسلوب البستاني في نثره أسلوب البحث العلمي الحديث ، تحرر فيه من قيود السجع ، وخفف من أنواع البديع والإستُعارات والتشابيه ، ولـم يبـال بالجـرس الموسيقي في الإنشاء ، وإذا ورد في كلامه شيء من ذلك فإنه يأتيه عفواً لما أثر فيه من الأدب العربي القديم ، ويميل أسلوبه أحياناً إلى أسلوب الأدب الجميل ، ولكنه في أكثره أقرب إلى الأسلوب العلمي الجدي الرصين ، وهو لا يبلغ مبلغ اليازجـي في متانته وجزالته وقوته ، ولا يهلهل هلهلة المنفلوطي ، أو ينـزل إلى سهولـة جبـران وضعفه ، ونراه كالخياط الماهر يفصل على قدر الأجسام ولكنه قل أن يزين الثوب أو يوشي البـرد ، وان اوجـز لـم يفسـد المعنـى واذا أطنب كان اطنابـه وسيلـة لشرح فكرة ، أو لغـرض آخـر يمـت إلى المعنـى والبلاغـة بصلـة ، فكأن إنشـاءه إنشاء المجلات العلمية والأدبية كالمقتطف والهـلال والـطبيب والجنـان ، وربمـا كان نثـر البستاني أفضل من شعره ، وربما كان نقـده خـيراً من نظمـه ، وربمـا كان تقيده بالأصل في ترجمة الألياذة سبباً في صعوبة شعر الألياذة ، وبعده عن جمال الموسيقى وعذوبة أنغامها ، قال :

ربـة الشعــر عن أخيل بن فيلا　　　أنشدينــا واروي احتدامــا وبيلا
ذاك كيــد عم الإخــاء بلاه　　　فكرام النفــوس ألفــت أفولا (1)
لأذيس أنفــذن منحدرات　　　وفـرى الطـير والـكلاب القيولا (2)
ثـم ما شاء زفس من يوم شبت　　　فتنــة بالشقــاق تنــذر أولى (3)

غير أن البستاني شاعر مجيد عندما تعمل فيه العاطفة الدفاقة ويثيره الشعور الفياض . وإذا قصر عن الألياذة في جزالة التصـوير الشامـل ، والـوصف الفنـي الرائع ، فهو في شعره الشخصي أقوى عاطفة ، وأقرب إلى التصوير النفسي فناً ، وأميل إلى الجودة شعوراً وطبعاً ، قال في وصف دائه :

---

(1) الأخاء : بلاد اليونان .
(2) أذيس : الجحيم .
(3) زفس : كبير الالهة عند اليونانيين .

ألـم تسـأم وعيشـك بات مرا   توسـد من لظـى الآلام هجرا
إذا انقشـع الظـلام رصـدت ليلا   وإن هجـم الدجـى راقبـت فجرا
تلـوح لك الوجـوه البيض سودا   ووجـه الصبـح يبـدو مكفهرا
إذا عالجـت عضـواً هجـت عضوا   وإن داويت رأسـاً هضـت صدرا
فمـن وخـز يحـز العظـم هصرا   ومـن نخـز يشـز اللحـم عصرا

وفي هذه الأبيات جزالة في اللفظ ، ومتانة في التركيب ، وجمال فني في الوصف ، وفيها شعوررقيق ، وعاطفة طبيعية صادقة ، ولا فرق عند المريض المتألم بين الظلام والنور ، فهو في الليل يرنو إلى الصباح علّ فيه ما يسليه ويخفف آلامه ، فإذا أدركه النهار حن إلى الليل لعله ينام فيه فيرتاح من آلامه .

مقدمة الألياذة

لترجمة الألياذة من حيث الفن الشعري ، وروعة الوصف البديع الرائع ، والإطلاع على أجمل آثار العالم الأدبية ، أثر كبير نافع في شعراء النهضة وآدابها ، وللمقدمة من حيث النقد المنطقي المحكم ، والتفكير العميق الدقيق ، والأسلوب الواضح الرشيق ، أثر بالغ مفيد في كتاب النهضة ونقادها ، وكان للترجمة والمقدمة أثر كبير في رقي الشعر والنثر والنقد في النهضة الحديثة .

رأى أدباء النهضة في الألياذة ملحمة شعرية راقية ، وراقتهم شهرتها العالمية ، فجرب الكثيرون حظهم في النسج على منوالها ، وأعملوا قرائحهم ومخيلاتهم في السير على غرارها ، ونشأ في النهضة ملاحم ما كنا لنراها لولا ترجمة الألياذة .

ورأى الشعراء في الملاحم فناً جديداً لم يحسنه العرب من قبل ، فنظموا الملاحم رغبة في التجديد ، وحباً بالفن والشهرة معاً ، ولكل جديد طلاوة ، ولا يضعف من قيمة ملاحم أدبائنا أنها دون الألياذة فناً وجمالاً وخيالاً ، وأن في أكثرها

ضعفاً وخطيئات ، فالأصل في الدروب شقها ، وقد شقت الألياذة للأدباء طريق الملاحم ، ومهدت لهم سبيل التفنن في هذا الفن الجديد .

وأفاد الأدباء من الألياذة أدباً سامياً راقياً ، وصورا فنية رائعة ، وأوصافا رفيعة جميلة ، فتأثروا بها في ملاحمهم وأشعارهم معا ، واقتبسوا من معين خيالها المبدع معيناً لأخيلتهم ، ووجدوا فيها بواعث حية رائعة لقرائحهم .

واستفاد الأدباء والمتأدبون من الألياذة أطلاعاً واسعاً على قسم كبير من تاريخ الأغريق وعاداتهم ، وتقاليدهم وطراز حياتهم ، فقد كان اليونانيون أهل فلاحة وصناعة وعلم ، وكان لهم تجارة واسعة ، وفلسفة راقية ، وآداب رفيعة ، وكانوا على براعة في صناعة الحرب وتعبئة الجيوش ، وهندسة فنية في بناء السفن وتشييد الحصون ، وكان لهم شرائع راقية ، ومجالس للأحكام منظمة ، ونظام اجتماعي راق .

وتأثر الشعراء بالبستاني في قواعده الجديدة التي ابتدعها في نظم القصائد من تخاميس وأراجيز وموشحات ، ومن مثنى يبني القصيدة فيه على قافية يرجع إليها في كل بيتين مرة ، ومربع يرجع فيه إلى القافية في كل أربعة أبيات مرة ، وعلى طرازهما المسدس والمثمن ، ومن مستطرد يبني القصيدة فيه على قافيتين أو أكثر ، ويغير القافية كلما استطرد إلى موضوع جديد ، ثم يرجع إلى القافية الأولى عندما يعود إلى الموضوع الذي ابتدأ به قصيدته ، ومنها التصريع في المتقارب والرجز وغيرهما من البحور .

وتأثر شعراؤنا بالبستاني ومشوا على الدرب التي شقتها لهم الألياذة في التجديد ، فتطرفوا ونظموا الشعر المنثور ، ومن النقاد من يرى في هذا الشعر تجديداً جميلاً ، ومنهم من يراه ضعيفاً واهياً لأنه يفقد ركناً مهما من الأركان الثلاثة التي يقوم عليها بناء الشعر وهو الموسيقى ، والشعر فن جميل يقوم على أركان ثلاثة هي التصوير

والموسيقى والتفكير ، فإذا ضعف منها ركن تداعى بناء الشعر ، وتهدم صرحه الفني .

وليست الألياذة العربية ترجمة ومقدمة فقط ، ولكن فيها شرحاً واسعاً متبسطاً ، ذكر فيه البستاني أحوال العرب في الجاهلية والإسلام ، وبين ما اشترك العرب والأغريق فيه وما اختلفا به من عادات وتقاليد وأفكار وآداب مما لا يستغني عنه الأديب والمؤرخ والمتأدب والمثقف ، فالعرب والأغريق يتفقان مثلاً في جز النواصي حزناً على الميت ، وفي إقامة الولائم في المآتم ، وفي التفاؤل والتشاؤم والطيرة ، ويختلفان فيما تقتضيه البيئة من بداوة عربية ، وحضارة أغريقية ، ولذلك شبه العرب عين المرأة بعين المهاة ، وشبهها الأغريق بعين البقرة ، وكان العرب إذا دعوا على عدو طلبوا أن تأكل الكواسر لحمه ، أما اليونانيون فيطلبون أن تأكله الكلاب ، ولا شك في أن علم الأدب يظل ناقصاً إذا اكتفى بالإطلاع على آداب قومه فقط .

ويقابل البستاني في شرحه بين شعر العرب وشعر الأغريق ، فيرفع من مقام الشعر العربي وكأنه يرد على القائلين بضعف خيال السامي ، وقد وجد البستاني نحو ألف بيت من الشعر القديم لها شبيه في الألياذة اليونانية ، قال أخيل :

وليس من شاغل ذا اليوم يشغلني   إلا إدخار عُلى تسمو به الأمم

وقال عنترة :

دعني أجد إلى العلياء في الطلب   وأبلغ الغاية القصوى من الرتب

أما المقدمة ففيها لأدباء العرب فوائد ، ولنقادهم منافع ، وقد شبهها أحد النقاد بمقدمة ابن خلدون لما فيها من علم وبحث ونقد ، ورأى فيها الغرب منافع له وفوائد ، حتى أوصى المجمع العلمي اليوناني بأن تترجم إلى اليونانية وتطبع مع الألياذة ، ورأى بعضهم أنها أفضل مقدمات الألياذة في جميع اللغات .

أما المقدمة ففيها أسس النقد العلمي الصحيح ، وهي تفتح للنقاد دروباً جديدة واسعة للسير في الأبحاث الأدبية العلمية ، والنقد الأدبي المحكم ، وقد ذكر البستاني في الفصل الأول من المقدمة سيرة صاحب الألياذة ، وأشار إلى منظوماته ومنزلته عند القدماء ، وبين رأي المتأخرين فيه من مثبت وشاك وناكر مما يفتح للباحثين مجال النقد والتجريح ، وبيان الراجح من المرجوح ، والفاسد من الصحيح ، وقد أنكر ولف الألماني وجود هوميروس ، ورأى أنه شخص خيالي اخترعته مخيلة شاعر ، وأن الألياذة نظم عدة شعراء ضاعت أسماؤهم ، ورد البستاني على ذلك بأن أشخاص الألياذة لا تتغير صفاتهم في الألياذة كلها ، وأن وصف الأماكن لا يتبدل بين نشيد ونشيد ، وأن الخيال والأسلوب والتفكير لا تختلف في النشيد الأول عنها في النشيد الأخير ، وأن بين أجزائها إرتباط حكيم ، ووحدة تامة ، مما يثبت أنها لشاعر واحد ، ومثل هذا النقد المحكم الصحيح جديد في الأدب العربي .

ويعلل البستاني في الفصل الثاني خلو الشعر العربي من الملاحم فيقول: « لم يتخط العرب في شعرهم إلى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد ، وكان التسليم للأحكام العلوية من سننهم قبل الإسلام ، فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرع البحث الواحد إلى أبحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية . . . وكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حي إلى حي ، يجيدون في كل ما يقولون ، ولكنهم لا يطيلون المقام فلا يشيدون المنازل الفسيحة الأركان » . وإذا لم يصل البستاني في نقده إلى العلة الأولى من تأثير الأقليم والصحراء والحر فقد فتح للنقاد سبيلاً مستقيماً ، وللمؤرخين مجالاً واسعاً رحيباً .

ويذكر البستاني في هذا الفصل ما في الألياذة من الفائدة للأدب والتاريخ مما لا يستغني عن الإنتفاع به أديب ، ويوضح ما كان من الأسباب الداعية في صدر الإسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم ، ومنها أن في الألياذة آلهة وآلهات وأن المسلمين يكرهون تعدد الآلهة ، وفي هذا الرأي نظر لأن العرب ترجموا الشاهنامة .

ومنها أن المترجمين عن اليونانية كانوا من السريان ، فلم يبلغوا من الإطلاع على أسرار البلاغة في اليونانية والعربية ما يؤهلهم لترجمة الألياذة ، وربما كان هذا الرأي أفضل الاراء ، لأن الكتب المترجمة عن اليونانية ضعيف إنشاؤها ، ركيك أسلوبها ، فلا تصلح للأدب والشعر ولا سيما الألياذة .

وللبستاني في بيان العلاقة بين بحور الشعر ومعانيه وفنونه نقد رائع لم يوفق إليه أحد قبله ، مع كثرة من بحث في القوافي والعروض والشعر من أدباء العرب ، ومن رأي البستاني أن البحر الطويل يستوعب ما لا يستوعبه غيره من المعاني ، ويتسع للفخر والحماسة وسرد الحوادث وتدوين الأخبار ، ويقترب البسيط من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ، ولكنه يفوقه رقة وجزالة ، أما الكامل فأتم البحور ولكنه أجود في الخبر منه في الإنشاء ، وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة ، وأما الوافر فألين البحور ، يشتد إذا شددته ، ويرق إذا رققته ، وأما الرمل فبحر الرقة ، يجود نظمه في الأحزان والأفراح والزهريات والموشحات ، ولا شك في أن لهذا النقد الرائع البارع فائدة كبيرة للشعراء .

ويختم البستاني مقدمته بخلاصة موجزة فيما تراءى له من الداء والدواء في ماضي اللغة العربية وحاضرها ومستقبلها ، والأسباب التي تؤدي إلى رقي الأدب والفن والشعر مما يهتم له كل غيور على مستقبل الأمة ولغتها وأدبها ، ومما يفيد الناقدين والباحثين ، وينفع الأدباء والشعراء ، ويسهل اللغة والأدب على طلابهما .

والخلاصة أن الأدب العربي أفاد من المقدمة ما أفاد من الألياذة ، أما الملحمة ففوائدها للأدباء والشعراء ، ومن يلذ لهم الفن الشعري الرفيع ، وأما المقدمة فمنافعها للكتاب والنقاد والمؤرخين وطلاب الأدب .

الشعر الملحمي

الملاحم [1]

كان العرب أصحاب حروب وغزوات ، وكان لهم أيام كثيرة ، ومواقع عديدة مشهورة ، ولكنهم قصروا في نظم الملاحم لأسباب تتعلق بأقليم بلادهم ، وطراز معيشتهم وحياتهم ، ولأن خيالهم انصرف إلى ميدان الشعر النفسي فعوضوا به عن الملاحم . قال سليمان البستاني في مقدمة الألياذة : « إن العرب لم يتخطوا في شعرهم إلى ما وراء الطبيعة ، وكانوا مع عبادة الأصنام يميلون إلى التوحيد ، وكان التسليم للأحكام العلوية من سننهم قبل الإسلام ، فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية إلى النظر في أحوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرع البحث الواحد إلى أبحاث متعددة على ما هو شأن الأمم الآرية . . . ثم أن اليونانيين كانوا أيام هوميروس ، أي في زمن نظم الألياذة ، قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه إلا النزر اليسير ، فلم يسع أبناء الجاهلية أن يتجاوزوا بنظمهم أحوال فطرتهم وطرق معاشهم ، فكانوا ينتقلون بالشعر من باب إلى آخر انتقالهم من حي إلى حي ، يجيدون في كل ما يقولون ، ولكنهم لا يطيلون المقام » .

وإذا كان الشعراء في الجاهلية قد وصفوا المعارك والأيام فأجادوا الوصف ، وصوروا الجيوش الزاحفة إلى القتال وأحسنوا التصوير ، فإنهم لم يعينوا الأماكن

(1) راجع النابغة ـ ويقصد المؤلف كتابه عن النابغة اللبياني المتضمن إلى دكر ذلك دراسة موسعة في النقد المعاصر وسيصدر من ضمن « الاثار الكاملة » (الناشر) .

تعييناً دقيقاً تستلزمه الملاحم ، ولم يتبسطوا في سرد القصص الحربي والملحمة قصة حربية قبل أن تكون وصفاً للمعارك والحروب ، ولم يكن وصف الحرب وتعداد المواقع عند العرب غاية ، بل كان سبيلاً للمفاخرة والمباهاة ، ولو كان شعرهم قصصياً لوجدوا من الجن والغول والعفاريت ما يستعيضون به عن الآلهة .

وكان الإسلام . فهزىء الناس بالأساطير والخرافات ، والتزم الشعراء الدقة في وصف الجيوش ، وعمدوا إلى الإقتراب من الحقيقة في ذكر الوقائع والحروب ، وترجم العرب كتب العلم والمنطق والحكمة في الاعصر العباسية ، فغلب العقل على شعرهم ، وجرى خيالهم في ميدان الشعر النفسي يعبرون به عن خلجات أفكارهم ، فلما كانت عصور الإنحطاط نظموا في الأساطير والخرافات ، وأنشأوا القصص الحربية كسيرة عنترة ، وقصة الزير وتغريبة بني هلال وغيرها ، وكان من الطبيعي أن يظهر عليها الضعف والإنحطاط . ولما كانت النهضة الحديثة وترجم سليمان البستاني ملحمة هوميروس ، أخذ الشعراء يقلدونها ، ولكن التقليد غير الإبتداع .

عمرو بن كلثوم (توفي حوالى 584 م)

شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ، وكان زعيم تغلب . قيل : « لو أبطأ الإسلام لأكلت تغلب الناس » . وقيل إنه ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، فنشأ على العزة والفخر لا يرهب عدواً . ولا يخاف قوياً . قيل إنه قتل عمرو بن هند ملك الحيرة في قصره عندما أرادت أم الملك أن تذل أم عمرو الشاعر .

وكانت حرب البسوس بين تغلب وبكر ، ودامت على ما يروى نحو أربعين سنة حتى أصلح المنذر الثالث بينهما ، وأخذ من كل قبيلة منهما مائة شاب أو سبعين شاباً من أشرافهم ووضعهم في حاشيته كرهائن على ألا تعتدي إحدى القبيلتين على ابنة عمها ، فلما كانت ولاية عمرو بن هند هلكت رهائن تغلب فهاجت القبيلة وأتهمت رهائن بكر بالعمل على هلاكهم وطلبت من بكر دياتهم .

وتحاكمت القبيلتان أمام عمرو بن هند . وكان المدافع عن تغلب عمرو بن كلثوم . والمدافع عن بكر الحرث بن حلزة . فأنشد عمرو معلقته مفتخراً لم يرع هيبة الملك ، ولم يخف صولته ، وأنشد الحرث معلقته فهاجم تغلب وافتخر عليها ، ومدح عمرو بن هند واستماله ، فمال الملك إلى بكر بعدما كان ميله نحو تغلب .

وفي معلقة عمرو بن كلثوم بعض الفوائد التاريخية والإجتماعية ، فقد كان بعض نساء العرب يطوف حول الصنم ويرقص رقصاً وثنيا معروفاً ، كما كانت النساء يتبعن الرجال في الحرب ويحرضن الأبطال على القتال ، ويحتقرونهم إذا هربوا :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا فوارس معلمينا (1)
ليستلبن أبدانا وبيضا وأسرى في الحديد مقرنينا (2)
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا (3)

ونعرف من معلقة عمرو بن كلثوم أن العرب في الجاهلية كانوا يصبغون الثياب بالأرجوان ويمهرون في صنع الأسلحة فيقومون الرماح ، وكانوا يصوغون الذهب والفضة ويصنعون منها القروط والحلى ، وكان صغارهم يتمرنون على القتال بسيوف من خشب ، ويلعبون بالخشب والكرة إلخ . .

كان سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبينا (4)

وفي معلقة عمرو بن كلثوم نفس أبية لا تنام على الذل ، وثورة فتية لا تقبل ظلماً ولا تسكت على استبداد ، ولذلك لن يموت عمرو ما زال في الدنيا نفوس أبية

---

(1) لهم علامات فارقة يعرفون بها في الحرب .
(2) الأبدان : الجثث .
(3) يقتن : يطعمن
(4) المخراق : سيف من خشب .

تثور على الظلم والإستبداد :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا

وفي معلقة عمر وافتخار جميل على غلوه ، وفني على بساطته ، ولا يعيبها الغلو لأنه غلو الفطرة ، ومبالغة الأولاد ، وافتخار شاب جاهلي ساد أقوى قبيلة في العرب حدثاً ، ولم يجد عدوا يقرعه ، بل كان يصول على الأمراء والزعماء حتى قتل ملكاً في قصره ، قال :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي يخر له الجبابر ساجدينا

وإذا كان ابن كلثوم قد أجاد في الشعر النفسي وحلق ، وصور عواطفه فأجمل التصوير ، وعبر عن خلجات نفسه وأحسن التعبير ، فقد وقف على عتبة الشعر القصصي ، فذكر وقائع معينة ، ووصف أياما انتصرت فيها تغلب ، فكأن في معلقته شيئاً من الشعر الملحمي على الرغم من أن غايته من ذكر هذه الأيام الفخر والمباهاة لا القصة ووصف الحرب ، قال في وصف الحرب :

نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
بسمر من قنا الخطي لدن ذوابل أو ببيض يعتلينا
نشق بها رؤوس القوم شقا ونخليها الرقاب فيختلينا (1)
نجذ رؤوسهم في غير بر فما يدرون ماذا يتقونا (2)
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال يقص بلاء تغلب في معركة جرت بين نزار واليمن قرب جبل اسمه

---

(1) نخليها الرقاب : أي نقطع الرقاب كالخلاء وهو العشب

(2) البر : الشفقة .

خزازى ، وكانت تغلب تساعد نزارا على اليمنيين :

ونحن غداة أوقد في خزازى   رفدنا فوق رفد الرافدينا (1)
ونحن الجالسون بذي أراطى   تسف الجلة الخور الدرينا (2)
وكنا الأيمنين إذا التقينا   وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم   وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا   وابنا بالملوك مصفدينا

وينتقل عمرو من ذكر معركة خزازى إلى الإفتخار على بني بكر فيصف بلاء تغلب في الحرب ، ويصور كتائبها في الطعن والضرب تصويراً فنياً جميلاً ، ويتفنن في تصوير أبطالها يتقلدون السيوف البيض اللامعة ، ويحملون الرماح السمر العوالي ، ويلبسون الدروع الطويلة المتثنية ، إلى آخر ما هنالك من الأوصاف المادية الحسية النفسية التي أجاد فيها الشعراء في الجاهلية ، ولكن هذا كله شيء والشعر القصصي الملحمي شيء آخر .

وكان لمعلقة عمرو بن كلثوم مقام كبير في بني تغلب ، فحفظها كبارهم ، وفاخروا بها قبائل العرب ، وعلموها صغارهم ، حتى هجاهم أحد شعراء بني بكر ، قال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

---

(1) أوقد : اضرم ، والرفد : الإعانة .
(2) تسف : تأكل والمصدر السفوف ، الجلة : الكبار من الإبل ، الخور : جمع الخوراء وهي الناقة الكثيرة اللبن ، الدرين : الحشيش اليابس المسود ، يقول ، حبسنا أبلنا عن المرعى في نصرة قومنا حتى اكلت الحشيش اليابس ، وصبرنا حتى ظفرنا .

الحرث بن حلزة (أو الحارث)

القرن السادس م

شاعر جاهلي بكري من أصحاب المعلقات ، انشد معلقته مدافعاً عن بني بكر عندما تحاكمت وتغلب أمام عمرو بن هند ، ولا يذكر الرواة عنه شيئاً كثيراً ، قيل إنه أنشد معلقته وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة ، وقيل إنه عاش مائة وخمسين سنة ، وقيل إنه أرتجل معلقته ارتجالاً وقد حمي غضبه حتى نشب الرمح في يده وثبت في جسده دون أن يشعر .

وكان في الحرث برص فأمر عمرو بن هند أن يجعل بينه وبين الشاعر سبعة ستائر ، ولما أخذ الحرث ينشد معلقته أعجب بها عمرو بن هند ،وشرع يأمر بإزالة ستر بعد ستر حتى رفعت ، وأدنى الحرث منه وأطعمه في جفنته ، وأمر الأ ينضح أثره بالماء ، ثم سلمه رهائن بني بكر .

وفي معلقة الحرث فوائد تاريخية حربية متعددة مما لانراه في معلقة عمرو بن كلثوم فكأنه كان أقرب إلى الملحمة من زميله التغلبي ، غير أن الحرث يعدد الأيام التي انهزمت فيها تغلب دون أن يذكر ما حدث فيها أو يصف وقائعها وأبطالها ، فكأن عمرا أقرب إلى القصة الحربية منه ، وكلاهما لا يريد من ذكر الوقائع والأيام إلا الإفتخار على خصمه .

ويذكر الحرث من الأيام يوم ما بين جبلي ملحة والصاقب حين أخذ بثأر قتلى بكر ولم يؤخذ بثأر بني تغلب ، قال :

إن نبشتم ما بين ملحة فالصا قب فيه الأموات والأحياء

ويشير الحرث إلى الأيام التي هزم العرب فيها جيوش الفرس وكان لبني بكر البلاء الأكبر فيها ، قال :

هل علمتم أيام ينتهب النا س غوارا لكل حي عواء
إذ رفعنا الجمال من سعف م البحرين حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فأحرمنا م وفينا بنات قوم اماء (1)

وينتقل الشاعر من ذكر مفاخر قومه إلى مديح المناذرة فيذكر انتصاراتهم فى يوم الحيازين ، ولا ينسى فضل بكر في هذا الإنتصار ، وهو يغلو في مديحه فيجعل المنذر ابن ماء السماء ربا أخضع البرية وحكمها وليس فيها من يعادله في السطوة والكرم والحكمة ، ثم ينتقل إلى تعيير تغلب بالأيام التي انهزموا فيها ساخراً مستهزئاً ، ويذكرهم بالعهود التي قطعوها ثم خالفوها ، ففي ذي المجاز تعاهدت تغلب وبكر على السلام ثم نقضت تغلب عهدها ، وإذا كانت كندة قد هزمت تغلب فليس من العدل أن تحمل تغلب بكراً جريمة هزيمتها ، قال :

أعلينا جناح كندة أن يغنم م غازيهم ومنا الجزاء
أم علينا جرى العباد كما نيط م بجوز المحمل الأعباء (2)
أم جنايا بني عتيق فمن يغدر م فإنّا من غدرهم براء

ويمضي الشاعر في تعداد الأيام التي انهزمت فيها تغلب فيذكر انتصار قضاعة وأياد عليها ، ويذكر بعض زعماء تغلب الذين أثاروا الفتن فقتلهم المنذر الثالث ، ويذكر يوماً غزا فيه قوم من تميم قوماً من تغلب فنهبوا أموالهم ، ولم تدرك تغلب منهم ثأراً ، ويعود الشاعر إلى مديح عمرو بن هند فإذا هو :

ملك مقسط وافضل من م يمشي ومن دون ما لديه الثناء (3)

وبعد أن يتفنن في مديحه يذكر أيادي بكر في نصرته في حروبه ضد معد ،

---

(1) أحرمنا . دخلنا في الأشهر الحرام وهي الأشهر التي يحرم فيها القتال .
(2) جرى : جناية ، العباد : قوم من النصارى كانوا ينزلون في جوار الحيرة وقد غزوا تغلب فلم تدرك منهم ثأرا ، نيط . علق ، الجوز : الوسط .
(3) مقسط : عادل ، من دون ما لديه الثناء : أي أن الثناء قاصر عن مكارمه .

ويصف المعارك ويذكر الأماكن وأسماء الأبطال مما يجعل شعره أقرب إلى الملاحم من شعر عمرو بن كلثوم ، قال :

مـن لنـا عنـده من الخـير آيا ت ثلاث في كلهـن القضـاء [1]
آية شارق الشقيقـة إذ جا ءت معـد لكل حي لواء
حـول قيس مستلئمـين بكبش قرظـي كأنـه عبلاء [2]
فجبهناهـم بضرب كما م يخـرج من خربـة المزاد الماء [3]
وفعلنـا بهـم كما علـم الله م ومـا أن للحائنـين دماء [4]
ثـم حجـرا أعنـي ابـن أم قطام ولـه فارسية خضراء [5]
فرددناهـم بطعـن كما م تنهـز في جمـة الطـوي الدلاء [6]

ويذكر في الآية الثانية نصرة بكر للمناذرة في فك أخي عمرو بن هند من أسر الغساسنة ، وانتصارهم على بني الأوس ، أما الآية الثالثة فالقرابة بين بكر والملك*، وكانت أم جد عمرو بن هند لأمه من بكر

وإذا كان الحرث بن حلزة يكثر من تعداد الأيام ، ويذكر الأماكن والفرسان فابن كلثوم أكثر تبسطاً في وصف الأيام التي يذكرها ، وإذا كان عمرو بن كلثوم شاعر الفخر والكبرياء والاباء ، فالحرث شاعر اللطف والمكر والدهاء ، وإذا كانت معلقة الحرث في لفظها امتن أسلوباً وأرص تركيباً ، فمعلقة عمرو أسهل لفظاً ، وأقرب إلى الطبع والإسترسال .

(1) القضاء : أي الحكم بولاء الملك .
(2) مستلئمين يلبسون السلاح ، الكبش . أراد به سيد القوم ، قرظي نسبة إلى بلاد القرظ وهي اليمن ، العبلاء · الهضبة البيضاء .
(3) المزاد : زق الماء .
(4) الحائنين : جمع حائن أي الهالك
(5) حجر : أحد أمراء كندة وكان له كتيبة فارسية خضراء لما ركب دروعها من الصدأ
(6) تهز : تحرك ، الطوي البئر وجمته ، معظم الماء فيه

عنترة بن شداد (حوالى525 م ـ615 م)

اسمه عنترة ويلقب بالفلحاء ، والأفلح المشقوقة شفته السفلى ، وأمه أمة سوداء ، ولم يتعرف به أبوه شداد إلا بعدما أظهر من الشجاعة والبطولة ما فاق بهما الفرسان . قال ابن الكلبي : « كان سبب إدعاء أبيه إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوا عما معهم وعنترة يومئذ فيهم ، فقال له ابوه : « كر يا عنترة » فقال عنترة : « العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصر » فقال له : « كر وأنت حر » ، فكر وقاتل قتالاً حسناً ، فاستدعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه » . وقتل عنترة بعدما نيف على التسعين .

وأكثر الأدباء يتفقون على أن عنترة من شعراء الطبقة الثانية ، وقيل : « الشعراء زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، وامرؤ القيس إذا ركب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا غضب » .

وفي شعر عنترة شيء من الشعر الملحمي ، فهو يذكر بعض الوقائع وإيامها وأسماء الأبطال الذين أبلوا فيها ، ويبدع في وصف الحرب والقتال ، وغايته من ذلك كله الفخر بشجاعته وبلائه ، وهو قرين ابن كلثوم في الفخر والحماسة والطموح ، ويختلف عن زعيم تغلب بأنه ارتقى بشجاعته وبطشه من درك العبيد إلى مرتبة الاشراف . ولد أسود اللون عبداً فشعر بذله ، وأثر فيه الحب والطموح فأصبح فارس عبس واحد فرسان العرب المشهورين ، ولعنترة في الفخر طريقة بارعة ، يصف عدوه بأكرم الخصال ، ويجعله فارساً كمياً شجاعاً ، وبطلاً جباراً لا يهرب ولا يستسلم ، ثم ينثني عليه فيشك بالرمح فؤاده .

ويتبسط عنترة في وصف معاركه ، ويبدع في تصوير الحرب ، ويذكر أحياناً أسماء بعض من قتلهم ولكنه لا يذكر أيام الحروب وأسماء أماكنها ، فكأن شعره أقرب إلى وصف المعارك والحروب منه إلى الملحمة وشعر القصة ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
أن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم (1)
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم (2)
يدعون عنتر والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الأدهم (3)
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور (4) من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم (5)
ولقد شفى نفسي وأبرا سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

قيل : لولا عبلة لم يكن عنترة .

لا شك في أن لعبلة أثراً كبيراً في طموح عنترة ورقيه وشهرته ، وقلما نبغ شاعر لم يكن للمرأة أثر قوي في نبوغه ، ولكن هنالك أسباباً أخرى رفعت عنترة إلى مرتبة الأبطال والشعراء ، ومن هذه الأسباب الهبة والطموح والشجاعة وحروب عبس وغيرها من عوامل الحياة ، ولولم يكن عنترة موهوباً لم تستطع عبلة أو غير عبلة أن تخلقه .

ومن أشهر العوامل التي سقت بذرة النبوغ والهبة وأنمتها في عنترة قبل عبلة الطموح ومصائب الحياة . ولد عبداً أسود ، وكان مشقوق الشفة السفلى ولذلك لقب بعنترة الفلحاء ، وكان قبيح الهيئة ، وكانت أمه أمة حبشية سوداء فلم يعترف به

---

(1) جزر : فريسة ، قشعم : مسن .
(2) يتذامرون : يحضون على القتال .
(3) اشطان : جمع شطن وهو الحبل يستقى به ، واللبان : الصدر .
(4) ازور : مال .
(5) التحمحم : من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له .

أبوه . ويقول علماء النفس أن تركيب النقص من أكبر الأسباب التي تدفع بالنفوس الكبار إلى شق طرق المجد والعلاء ، وقد أبى عنترة حياة العبيد قبل أن يعرف عبلة أو يحبها ، واستقبل المخاطر بصدر رحب حتى نال مرتبة السادة الاشراف قبل أن يكون لعبلة أثرها في ذلك على الأرجح ، ويصعب التصديق أن عنترة قد أحب عبلة وهي بنت احد زعماء القبيلة وهو عبد يرعى الإبل . وقد الحقه أبوه بنسبه فأصبح عنترة بن شداد بعد ما كان عنترة بن زبيبة ، والعبيد تسمى بأسماء امهاتها ، وذلك قبل أن يحب عبلة .

وظل عنترة يرنو إلى المراتب العالية ، ويرقى درجات المجد ، فيفتخر بأبيه ويعوض عن عبودية أمه بشجاعته وكبر نفسه وسيفه ، قال :

أني امرؤ من خير عبس منصبا	شطري واحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة احجمت وتلاحظت	ألفيت خيراً من معم مخول
إن كنت في عدد العبيد فهمتي	فوق الثريا والسماك الأعزل
أو انكرت فرسان عبس نسبتي	فسنان رمحي والحسام يقر لي
وبذابلي ومهندي نلت العلى	لا بالقرابة والعديد الأجزل

وفي هذه الأبيات فخر جميل ، وحماسة حلوة ، وفيها صور رائعة بديعة ، ورسوم جميلة رفيعة ،وفيها سهولة في اللفظ مع متانة في التركيب ، فكأنها شعر عباسي ، ولعل سبب سهولتها الطبع القوي ، والعاطفة الفياضة ، لا عبلة وحبها .

وعندما تربع عنترة في مراتب السادة ، واعتلى منازل الأشراف ، احب ابنة عمه عبلة واحبته ، وكانت من أجمل نساء عبس ، غير أن أباها منعها عنه ، فتألم عنترة وصهر الحب فؤاده ، وهانت عليه نفسه ، فأقدم على المخاطر جريئاً غير هياب ، فإذا قتل ارتاح من حياة كلها ألم وشقاء،وأشد أنواع التعس في الحياة شقاء الحبيبين المحرومين ـ وإذا فاز وانتصر ظفر بالسيادة والشرف وظفر بما هو أحلى على

قلبه من السيادة والشرف . وما زال يرمي بنفسه في المخاطر حتى نال ما يصبو إليه ، وكانت عبلة من أكبر البواعث ، قال :

لقـد أبعدونـي عن حبيب أحبه فأصبحت في قفـر عن الأنس نازح
وقـد هان عنـدي بذل نفس عزيزة ولـو فارقتنـي ما بكتهـا جوانحي

وكانت حبيبته عنده أجمل من حياته ، حتى إذا وقع في المخاطر ذكرها ولم يبال بالموت ، قال :

ولقـد ذكرتـك والرمـاح نواهل مني وبيض الهنـد تقطـر من دمي
فـوددت تقبيل السيوف لأنها لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسم

والمشهور عن عنترة أنه جمع في شعره بين قوة الفرسان ورقة العاشقين ، وفي البيت الأول رماح تشرب من الأجسام وسيوف تقطر الدماء ، ومعركة حربية تضطرم نارها كالسعير . وفي البيت الثاني ثغر حلو يبتسم ، وقبل لذيذة مغرية ، فكأن عبلة اللطيفة الحسناء صنعت عنترة بطلاً مقداماً وجعلت منه شاعراً مصوراً رقيقاً .

وعنترة مجموعة من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكريمة السامية ، وكان يتحلى بهذه الصفات المطبوعة فيه إكراماً لعيني عبلة ، ويفتخر بالأخلاق السامية ليعوض بها عن سواده .

ومن الصفات التي افتخر بها عنترة سمو النفس والعفة ، فهو إذا حارب حارب دفاعاً عن القبيلة ورغبة في مجدها لا حباً بالنهب والسلب ، والعفة عن المغنم في الحرب من صفات السادة والملوك ، وهو حريص شأنه في أكثر شعره على أن تعرف عبلة مزاياه ، قال :

هـلا سألـت الخيل يا ابنـة مالك ان كنـت جاهلـة بمـا لم تعلمي
يخبـرك من شهـد الوقيعـة انني اغشى الوغـى وأعف عنـد المغنم

ويفتخر عنترة بالعفاف كما افتخر بالعفة ، والعفاف صفة قل من عني بها من

الشعراء في العصر الجاهلي ، وكان امرؤ القيس ، وهو ابن ملك ، فاسقاً يفتخر بالرذيلة ، وكان عنترة ، وهو العبد الأسود ابن الأمة ، يفتخر بالطهارة ، فاين الملوك من السوقة ، وأين الأحرار البيض من العبيد السود ، قال عنترة :

اغشى فتاة الحي عند حليلها   وإذا غشيت في الجيش لا أغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

وفي البيت الثاني صفة مقدسة عند العرب ، وحفظ الجوار من أكرم السجايا عندهم ، حتى كان الرجل منهم يستجير بمن قتل له أباه أو ابنه فيجيره ، وكثيراً ما نشب القتال بين القبائل من أجل جارة عجوز نحس ، أو شاعر قبيح ، أو رجل ضعيف حقير استجار بزعيم فأجاره .

ويفتخر عنترة بإبائه وكرم نفسه وكريم أخلاقه ، وهو يحرص على أن تعرف عبلة عنه ذلك . وكان في ذلك العصر ، عصر الجهل والعبودية والفقر كما يسمونه ، من يأبى ذل السؤال ، ويعلو بنفسه عن التذلل للغني طمعاً في ماله . وما زال في الدنيا فقراء أعزاء فما يزال عنترة حاملاً لواء الثائرين على الإستبداد والذل والإستثمار ، وما يزال شعره خالداً ، قال :

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل

وكثيرون هم الذين يأكلون المال الحرام ، ولا يخجلون من الكذب والرياء والنفاق ، ولا يستحيون من التذلل وقلة الحياء في سبيل المال ولو كانوا من الأثرياء . قيل إن النبي عندما سمع هذا البيت قال : « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » . وما كان نبي المسلمين ليحتقر العبيد .

ومن اخلاق عنترة الكريمة القوة مع التواضع والعدل مع القدرة ، فهو لا يعتدي على أحد ولكنه لا يقبل أن يعتدي عليه احد . يسالم من سالمه ويوادع من وادعه ، ويحارب من حاربه . يعاشر الناس معاشرة الحب واللطف والحسنى ، ولكنه يعرف أن يداوي من يعتدي عليه ، قال يخاطب عبلة :

أثني علي بما علمت فإنني　　سمح مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل　　مرّ مذاقته كطعم العلقم

ويفتخر عنترة بالشجاعة في الحرب ، والشجاعة من خير الصفات التي كان العرب يفتخرون بها في الجاهلية . وإذا كانت ملذات طرفة نصرة ضعيف ، وشرب خمر ، ومعاشرة امرأة ، فلذة عنترة الشجاعة والإقدام وشفاء نفسه في المخاطر والحروب .

والكرم من الصفات الكريمة التي كان العرب يفتخرون بها في الجاهلية ، والكرم طبع فطر عليه ، فهو يجود سكران وصاحياً ، قال :

فإذا شربت فإنني مستهلك　　مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى　　وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقد نعجب من تكرار عنترة مخاطبة عبلة ، ولعله كان يخاطر من أجلها ، ويفتخر حباً بإثارة حبها له ، وإعجابها ببطولته ، كما يردد آيات الفخر لينسى الناس ضعة أصله لأمه ، قال :

ومدجج كره الكماة نزاله　　لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة　　بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه　　ليس الكريم على القنا بمحرم

وقد فسروا كلمة ثيابه بمعنى قلبه ، ولو أراد عنترة ذلك لقال فؤاده ولم يفسد الوزن ، ولعل ثيابه أبلغ في تأدية المعنى من فؤاده .

ولم يقتصر تأثير عبلة في عنترة على التحلي بالشجاعة والإقدام والكرم والإباء وسائر الصفات السامية ، بل بعثت في شعره روح الرقة واللطف ، ونفثت من سحرها في فنه فرق شعره ، وسما فنه ، ونور بيانه .

ولا عجب أن يرق شعر عنترة بعدما تمكن حب عبلة من نفسه . ولا غرابة في

أن يصبح شاعر السيف والرمح ، وشاعر الخد والشفاه والعناق ، قال :

يا دار عبلـة بالجـواء تكلمي وعمـي صباحـاً دار عبلـة واسلمي
دار لآنسـة غضيض طرفها طوع العنـاق لذيذة المتبسم

وقال :

كيف السلـو ومـا سمعـت حمائما يـنـدبن إلا كنـت أول منشد
وسألت طـير الـدوح كم مثلي شجا بأنينـه وحنينـه المتردد
ناديتـه ومدامعـي منهلة ايـن الخلي من الشجـي المكمد
لـو كنـت مثلي ما لبسـت ملونا وهتفـت في غصـن النقـا المتأود

وصوت الحمام عند العرب أميل إلى الندب والبكاء ، وإذا بدا عنترة في هذه الأبيات حزيناً متألماً فلأن حبه جمع بين الشقاء والهناء ، ولأن عمه منع عبلـة عنـه فصهر الحزن فؤاده ، والحب المؤلم يثير النفس ، ويرقـق القلـب ، أمـا أسلـوب الأبيات فيكاد يكون عباسياً بسهولته وجماله ، وهكذا جمع عنترة بين شعر الأبطـال المحاربين وشعر المحبين المتيمين .

ويجمع عنترة في شعره بين العاطفة الدفاقة والوصف الجميل الرائع ، قال :

واستوقفـوا ماء العيون بأعين مكحولـة بالسحـر لا بالأثمد
قالـوا اللقـاء غدا بمنعرج اللوا واطـول شوق المستهـام إلى غد

وفي البيت الأول صورة فنية رائعة يزاحم فيها عنترة اشهـر شعراء الوصف ، وإذا كان الشعر تصويراً فعنترة شاعر ، وإذا كان للمرأة أثر في فن الشاعر فقد كانت عبلة توحي إلى العبد الأسود الرقة والجمال ، وكثيرون هم المحبون الذين رددوا بيت عنترة هذا دون أن يعرفوا أنه لشاعر اشتهر بسفك الدماء وتقتيل الأبطال .

الشعر الغنائي ـ الغزل

الشعر الغنائي

أطلق بعضهم على الشعر النفسي اسم الشعر الغنائي ، ولعل في هذه التسمية نظراً لأن الشعر الملحمي كان يغنى به ، والشعر العربي في اكثره غنائي ، ويقال انشد الشعر ، والإنشاد نوع من الغناء، وقد مزج الادباء بين الشعر الغنائي والنفسي والوجداني والشعوري قالوا : « الشعر شعور » .

الشعر الوجداني أو الشخصي

الشعر الوجداني أو الشخصي ما عبر فيه الشاعر عن عواطفه النفسية ، ومشاعره الشخصية ، وترجم عما يعتلج في صدره من شعور تفيض به نفسه ، والشاعر في الشعر الوجداني أو الشخصي يدور حول نفسه فيبكي إذا كان حزيناً ، ويتغزل إذا كان محباً ، ويهجو إذا كان ناقماً ، حتى إذا وصف الموضوعات كالطبيعة وغيرها كان الغالب على وصفه المشاعر التي تثيرها تلك الموضوعات والشاعر العربي مهتم بنفسه قبل اهتمامه بغيره ، ولذلك غلب على الشعر العربي الشعر الوجداني أو الشخصي .

ويختلف الشعر الوجداني العربي باختلاف العصور ولكن هذا الإختلاف لم يتغلل إلى جوهر الوجدان بل ظل الشاعر العربي في كل العصور يدور حول نفسه إلا ما كان من خروج بعض الشعراء على نفوسهم في النهضة الحديثة فنظموا الملاحم والمسرحيات والقصص والحكايات ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا على

شخصياتهم فإذا بملاحمهم تكشف عن اهتمامهم بأنفسهم وإذا بهم يظهرون من وراء أشخاصهم الملحمية والمسرحية والقصصية . وكثيراً ما تطغى شخصياتهم على شخصيات أبطالهم فيصبح هؤلاء أشباحاً لا أرواحاً .

والشاعر الجاهلي مهتم بنفسه قبل كل شيء ، فهو إذا ذكر الدمن والأطلال غلب بكاؤه على وصفها ، وإذا ذكر الأيام التي انتصر بها قومه غلب الفخر بنفسه وبقومه فيها على وصف المعارك وتفصيلها .

وأكثر الفنون التي يستطيع الشاعر فيها أن يتجرد من شخصه ويبتعد عن وجدانه المديح والحكم ، ولكن الشاعر الجاهلي كان إذا مدح عبر عن إعجابه بالممدوح ولم يمدح إلا من يتصل إليه بصلة قوية ، غير أن بعضهم كالأعشى الذي كان يمدح من لا يحبه ، والنابغة كان يمدح مديحاً سياسياً متلوناً .

أما الحكم وهي من غير الشعر الوجداني فقد كانت عند الشاعر الجاهلي تتصل بشخصيته فلا يذكر من الحكم إلا ما أثر في نفسه .

وظل الشاعر الأموي يسير على خطى الشاعر الجاهلي فيدور بشعره على شخصه ، ويعبر عن وجدانه ، ولكن بعض الشعراء انتقل من الدوران على نفسه ووجدانه إلى الدوران على محور حزبه فنشأ الشعر الحزبي وهو نهب بين وجدان الشاعر وشخصية الحزب .

وكان العصر العباسي فقوي اهتمام الشاعر بنفسه، وإذا إنتقل إلى الشعر الموضوعي كان وصف نفسه والإهتمام بشخصه ووجدانه يغلبان عليه . ولكن العرب أخذوا يطلعون على علوم الأمم وحكمها ، ويترجمون كتب الأدب والعلم والحكمة والمنطق فاتسعت آفاق الشعراء وخرج بعضهم عن دائرة وجدانه ومحيط شخصيته إلى الحكم وابتداع المعاني ، والإهتمام بالموضوعات الخارجة عن وجدان الشاعر وشخصيته الخاصة ، غير أن الشعر الوجداني أو الشخصي ظل يهيمن على الشعر العربي .

وكانت عصور الإنحطاط وخرج الشعراء عن محيطهم الشخصي الوجداني ،

غير أنهم تقيدوا بقيود التقليد فأصبح شعرهم لا يعبر عن عواطفهم ومشاعرهم ، ولكنه لا يتناول الموضوعات الواسعة فكأنه نظم لا شعر ، وإذا كان فيه شيء مما كان الناس يقبلونه فذلك التفنن في أنواع البيان والبديع ، والصناعة اللفظية التي لا تمت إلى الشعر الوجداني بصلة ولا ترتبط بالشعر الموضوعي بسبب .

ونهض الشعر في العصر الحديث كغيره من فنون الأدب ، وتأثر الشعراء بالإفرنج فجالوا في الميادين الفسيحة وخرجوا إلى الآفاق الواسعة ونظموا الملاحم والمسرحيات ووصفوا الحروب والغزوات وبحثوا في العلم والسياسة والاجتماع ، ولكن الشعر الوجداني ظل ميدانه أوسع من سائر الميادين ، وتأثيره أقوى من سائر الفنون .

الغزل

الغزل أقدم من النطق والكلام ، وأسبق من الشعراء والإنسان ، فالحسون يغرد لأنثاه وتغريده غزل وغرام ، والطاووس يعجب بنفسه ، وما إعجابه بثوبه الرائع إلا نوع من الحب والإغواء ، وأول ما ينظم الناشيء من الشعر الغزل ، سنة الطبيعة في الأحياء ، تفنناً منها في أساليب البقاء .

والغزل وصف ما يكتوي به القلب من لواعج الحب ومثيرات الغرام ، ثم وصف جمال الحبيب وفتنته وإغوائه ، والتغني بوصف الألم والعذاب والشقاء ، ورسم معالم النعيم والسرور والهناء ، ومن الغزل وصف أيام الحب الماضية ، وذكرياته القديمة من هناء وشقاء ، وفراق ولقاء ، وخلوات وأسرار وغير ذلك مما يعرفه كل محب وحبيب ، وكل إنسان محب ، ولكل محب حبيب .

الغزل في الجاهلية

هيمن الغزل في الجاهلية على سائر الفنون ، فكان المادح يبتدىء به مديحه ، والمفتخر يستهل به قصيده ، والمعتذر يقدمه في اعتذاره ، وأصبح الوقوف على الأطلال ، وبكاء الأحبة سنة يقلدها الشعراء ، وكثيراً ما كان الشاعر يقف على

الأطلال دون أن يكون له أطلال ، ويبكي دون أن يكون ثمة سبب للبكاء ، وتفنن الشعراء في وصف الجمال والمحاسن فشبهوا عيني المرأة بعيني المهاة ، وجيدها بجيد الغزال ، وشعرها بسواد الليل وعناقيد العنب ، وأسنانها بالبرد والأقحوان ، وأناملها بالعناب إلى ما هنالك من الأوصاف الكثيرة ، والتشبيهات المتنوعة مما أجاد فيه الشعراء في الجاهلية ، ولم يزد عليهم من جاء بعدهم كثيراً .

غير أن شعراء الجاهلية لم يجيدوا وصف العواطف النفسية ، ولم يحسنوا وصف المحاسن الخلقية ، ولم يبدعوا في الحوار اللذيذ بين العاشقين ، ولم يجيدوا في وصف مواقف اللقاء وهنائه ، وسعادة الشكوى والذكريات ، ولا خير في الحب إذا لم يكن فيه غير الشقاء ، ولا خير في المرأة إذا لم تحمل معها غير التعس والحزن والبكاء .

في العصر الأموي

ظل الشعراء في صدر الإسلام يقلدون في الغزل شعراء الجاهلية فيستهلون قصائدهم بالوقوف على الأطلال ، وبكاء الأحبة وأيام اللقاء ، ويتفننون في وصف جمال المرأة ومحاسنها ، ويجيدون في التشابيه والإستعارات ، غير أن هنالك قطراً خرج في العصر الأموي عن التقليد في الغزل والنسيب ، فابتدع وأبدع ، وغنى فطرب وأطرب ، وكان عمر بن أبي ربيعة إذا أنشد قصيدة في مكة أو المدينة حملها المغنون إلى مجالس الأنس والطرب والسرور وكانت تنتشر بين النساء انتشارها بين الرجال .

وأفرد شعراء الحجاز للغزل القصائد والمقطعات ، ووصفوا اللقاء وهناءه ، وتفننوا في جمال الحوار بين العاشقين ، وانصرفوا عن البكاء إلى الملذات ، وعن وصف الدمن والأطلال إلى وصف مواقف العبث والمجون حيث تغمز الحبيبة حبيبها فيأبى ، وتركض وراءه لتفسد عليه طوافه ، وتعده وميعادها كلما طلب انجازه إلى بعد غد ، وغير ذلك مما انتقل بالغزل من الشقاء إلى الهناء ، ومن البكاء إلى الغناء .

والغزل الأموي في الحجاز قسمان ، حضري وبدوي ، أما في الحواضر فقد كان غزل العبث والمجون ، والتنقل من فنن إلى فنن ، والإنتقال من زهرة إلى زهرة ، لا يحصر الشاعر غزله بإمرأة واحدة ، ولا يؤمن بالحب الذي يطول زمانه ، وكثيراً ما كان يخترع مواقف الفسق اختراعاً ، ويبتدع قصص العبث والمجون ابتداعاً ، أما في البادية فقد كان الحب قوياً عنيفاً ، وكان الغزل وجدانياً عفيفاً ، وكان الشاعر يتغزل بحبيبة واحدة لا يحب غيرها ، ولا يذكر في نسيبه سواها ، وكثيراً ما كان يرضى منها بالنظرة الواحدة تكفيه سنة واحدة ، وبالسلام عند النظرة ، والحديث عند اللقاء حديثاً فيه عاطفة مطبوعة قوية ، وفيه اقتصاد وطهارة وعفاف . واشتهر أكثر شعراء بادية الحجاز في العصر الأموي بأسماء حبيباتهم فهنالك مجنون ليلى ، وكثير عزة ، وجميل بثينة وسواهم .

في العصر العباسي

انتشر في العصر العباسي ولا سيما في بغداد غزل العبث والفسق والمجون ، وكثرت الجواري وزاحمن شريفات النساء على قلوب الرجال . فانحط الغزل من مقامه الرفيع ، واستهان الناس بالحب الشريف فاستهان الشعراء بالغزل الفني الرفيع ، ونزلوا به إلى الدرك الأسفل ، وانحرفوا في الفسق والفجور حتى اخترعوا غزلاً جديداً هو الغزل المذكر ، وزاحم الغلمان الجواري فيما كانوا يسمونه حباً وغزلاً ، ووصف الشعراء الحبيب بدلاً من الحبيبة وحلت عيونه محل عيونها ، وعمد بعض الشعراء إلى الغزل المكشوف لا يخجلون ولا يرعوون .

وقوي تأثير الفرس في العراق واشتد نفوذ الشعوبيين فأخذوا يعملون معاولهم في صرح الأدب العربي القديم تهديماً ، واستبدلوا بالوقوف على الأطلال والغزل في استهلال القصائد وصف الخمر ، غير أن شعراء الشام ظلوا يبتدئون بالغزل والوقوف على الأطلال ، يصفون الجارية والغلام ويتغزلون بهما صادقين وكاذبين ، غير أن بعض الشعراءكان له من حياته الخاصة دافع يدفعه إلى الغزل الصحيح ،

ووصف لواعج الحب وسعادة اللقاء وكان بعضهم يعمد إلى الغزل الخيالي ، فيصف حبيبته في حلب وهو في الشام .

وكانت عصور الإنحطاط فانحط الغزل كغيره من أنواع الشعر ، غير أنه وجد ميداناً فنياً جميلاً في الأندلس ، وأخيراً غلب الغزل المذكر على النسيب ، فكاد ضمير المؤنث يختفي منه .

ونشأ في الغزل فن جديد هو فن الغزل الصوفي ، فكان الشاعر يتغزل بالمرأة وهو يريد الله ، ويصف محاسنها وهو يرمز بذلك إلى صفاته .

وكانت النهضة الحديثة فتخلص الغزل من التقليد وعاد إليه علو مقامه وشرف غاياته ، غير أن النظم الإجتماعية وكثرة مشاكل الحياة حالتا دون انصراف الشعراء إليه انصرافاً قوياً ، ولذلك كان الغزل في النهضة عفيفاً ولكنه غير عنيف ، غير أنه لم يصل في جمال فنه إلى ما وصل إليه في الحجاز أيام بني أمية .

عمر بن أبي ربيعة (644 م ـ711 م)

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخذومي القرشي ، ويكنى بأبي الخطاب ، ولد في المدينة سنة 23 هجرية ، يوم مقتل عمر بن الخطاب ، وكان أبوه تاجراً موسراً ، وعاملاً أميناً للنبي والخلفاء الراشدين من بعده ، ولذلك ربي عمر في سعة من العيش ، ونعيم من لذائذ الحياة ، وقال الشعر صغيراً وتفنن في ضروب الغزل والنسب

وكان يقضي حياته لاهياً مستمتعاً حتى إذا جاء موسم الحج لبس الحلل الفاخرة ، وخرج من مكة يتلقى الحواج ويتبعهن حتى يراهن محرمات فيصفهن ويشبب بهن فاشتهر شعره وغني به ، وطلبه بعض الحسان طمعاً بالشهرة وتلذذاً بالرقة والفن . وخاف بعضهن من الخروج إلى الحج خوفاً من لسانه .

ولعمر مع النساء اخبار كثيرة تدل على عفته وفنه حيناً ، وعبثه وفسقه حيناً

آخر ، ولكنه ما بلغ الأربعين حتى تاب وحلف ألا يقول بيتاً من الشعر الا اعتق رقبة ، واختلف الرواة في حياته بعد التوبة ، فقيل إنه غزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها ، وقيل إن امرأة شبب بها ظلماً شكته إلى الله فانتقم منه ، وقيل إن عمر ابن عبد العزيز نقاه إلى دهلك فمات فيها، وأكثر الرواة أنه مات سنة 93 هجرية ولم يدرك خلافة عمر بن عبد العزيز .

ويجمع شعر عمر بين قوة الجاهلية وجزالة الإسلام ، وسهولة غزل الحجاز ورقته وجمال موسيقاه ، وقد غني بشعره في عصره بما لم يغن بشعر غيره ، ولم ينظم قصيدة حتى سار بها الركبان ، ورددتها الحسان ، وغنى بها المغنون والقيان .

ولم يغرم الناس بشعر عمر لفحش في ألفاظه ، فهنالك من هو أفسق منه في لفظه ومعناه وقصصه ، ولكنه سحرهم برقته وآرائه ، واستغواهم بما بين سطوره من معاني الحب ومثيرات أسباب الهوى والغرام ، وكثيراً ما تكون في غير الفحش سبل الإغراء ، وفي غير الفسق طرق الإغواء ، فهو يصف النساء في اجتماعاتهن يتحدثن أحاديث الحب والغرام ، ويتناشدن أناشيد الغزل والنسيب ، ويذكر لقاء المحبين الهنيء ، وحوار العاشقين اللذيذ فيغري ويغوي ، قال هشام بن عروة « لا ترووا فتياتكم شعر عمر » وقال ابن أبي عتيق « لشعر عمر نوطة في القلب ، وعلق في النفس ليست لشعر » وقيل في شعره انه الفستق المقشر للذته وسهولته واستساغته .

ومن شعر عمر المغري الجميل قوله :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد
قلت من أنت فقالت أنا من	شفه الوجد وأضناه الكمد
نحن أهل الخيف من أهل منى	ما لمقتول قتلناه قود
إنما أهلك جيران لنا	إنما نحن وهم شيء أحد
كلما قلت متى ميعادنا	ضحكت هند وقالت بعد غد

وقوله :

بينما ينعتنني أبصرنني　　دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قالت الكبرى اتعرفن الفتى　　قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها　　قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقوله :

أبصرتها ليلة ونسوتها　　يمشين بين المقام والحجر
قالت لترب لها تلاطفها　　لنفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليعرفنا　　ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى　　ثم اسبطرت تشتد في أثري

وقوله :

فاقني حياءك في ستر وفي كرم　　فلست أول أنثى علقت رجلا

وقوله عندما استجارت حبيبته بأختيها لتجدا مخرجاً ينجو به الشاعر :

فقالت لأختيها أعينا على فتى　　أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا　　أقلي عليك الهم فالخطب أيسر
وقالت لها الصغرى سأعطيه مطرفي
ودرعي وهذا البرد إن كان يحذر
يقوم فيمشي بيننا متنكرا　　فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون ما كنت أتقي　　ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

شعر عمر أرادته الشعراء فأخطأته

يقول جرير في شتعر عمر « هذا الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف

الديار » ، فما معنى هذا القول ، وما أعر س عمر في شعره ، وفنه الجديد بالنسبة إلى الشعر الجاهلي .

ليس الغزل في الشعر العربي من اختراع عمر ، وليس النسيب من ابتداع عصره، وربما كان الحب ألزم للمرء في حياته ، وأحب اليه من طعامه وشرابه، ولا شك في أن الإنسان قد شعر بخلجات الحب تضطرم في فؤاده ، قبل أن يستطيع التعبير عنها بكلامه ، ولا شك في أن الفتى قد سحرته غمزات فتاته ، قبل أن تختلج بالغزل شفتاه ، وفتنه جبينها الطلق الوضاح ، ووجنتاها الورديتان اللامعتان ، قبل أن يحسن الكلام والتعبير عما يلتهب به فؤاده ، ودغدغته همسات شفتيها السمراوين ، وانفراج ثغرها المبتسم المغري ، قبل أن ينظم الشعر ، أو ينشد الغزل والنسيب ، ولكن الحب والغزل يتبدلان بتبدل المحبين والعاشقين ، ويتغيران بتغير حياتهم ، وطراز حبهم وعصرهم وبيئتهم .

وقد تغزل الشعراء قبل عمر ، ونسج كل شاعر منهم عروس أحلامه ، وشيطانة حبه وغرامه ، ولكن الشعراء الجاهليين كانوا يسيرون في غزلهم على غرار واحد ، وينسجون في نسيبهم على منوال متشابه لا يتغير كثيراً ، ولا يتبدل تبدلاً كبيراً . . كان الواحد منهم يقف على الأطلال الدارسة ، ويتعلل بوصف الدمن والآثار ، ثم لا يلبث أن يذكر أياماً مضت ، وعهوداً خلت ، وحوادث عزيزة لذيذة طويت ، فأصبحت ذكريات مثيرة مؤلمة ، حتى يبكي كناقف الحنظل ، وتنهمل دموعه فتبل محمله ، ويعود به الخيال إلى حبيبته فيصفها وصفاً يجيد فيه ويبدع ويشبه جيدها بجيد الظبا ، وأسنانها بالبرد والأقحوان ، وشعرها بالليل وعناقيد العنب ، إلى آخر ما هنالك من رسوم حسية ، وأوصاف ظاهرة مادية ، وقد شق امرؤ القيس للشعراء هذه الطريق ، فساروا عليها كاذبين أو صادقين ، ومحبين شاعرين أو ناظمين مقلدين . ولكن في الحب شيئاً غير البكاء ، وفي الغزل شيئاً غير التعس والشقاء ، وربما كان هناء الحب قبل شقائه ، وابتسامة الغزل أجمل من نحيبه وبكائه ، وسرور النسيب أحلى من تذلله وعذابه ، بل ربما كان شقاء الحب سبيلاً

إلى الهناء ، وعذابه درباً إلى التمتع بملذات اللقاء ، قال البحتري :

ولـو عرف النـاس التلاقـي وحسنه | لحـب من أجـل التلاقــي التفرق

ولكن المحبين يعرفون ، والعشـاق يحسـون فيتفنـون وكثـيرون هم الـذين يبتدعون المتاعب في الحب ابتداعاً ، ويعمدون إلى القطيعة والفراق عمداً وقصداً ، فيسعدون بعد عناء وينعمون بعد فراق ، ويرضون بعد لقاء وعتاب .

ولم يفرد الشاعر الجاهلي للغزل قصائده ، ولم يخص بالنسيب شعره ، ولا نجد في غزله تلك الرقة التي لا يستغني الغزل عنها ، أو ذلك الحوار اللذيذ الذي يستهوي القلوب ، وذلك الحديث الطلي اللطيف الذي يستغوي الأذواق والمشاعر أو تلك اللذّة السامية الساحرة التي تهفو لها افئدة الفتيات الظريفات ، وترنو اليها نفوس الفتيان الازوال ، والفتوة عنصر الحب العنيف ، وجـذوة الغـزل الصـادق الصحيح ، أما عمر فقد تخصص في هذا الغزل ، غزل الرقة والحوار ، وأبدع في هذا الحـب ، حب السرور والهنـاء ، والتخصص سبـب من اسبـاب التفنـن والابداع ، وسبيل من سبل التقدم والارتقاء .

وعمر في غزله الجديد ، ممثل أمين لعصره ، ومصور فني مطبوع لحياته وبيئته وحضارته ، وقد كانت البلاد العربية في أيامه ، أقطاراً ثلاثة ممتازة في سياستها مختلفة في ثقافتها واجتماعها وأدبها ، ففي العراق نار المعارضة واضطرامها ، وشعر الثـورة وخطابتها ، وفي الشام مجد الخلافة وعظمتها ، وعز الجاهلية وقوتها ، وثروة الدولة وسلطانها . والشعر في الشام والعراق معـاً ، يسـير على سبيل الجـاهلية من مديح وهجاء ، واستهلال بالغزل ووقوف على الأطلال ، ويزيد عليه شعراً سياسياً مبدئياً حزبياً ، وحضارة كالزهر بين النجوم تبدو حيناً وتخفر .

وكان في الحجاز حب يختلف بين حواضره وبواديه ، وغزل يتنوع بين مكشوفه وعفيفه ، ففي البادية حب عنيف عفيف . وغزل باك مجنون. يمثله جميل وعروة والمجنون ، وفي الحواضر حب هنيء لذيذ وغـزل مغـو مغـر رق أسلوبـه ، ولذّ

حواره ، وعذب وقع جرسه . فقرب تناوله . وسهل مأخذه وسلس قياده ، وحمل عمر لواءه ، وشبه بالفستق المقشر للذته وسلاسته واستساغته .

وكان في حواضر الحجاز أولاد الصحابة والخلفاء والأنصار ، وأموال الأمويين تبذل لهم دون حساب ، والسياسة حرم عليهم ، في أوحالها مهاوي العطب والنكال وبين ثناياها براثن التعذيب والتنكيل والحرمان .

والحجاز بلد فقير أرضه جدباء ، وأهله في الجاهلية يألفون شظف العيش وشقاءه إلا من أنعم الله عليهم من تجار قريش وسادتها المكرمين ، فلما كان الإسلام تدفقت عليه غنائم الحروب والغزوات من كل أفق وصوب ، واتسعت رقعة المملكة وساد الأمن فيها ، وانتشر النعيم والاثراء في نواحيها ، واصبح الحجازيون تجار العالم في عصر عمر ، ورأت مكة والمدينة أشياء لا عهد لهما بها من قبل ، من حضارة ونعيم وغنى وثروات ، وأموال تهطل كمطر اليمن السعيدة ، وزاد الحج في غنى الحجاز وثرائه ، ونعيمه وترفه ، وسروره وهنائه .

حسب رفيع ، ونسب شريف ، وشباب غض فتي ظريف ، وفراغ فسيح مفروض ، وأموال وافرة لم يتعب اصحابها في جمعها ولم يشقوا ، وجوار راقيات متعلمات ، وقيان بارعات متفننات ، رقت أصواتهن وعذب غناؤهن ، وأغوى غنجهن ودلالهن .وحسان بيض ناعمات ، وراقصات متبذلات مغريات ، ونساء محصنات مثقفات يتذوقن الشعر والأدب ويروقهن الغزل الرقيق الهنيء ، هذه حياة حواضر الحجاز أو حياة الفتوة العنيفة في حواضر الحجاز ، وهذا أدبهم رقة وحب وظرف ، ولهو وغزل وحلاوة ، وفن وذوق وجمال . وهذه حياة عمر وهذا أدبه ، تنقل بين جمال وجمال ، وانصراف من فتنة إلى سحر ودلال وغزل حبيب هنيء فاق الشعراء فيه وأغرى الفتيات والفتيان . قال هشام بن عروة : « لا ترووا فتياتكم شعر عمر ، لا يتورطن في الزنى تورطا » .

وأبرز ما في غزل عمر أنه يتغزل بنفسه ، كما يتغزل بحبيبته وفتاته ، قال ابن

أبي عتيق « أنت لم تنسب بها ، بل نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول قلت لها ، فقالت لي ، فوضعت خدي فوطئت عليه . » ولكن عمر لم يبال بهذا الحب الخيالي ، ولم يتعود التذلل لحبيب ، بل كان تياها بنفسه، معجباً بجماله وإغوائه ، فخوراً بشعره وفنه ، تحبه الغانيات لماله ، وتهواه الفتيات لابتسامته وجماله ـ وفلسفة الجمال ابتسامة ـ وتسعى إليه الشريفات المحصنات لرقة في شعره ، وإبداع في فنه ، وهناء ساحر في غزله ونسيبه . وكثيرات هن اللواتي طلبن من عمر أن يتغزل بهن دون أن يحببنه أو يحبهن ، وكن يغمزنه في الطواف ليفسدن عليه طوافه ، ويحتلن عليه ليتمتعن بحديثه الرشيق ، وشعره الهنيء الرقيق ، وحلاوة الحب في غمزاته وابتساماته ، وجمال الغزل في وعوده ومداعباته قال :

كلما قلت متى ميعادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

وفي شعر عمر رقة في الأسلوب ، وجمال في الجرس وعذوبة في النغم وروعة في الموسيقى ، وقد كان معين الأغاني في زمانه ، وظل شعره يغنى به في العصر العباسي عصر الحضارة والرقة والعذوبة .

وفي شعره صور رائعة ، وفكر بليغة موافقة ، والشعر نغم عذب ، وصورة جميلة ، وفكرة رشيقة بليغة ، قال :

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تبترد
أكما ينعتنني تبصرنني عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسد حملنه من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد

والتعري صورة مغرية وإعجاب المرأة بجمالها حقيقة قديمة خالدة ، أما الفكرة الرشيقة فليس من شروطها أن تكون حكمة عميقة ، أو فلسفة راقية سامية ، بل يكفيها أن تعبر عن الحال ، والبلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال ، وإذا أردت أن تثير امرأة عليك فامدح سواها أمامها ، وإن شئت أن تنفث سموم الحسد في قلوب

الحسان ، فتغزل بغيرهن وصف جمال سواهن .

وشعر عمر ساحر والسحر حرام إلا في الحب . وكل فتى يريد أن يكون الحب سحراً ، وأن تكون فتاته غاوية نفاثة :

خبروني أنها لي نفثت عقداً يا حبذا تلك العقد

وحمل عمر لواء القصة الغرامية القصيرة ، وتفنن فيها ما شاء له خياله المبتدع أن يتفنن، وإذا كان قد قلد مبتدعها ، فقد فاقه بلذيذ حواره ، وجميل حديثه ، و حكام قصته فلا هلهلة فيها ولا انفصام ، ولا ضعف في حوادثها ولا انفصال ، وقصيدته الرائية قصة كاملة ، وأحاديث تامة هنيئة ، وتعبير دقيق عما يحسه المحبون ويتحدث به العشاق والمتيمون ، يذهب خائفاً وينتظر غياب القمر ، ونوم السمر فإذا دخل عليها توهلت ، وخافت عليه ، واشفقت على نفسها من الفضيحة ، ولكنه يطمئنها فتلين ، ويقضي معها ليلة ، لم يكدرها إلا القصر ، ولم يزعجهما فيها إلا تحفز الحي للنهوض ، وصراخ المنادي بالرحيل ، وتساعدهما اختاها والأمر للأمر يقدر ، وكما تراني يا جميل أراك .

ويعود الفتى القرشي الحجازي يمشي بين السحر والفتنة والدلال ، ولا يودع حبيبته حتى تضرب موعداً له في عزور . ولا يختم قصته إلا بحديث ساحر فاتن وتوبيخ مغر خبيث ، قال :

فقلن له أهذا دأبك الدهر سادرا أما تستحي أم ترعوي أم تفكر

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

والمحبون يعرفون أن هذا التوبيخ إغراء ، وأن هذا المنع إغواء وأن هذا الحياء قلة حياء ، والنظر إلى غير الحبيب خبث ودهاء ، وبمثل هذا الخبث كان عمر شاعر اللذة والهناء وما يزال .

وعمر شاعر مسكين مظلوم ، ظلـم نفسـه وظلمـه التـاريخ ، ولـم ينصفـه الباحثون والأدباء والنقاد ، ظلم نفسه فإذا به يعشق المتزوجات ، وينتقل من نعم إلى هند ، ومن المرية إلى الجمحية ، وظلمه التاريخ فجعل منه لاهياً ماجناً ، وعابثاً زانياً فاسقاً ، وظلمه العاشقون ، فجعلوه خائناً مارقاً ، لا يحفظ عهداً لحبيبة ، ولا يدوم على حب امرأة ، وظلمه النقاد فجعلوه رجلاً شهوانياً واقعياً ، لا خيال عنده ولا إبداع .

ولكن هذا الشاعر الكذاب البريء ، والفتى المبدع المظلوم ، يقسم لأخيه ، وأخوه يلاقي ربه ، أنه لم يفعل شيئاً مما ذكره في شعره ، وهو أولى بالصدق في تلك الساعة الرهيبة ، منه في ساعة الإبتداع ، والتحليق في أجواء الفـن والإختـراع ، والشعراء يقولون ما لا يفعلون ، ومؤلفو القصص والـروايات في أيامنـا يخترعـون ويتخيلون ويبتدعون .

ولنـا في عمـر دليل على براءتـه ، وفي شعـره برهـان ناصـع على ابتداعـه واختراعه ، فقد زار حبيبته والأنوار مطفأة ، والقمر غائـب ، وقـد أرخيت عليها السدول والستائر ، وكان ما كان مما يلمس ولا ينظر ، ويشعر به ولا يرى ، ولكنه رأى في شعره شفتيها السمراوين ، وشاهد نظراتها المريضة الناعسة ، ونعم بلفتاتها الفاتنة الساحرة ، وضياء عينيها الحوراوين ، فكأنه هو ينظر في الظـلام ، وكأنها ضبع تمج عيناها خيوط النور والضياء ، ولو كانت قصته صحيحة صادقة ، لوصف ما يلمس ، قبل أن يصف ما ينظر ، ولو كانت حوادثه جارية لتغزل بنعومة بشرتها قبل بياضها ، وبضاضة متجردها قبل ضيائه ، ولأبدع في بيان لذة ما قبّل منها ، قبل أن يخوض في وصـف سمـرة شفتيهـا ، ولأحس بطيب رضابهـا قبـل أن يرى تأشر أسنانها .

وربما كان عمر من عبيد الشعر لا من عبيد الشهوة ، ومن رجـال الفـن لا من رجال المرأة ، وربما كانت المرأة عنده جمالاً لا لذة ، وفنـاً لا شهـوة ، ومعينـاً للعبقرية والنبوغ ، لا سبيلاً إلى العبث واللهو والغواية ، ونحن على يقين من براءة

عمر وفنه ، ولو قدم لهذا الشاعر العابث الماجن فتاة جميلة حسناء ، وإمرأة لعوب بيضاء أو سمراء ، ثم رأى بجانبهما تمثالاً أجمل منهما صورة ، وأبدع فناً ورسماً ، لانصرف عن المرأة إلى التمثال ، وصدف عن جمال الفتاة المغوي إلى جمال الصورة المغري ، وألهاه التمتع بالجمال البشري ، ولو كان في هيئة صورة أو تمثال ، عن التلذذ بمغريات المرأة وشيطانها ، فهو عاشق للجمال لا للمرأة ، وهو مولع بالحسن لا بالشهوة ، وكأن حبه حب الشعراء المبدعين ، لا حب الرجال المغرمين ، وكأن عشقه عشق أبناء الفن والخيال ، لا عشق أبناء الحقيقة والواقع ، والشعراء يعشقون الأوهام ، ويتلذذون بعرائس الأحلام ، ويعانقون الطيف بين الغيوم في الخيال ، ولو نزلوا إلى ميدان العمل لكانوا بشراً كسائر الناس ، قال عمر :

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لي فيه إلا لذة النظر

وليس للشعراء من الحب غير النظر ، وليس لهم من لذة الجمال إلا التمتع برؤيته . وبمثل هذه اللذة ينعم رجال الفن ، وبمثل هذا الإبتداع كان الشعراء فوق الناس ، بل كانوا دون الناس جميعاً كذابين منافقين ، يخترعون ويبتدعون ، ويقولون ما لا يفعلون .

جميل بثينة (توفي حوالي 701 م)

هو جميل بن معمر من بني عذرة من بادية الحجاز ، وبثينة ابنة عم له بعيدة احبها وخص غزله بها فعرف بجميل بثينة ، وكان حب جميل بثينة عفيفاً عنيفاً لا يجتمع به الحبيبان ، واشتهر الحب العذري في الأدب العربي بالعفة والحرمان ، وكان من عادة البداة ألا يسمحوا بزواج المحبين إذا أشتهر أمرهما .

وأحب جميل بثينة صغيرة ، وكان أول ما تعلق بها أنه أقبل يوماً بإبله حتى أوردها وادياً يقال له بغيض ، فاضطجع وأرسل إبله مصعدة ، وأهل بثينة بذنب الوادي ، فأقبلت بثينة وجارة لها تردان الماء ، فأصابت بثينة إبل جميل بأذى ، وسبّها

جميل فسبّته ، وملح عليه سبابها ، وفي ذلك يقول :

وأول ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب
وقلنا لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب

واشتهر غزل جميل ببثينة فحجبوها عنه ، فكانا يحتالان في اللقاء فيغيب أمرهما أحياناً ، وينكشف أحياناً ، وكان قومها أضعف من قومه فلا يجرؤون عليه ، وأخيراً زوجوها ، فغاب جميل عنها مدة ثم عاد إلى زيارتها في عهدة زوجها ، وعاد يشبب بها حتى شكاه أهلها إلى السلطان فأهدر دمه ، وطلبه الوالي طلباً شديداً فهرب إلى اليمن وأقام بها حتى عزل الوالي ، وانتجع أهل بثينة وزوجها الشام فرحل جميل إليهم ، وعاد إلى زيارة بثينة والتشبيب بها ، فشكوه إلى أبيه فوبخه أبوه توبيخاً ليناً حكيماً ، وقال له : « لو كان اليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، وفي النساء عوض » . فقال له جميل : « الرأي ما رأيت والقول كما قلت ، ولكن هل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن يسلي نفسه ، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت » .

ولما اشتدت به الحال ، وضاق عليه الأمر ، رحل إلى مصر ، ولم يطل به المقام هناك حتى أدركته الوفاة ، فمات وهو يذكر بثينة ويشبب بها في شعره ، وعندما وصلت إليها حالته وسمعت الأبيات التي قالها عند وفاته ، صاحت بأعلى صوتها ، وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبن جميلاً .

ويختلف شعر جميل بين جزالة البداوة ومتانتها ، ورقة الشعر العاطفي النفسي وسهولته ، قال :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا نسائلكم هل يقتل الرجل الحب

قيل في هذا البيت أن أوله إعرابي في شملة ، وآخره مخنث من أهل العقيق .

وقال :

إذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني الواشون إلا صبابة ... ولا كثرة الناهين إلا تماديا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني ... أظل إذا لم ألق وجهك صاديا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة ... وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وفي هذه الأبيات من السهولة ما يزاحم بها جميل شعراء الغزل الأموي في حواضر الحجاز ، وما يجاري سهولة الشعر العراقي في العصر العباسي ، وفيها من العاطفة القوية المطبوعة ما يدل على صدق حب جميل ، ورقة شعوره . وقال :

وما ذكرتك النفس يا بثين مرة ... من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وإلا اعترتني زفرة واستكانة ... وجاد لها سجل من الدمع يذرف
وما استظرفت نفسي حديثاً لخلة ... أسر بها إلا حديثك أطرف

وفي هذه الأبيات شيء من متانة الشعر الأموي في بادية الحجاز ، وفيها عاطفة الحب المخلص الذي لا يسر الحبيب فيه إلا بحديث حبيبه . ولا يذكره في فراقه حتى تضطرم لواعج الحب في فؤاده ، فتسعى عيناه في إطفائها بالدموع ، وحياة العاشقين الصادقين إذا أصيبوا بالبعد والحرمان دموع وزفرات ولواعج .

ويختلف شعر جميل باختلاف حاله ، وحال العاشقين في الحب العذري شقاء وألم وحسرة إذا بعدوا وحرموا ، وهناء وطرب وخفة إذا اتفق أن اجتمعوا ، وعتاب وشكوى إذا شكوا وارتابوا ، وبيان قوة حبهم وتدفق عاطفتهم إذا تناجوا ، قال بعد زيارة وفق فيها :

هي البدر حسناً والنساء كواكب ... وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسناً على الناس مثلما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدر

والحب العذري جفاء وصفاء ، وفراق ولقاء ، وهجر وعتاب ، وشعر جميل

ترجمان حاله ، والمعبر عن خلجات نفسه وآماله ، والناطق باختلاف مشاعره وأحواله . قيل إنه لقي بثينة بعد تهاجر كان بينهما طالت مدته ، فتعاتبا طويلاً فقالت له : ويحك يا جميل ! أتزعم أنك تهواني وأنت الذي تقول :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى   وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلاً يبكي ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتني أعمى أصم تقودني   بثينة لا يخفى علي كلامها

فقالت له ويحك ! ما حملك على هذه المنى أو ليس في سعة العافية ما كفانا جميعاً ؟

وكان جميل عفيفاً ، يرضى بالقليل ، ويسر باللقاء القصير ، والحديث البريء ، قال :

وإني لأرضى من بثينة بالذي   لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى   وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي   أواخره لا نلتقي وأوائله

وواعدت بثينة جميلاً أن يلتقيا في بعض المواضع فأتى لوعدها ، وأحس أهلها فمنعوها من الوفاء بوعدها ، وعاد كئيباً سيء الظن بها ، ورجع إلى أهله فجعلت نساء الحي يقرعنه بذلك ، ويقلن له : إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر ، وغيرها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظى بها ، فقال :

صادت فؤادي يا بثين حبالكم   يوم الحجون وأخطأتك حبائلي
منيتني فلويت ما منيتني   وجعلت عاجل ما وعدت كآجل
وأطعت فيَّ عواذلا فهجرتني   وعصيت فيك وقد جهدن عواذلي
يعضضن من غيظ عليّ أناملا   ووددت لو يعضضن صم جنادل
ويقلن إنك يا بثين بخيلة   نفسي فداؤك من ضنين باخل

ويجيد جميل التصوير أحياناً ، ويبدع في الإستعارات والتشابيه ، قال :

بثينــة من صنف يقلبــن أيدي م   الرمـاة ومـا يحملن قوســاً ولا نبلاً
ولــكنها يظفــر ن بالصيد كلها   جلون الثنايا الغـر والأعـين النجلا

وقيل إن جميلاً سار مرة ستة أيام وست ليال ليرى بثينة   ولعل أجمل ما يقال فيه قوله :

فلــو تركت عقلي معــي ما طلبتها   ولــكن طلابيها (1) لما فات من عقلي

(1) طلبي إياها .

اللهو والخمريات

يغلب اللهو على أكثر الشعراء ، وكانت الخمر وما تزال من أكبر العوامل التي تساعد على اللهو والطرب والسرور ، ومن أكبر الأسباب التي تساعد على تفتيق القرائح ، وتعين الشعراء على فك الخيال من قيود الوعي ، والتحليق به في عالم الأحلام .

وكان الشعراء في الجاهلية يشربون الخمر للهو والطرب والإفتخار بالكرم ، شربها طرفة ليلهو بها عن همومه ، وابن كلثوم للدلالة على زعامته ، وقال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم

والمشوف المعلم الدينار المنقوش المجلو ، قال الزوزني شارح المعلقات : « والعرب تفتخر بشرب الخمر ولعب القمار لأنهما من دلائل الجود عندها » .

وجاء الإسلام ، وأمر بتجنب الخمر ، فامتنع الشعراء عن الجهر بشربها ، والتفنن في وصفها ، وكان الأخطل وهو نصراني لم تمتنع عليه الخمر ، فشربها وتفنن في وصفها وبيان تأثيرها ، وعيره جرير بذلك ورد حكمه عندما فضل الفرزدق عليه بحجة أن حكم السكران باطل .

وكان العصر العباسي ، وقوي نفوذ الفرس ، وضعف تأثير الدين في نفوس أكثر الشعراء ، فشربوا الخمر وتفننوا في وصفها ووصف السكران ، واتخذوا منها سبيلاً إلى الإغواء والكفر ، ومعولاً يهدمون به صرح الأدب القديم ، وجعلوها شعار

التجديد ، وردوا بها على علماء الدين ، فحللوا الخطايا ، قال أبو نواس :

تكثر ما استطعت من الخطايا ... فإنك واجد ربا غفورا

وتفنن الشعراء في وصف الخمر ، وأدخلوها ميدان الفلسفة ، قال أبو تمام :

وقديمة قبل الزمان حديثة ... جاءت وما نسبت إلى آناء
روح بلا جسد تعين بلا قوى ... وقوى خلقن خفية من ماء

والقدم والروح من مصطلحات الفلسفة ، ويرى أكثر الفلاسفة أن الله وحده قديم ، وأن النفس خلقت قبل أن يخلق الجسد ، وأن الروح أحدثت قبل أن تحدث المادة ، أما أرسطو وأتباعه فيرون أن المادة قديمة قدم الخالق ، وأن الروح ما هي إلا حركة المادة ، ولعل أبا تمام كان نهباً بين الرأيين .

وتأثر الشعراء بأبي نواس ، فوصفوا الخمر وتفننوا في وصفها ، وتركوا الإستهلال بالوقوف على الأطلال ، وما زالت الخمر تتغلغل في الشعر وتهيمن عليه حتى اتخذها الصوفيون شعاراً يرمز إلى الله ، فوصفوها صفات لا تليق إلا به ، قال ابن الفارض :

ولو وضعوا في فيء حائط كرمها ... عليلا وقد أشفى لفارقه السقم

وجعلها شعراء الغزل رمزاً لريق الحبيب ، وجعلوا من لونها صفة لخده ، وما زالوا إلى اليوم يتفننون في وصفها ، ويتخذون منها سبيلاً إلى تفتيق القرائح ، وعاملاً قوياً من عوامل الطرب واللهو والسرور .

الأعشى (توفي حوالي 629 م)

شاعر جاهلي ينتهي نسبه إلى بكر ، ولقب بالأعشى لسوء بصره ، وبأبي بصير

تفاؤلاً ، والعرب يلقبون الشيء أحياناً بضده ، فاللسوع عندهم السليم ، والبيداء المفازة .

وكانت دار الأعشى مجتمعاً للشبان اللاهين ، ومنزلا لطلاب اللهو والسرور ، وكان إذا نفد ماله ضرب في آفاق الأرض مادحاً متكسباً ، يمدح الملوك والأمراء والزعماء وكل من يرى فيه وسيلة إلى كسب المال ، فإذا نال ما يرضيه عاد إلى الشرب واللهو والطرب ، فإذا نفد ما جاء به عاد إلى المدح والتكسب . قيل إنه اتصل بكسرى ملك الفرس ومدحه ، فلم يعجب كسرى شعره ولكنه أمر له بصلة .

وظل الأعشى على حاله من اللهو والشراب ووصف الخمر حتى كان الإسلام ، فنظم قصيدة يمدح بها النبي ، وقصده إلى الحجاز ، فتعرضت له قريش وجمعت له مائة من الأبل ، وقالت له إن الدين الجديد يحرم الخمر ، وطلبت منه أن يؤجل اتصاله بالنبي إلى العام المقبل ، فعاد ليشرب بقية من الخمر بقيت عنده ، فوقع في طريقه عن ناقته ، فدقت عنقه ومات .

والأعشى أول شاعر في الأدب العربي ، وصف الخمر وتفنن في وصفها ، وأجاد في وصف السكران والساقية ، قال :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

والخمر كالدنيا ، كلما اغتنى الإنسان ازداد في طلب المال ، أو كالماء الملح كلما شرب الإنسان منه ازداد عطشاً ، وخمر الأعشى نبيذ التمر . والنبيذ يجود كلما ازداد احمراره ، فإذا قوي كحله وصب في الكأس علاه الزبد ، قال :

كميت تكشف عن حمرة ... إذا صرحت بعد ازبادها

وإذا اعتقت الخمر صفا لونها ، وأفضل الخمر المعتقة ، فإذا كانت كذلك حلم الإنسان بها فقام إليها قبل الصباح ، قال :

وكأس كعين الديك بادرت خدرها ... بفتيان صدق والنواقيس تضرب

وقال :

تريك القذى من فوقها وهي فوقه ... إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

ومن لوازم الخمر الطرب والغناء ، وأفضل آلات الطرب في الجاهلية العود ؛ فإذا كانت الساقية قينة جميلة رخيمة الصوت ازدادت الشهية للخمر ، وزادت اسباب الطرب والسرور . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف ... مقلص أسفل السربال معتمل [1]
ومستجيب تخال لصنج يسمعه ... إذا تراجع فيه القينة الفضل [2]
والساحبات ذيول الريط آونة ... والرافلات على أعجازها العجل [3]

ومن لوازم الخمر مجلس حسن ، وحديث طريف ، وفتية ظرفاء ، فلسفتهم أن الحياة قصيرة ، فإذا لم يغتنم الإنسان فرص الملذات ضاعت عليه ، قال الأعشى :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل
لا يستفيقون منها وهي راهنة ... إلا بهات وأن علوا وأن نهلوا [4]

ويتفنن الأعشى في وصف الساقيه والخمر وتأثيرها ، ووصف الشرب والندامى ، والقيان والمغنين والات الطرب ، حتى لا ينسى وصف شاوي اللحم ، قال :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاو مشل شلول شلشل شول

وإذا لم يكن عجز هذا البيت من صنع الرواة فلا شك في أن الأعشى قاله وهو سكران ، لأنه إلى كلام السكارى أميل ، وبتعتعتهم أقرب .

---

(1) النطف : القرط واللؤلؤ ، والمعتمل . النشيط
(2) المستجيب : العود ، ترجع : تردد صوتها ، الفضل : التي تلبس الثياب الخفيفة .
(3) الريط : الثوب ، العجل : وعاء الخمر واللبن والماء .
(4) راهنة : حاضرة ، علوا : شربوا مرة بعد مرة .

الأخطل (حوالي640 م ـ710 م)

هو غياث بن غوث من قبيلة تغلب ، ولقب بالأخطل لخبث لسانه والأخطل السفيه ، ويكنى بأبي مالك ومالك أكبر بنيه ، ويروى أنه هجا زوج أبيه صغيراً بعدما خدعها ليأكل تمراً وزبيباً ولبناً .

وأراد يزيد بن معاوية هجاء الأنصار لتعرضهم لأخته فكلف الأخطل بذلك فهجاهم هجاء مرا قاسياً ، ثم انقطع إلى يزيد يمدحه ويهجو خصوم بني أمية ، ثم أصبح شاعر الأمويين الخاص يمدحهم ويهجو أعداءهم وكان له دالة على عبد الملك ابن مروان قيل أنه كان يدخل عليه ولحيته تقطر خمراً فيغتفر له ذلك طمعاً في شعره ، ومات في خلافة عبد الملك سنة95 هـ ، وقيل سنة92 هـ . وروى بعضهم أنه أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز .

والأخطل أحد الشعراء الثلاثة المقدمين في عصر بني أمية وهم الأخطل والفرزدق وجرير ، وشعره أقوى من شعر جرير ، وأبعد من شعر الفرزدق عن الضعيف الساقط ، وقد أجاد في المديح والهجاء ، ووصف الخمر ، وهو من أشهر شعراء السياسة في الأدب العربي .

والأخطل في وصف الخمر صادق مطبوع ، وكان يشربها جهاراً دون حياء أو وجل ، وأجود الخمر المعتقة ، قال :

صهباء قد كلفت من طول ما خبئت   في مخدع بين جنات وأنهار

وسطا الأخطل على الأعشى في بعض صوره ، فالخمر عندهما صافية لا يختلط بها القذى قال الأخطل :

ولقد تباكرني على لذاتها   صهباء عالية القذى خرطوم

وقال :

وكأس مثل عين الديك صرف   تنسي الشاربين لها العقولا

وربما كان الأخطل في وصف تأثير الخمر أجود منه في وصف الخمر نفسها ، وأقوى أثر للخمر أنها تبعث في نفس شاربها روح العجب والكبرياء ، وتضعف عقله الواعي فيعلو على الملوك والأمراء ، ويخيل إليه أنه فوق كل عظيم ، وقوة الخمر في تلك الفترة التي يرى بها النشوان نفسه فوق الناس يجر الذيل تيهاً . روي أن عبد الملك قال للأخطل يوماً « وما تصنع بالخمر ؟ وإن أولها لمر ، وإن آخرها لسكر » قال : « أما إن قلت هذا أو ذاك فإن بينهما لمنزلة ما ملكك فيها إلا كلعقة من ماء الفرات بالأصبع » وأنشد :

إذا ما نديمي علني ثم علني ... ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيها كأنني ... عليك أمير المؤمنين أمير

ومن جيده في وصف تأثيرها قوله :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسي الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثا ... بغير الماء حاول أن يطولا
مشى قرشية لا شك فيها ... وأرخى من مآزره الفضولا

وأجاد الأخطل في وصف السكران ، والسكران كالميت كلما اسندته من جهة أنهار من جهة أخرى قال :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل (1)
نهاديه أحياناً وحينا نجره ... وما كاد إلا بالحشاشة يعقل
إذا رفعوا عضواً تحامل صدره ... وآخر مما نال منها مخبل

ويفوق الأخطل الأعشى في وصف السكران ، ويسبقه في وصف تأثير الخمر في الأجسام ، ودبيبها في المفاصل والعظام قال :

تدب دبيباً في العظام كأنه ... دبيب نمال في نقا يتهيل (2)

---

(1) الشرب بفتح الشين جمع شارب .
(2) النقا : ما ارتفع من الرمل ، يتهيل : يتحدر .

والخمر تخدر شاربيها تخديراً يجدون فيه نشوة تعقبها لذة ، وراحة يتبعها ارتخاء في المفاصل ، أما الأعشى فيفوق الأخطل في وصف لوازم الخمر من طرب وغناء وندمان .

والأخطل شاعر السياسة في العصر الأموي ، وكان متعصباً لبني أمية يمدحهم مديحاً سياسياً صادقاً ، ويهجو خصومهم هجاء سياسياً مطبوعاً ، وكانت تغلب من أقوى أنصار أمية وأشدهم إخلاصاً لها ، فقد كانت أمية في الجاهلية حملة اللواء ، وكانت تزاحم الهاشميين على زعامة العرب فلما جاء الإسلام أصبحت في المرتبة الثالثة بعد المهاجرين والأنصار ، وكانت تغلب في الجاهلية أقوى القبائل العربية وأعزها ، فلما انتصر الإسلام أصبحت كغيرها من القبائل ، وكان الأمويون يتبعون في حكمهم سياسة عربية عنصرية فيفضلون العربي ولو كان نصرانياً على المولى ولو كان من أتقى خلق الله ، وكان قسم من تغلب ما يزال على نصرانيته في عهد الأمويين ، وإذا كان الإسلام قد قضى على العصبية القبلية فقد قامت في عهد بني أمية عصبية قبلية جديدة فكانت اليمانية من أنصار بني أمية ، والمضرية من خصومهم ، وتغلب من ربيعة لا من مضر ولذلك ولأسباب أخرى أنضمت إلى الأمويين .

والشاعر السياسي في تلك الأيام ، كالصحيفة السياسية اليوم يدعو بدعوة حزبه ويؤيد حقه ، ويهدم دعوة خصومه ، وكان بنو أمية يستندون في حقهم بالخلافة إلى أن عثمان بن عفان الخليفة الأموي قتل ظلماً ولم يثأر من قاتليه ، وكانوا يتهمون علياً بقتله ويدعون أنه أكرم القتلة ، وولاهم الأمصار وإذا كان الله قد أخذ بيدهم فلأنهم على حق ، قال الأخطل :

ويوم صفين والأبصار خاشعة	أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد
على الأولى قتلوا عثمان مظلمة	لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا
وأنتم أهل بيت لا يوازنه	بيت إذا عدت الأحساب والعدد

وكان من شروط الحاكم عند العرب أن يكون سليل بيت يعلو بشرفه على سواه

ولذلك جعل الأخطل بني أمية في الذروة من الشرف فحق لهم الحكم ، وهنالك صفات لا بد أن يتحلى بها الحاكم حتى يؤيده الناس ويكون أهلاً للولاية عليهم ، ومن ألزم الصفات للحكام القدرة على الأعداء ، والحلم عند المقدرة ، قيل آلة الرئاسة سعة الصدر أما البطر فشر الصفات في الحكام ، قال الأخطل في بني أمية :

في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما أن يوازي بأعلى نبتها الشجر (1)
شمس العداوة حتى يستقاد بها ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا(2)

أعطاهم الله جداً ينصرون به ... لا جد إلا صغير بعد محتقر (3)
لم يأشروا فيه إذ كانوا مواليه ... ولو يكون لقوم غيرهم أشروا (4)

ويذكر الأخطل في شعره السياسي المواقع التي انتصر بها بنو أمية ، وفي ذكر الحقائق والوقائع من الدعوة السياسية ما يفوق كل دعوة .

وكان للأمويين عند الأنصار ثأر فقد قتلوا في معركة بدر عدداً من زعمائهم ، ولكن معاوية كان يتبع في حكمه سياسة اللين والمصانعة . واتفق أن تعرض شاعر الأنصار لأخت يزيد فأوعز إلى الأخطل بهجاء الأنصار فقال الأخطل :

خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بني النجار(5)
ذهبت قريش بالمكارم والتقى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

وكان لهذا الهجاء أثره في الأنصار ، فجاء أحد زعمائهم إلى معاوية مهتاجاً وحسر عن رأسه وقال : « يا أمير المؤمنين : أترى لؤماً ؟ » قال « لا بل أرى كرماً وخيرا » فشكا إليه الأخطل فوهبه لسانه ولكن يزيد شفع به فعفا عنه .

---

(1) النبع . نوع من الشجر
(2) شمس : جمع شموس وهو الفرس الذي لا يمكن من ظهره .
(3) الجد : الحظ .
(4) أشروا : بطروا .
(5) المساحي الارض المستوية ذات حصى صغار لانبات فيها وبنو النجار اخوال النبي (ﷺ) .

أبو نواس (762 م ـ813 م)

هو الحسن بن هانىء ، من الموالي الفرس على الأرجح ، ومن أشهر شعراء العصر العباسي الأول ، ولد في قرية من كورة خوزستان سنة 154 هـ الموافقة لسنة 762 م . وكني بأبي نواس لذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه وهو صبي ، وقيل تشبهاً بملوك حمير .

ومات أبوه وهو صغير فجاءت أمه إلى البصرة ، وفي البصرة درس اللغة وبرع في الفصاحة ، وأولع بالشعر ، واتصل بوالبة بن الحباب الشاعر الخليع فأعجب به وانتقل معه إلى الكوفة ، وعاشر المجان والخلعاء ففسدت أخلاقه ، ثم ذهب إلى البادية يتخرج على الاعراب في الفصاحة والبلاغة ، ولما عجم عوده قدم بغداد وهو فوق الثلاثين فاتصل بالرشيد ومدحه ونال جوائزه ، ولم يرعو عن مجونه وفسقه وسكره وشدد الرشيد عليه وحبسه مرارا .

وذهب إلى مصر فمدح الخصيب ونال جوائزه ، ولكنها لم ترضه ، فعاد إلى بغداد ناقماً هاجياً ، ثم أتصل بالأمين ، وأحبه حباً قوياً ، وعاش في ظل خلافته خمس سنوات كلها نعيم وهناء ، وعبث ومجون مع فترات قصيرة كان يشدد الأمين فيها عليه ويحبسه ثم لا يلبث أن يرضى عنه فيطلقه .

ولما قتل الأمين تاب أبو نواس ، وزهد في الحياة ، وأبى أن يتصل بالمأمون ولم تطل حياته بعد ذلك ، ومات تائباً عن مجونه ، مكفراً عن فسقه ، وكانت وفاته سنة 199 هـ . الموافقة سنة 813 م .

وكان حسن الوجه ، رقيق اللون ، حلو الشمائل ، ناعم الجسم ، عظيم الرأس ، شعره منسدل على وجهه وقفاه دائماً ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، حلو الصورة ، وكان كثير النوادر ، خفيف الروح ، شديد السخر ، ماجناً عابثاً ، يفتخر بالفسق ، ولا يتورع عن الفاحشة ، وكان متعصباً للفرس يهاجم العرب والأعراب قال ابن رشيق : « وكان شعوبي اللسان وما أدري ما وراء ذلك » .

وهو حامل لواء التجديد في الأدب العربي . قيل : « أبو نواس في المحدثين كامرىء القيس في المتقدمين » وقد استبدل بثوب التقليد القديم من الوقوف على الأطلال وبكاء الحبيب ثوباً زاهياً جديداً ،وكان له أثره فيمن جاء بعده من الشعراء فأخذوا يقلدونه في الإستهلال بالخمر ، والتفنن في أوصافها ، كما كان الشعراء قبله يقلدون أمرأ القيس في الوقوف على الأطلال وبكاء الأحباب . وربما كان تأثير أبي نواس أقوى وأشد فقد أصبحت الخمر رمزاً لأشياء كثيرة كالحبيب والله وغيرهما .

الخمر

قال أبو نواس : « وأما الذي أنا فيه وحدي وكله جيد فإذا وصفت الخمر » .

لا شك في أن أبا نواس سطا على الأعشى والأخطل في بعض خمرياته ، ولكنه فاقهما في وصفهما ، وفي الأغراض التي اتخذ الخمر سبيلاً لها ، قال الأعشى :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وقال أبو نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

ويزيد أبو نواس على الأعشى في الشطر الأول حكمة سامية هي من أحدث السبل في التربية الحديثة فاللوم لا يرد الغاوي عن غيه ، والعقاب لا يمنع الشرير عن شره ، والقانون لا يمنع السكير من سكره ، وقد منعت الولايات المتحدة الاميركية الخمر ، فأكثر الناس من شربها فاضطرت الى الرجوع عن منعها ، اما في الشطر الثاني فداء ابو نواس يحتاج الى الدواء ابداً ، اما داء الاعشى فلا يصاب به الا اذا شرب الكأس الاولى ، وقال الاخطل :

تدب دبيباً في العظام كأنه ... دبيب نمال في نقايتهيل

وقال أبو نواس :

كأساً كأن دبيب النمل فترتها ... لديغها يشتفي من نفث راقيها

وإذا كان الدبيب واحداً عند الشاعرين ، فأبو نواس يزيد مداواة الداء بالداء ، ويجيد أبو نواس في وصف الخمر فهي معتقة قديمة لو تكلمت لنطقت بأخبار الأمم والشعوب ، وهي إذا أطلت على الشرب كانت كالصبح يدفع في قفا الظلماء ، وهي صفراء حيناً يعلوها الكلف ، وحمراء حيناً إذا انحدرت في حلق شاربها اكسبته حمرتها في الوجه والعين والخد ، وهي حيناً صافية كالضياء ، وحيناً خفيفة لا تمتزج بالماء ، وحيناً شفافة تجفو عنه فلا يمازجها غير النور قال :

رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء

ويجيد أبو نواس وصف السكران ، فهو لا يعي إلا إذا أراد أن يطلب المزيد :

كم مترف عقل الحياء لسانه ... فكلامه بالوحي والإيماء
حركته بيدي وقلت له أفق ... يا سيد الخلطاء والندماء
فأجابني والسكر يخفض صوته ... والصبح يدفع في قفا الظلماء
إني لأفهم ما تقول وإنما ... رد التعافي سورة الصهباء

ويسير أبو نواس مع الطبع في وصف الخمر والسكران حتى يسهل شعره فيصبح كتابة معقودة بالقوافي ، وكأنه السهل الممتنع ، قال :

تفتير عينيك دليل على ... انك تشكو سهر البارحة
ونفحة الخمر وأنفاسها ... والخمر لا تخفى لها رائحة

وما يزال أبو نواس المرشد المحبوب الذي يهدي الناس سبيل اللهو والطرب والسرور ، قال :

وإذا الهموم تعاورتك فسلها ... بالراح والريحان والندمان

ويجيد أبو نواس في وصف الخمر والكأس والساقية والمجلس الحسن قال :

لا تبـك ليلى ولا تطـرب إلى هند　　　واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأساً إذا انحدرت في حلـق شاربها　　　أجدتـه حمرتهـا في العـين والخد
فالخمـر ياقوتـة والـكأس لؤلؤة　　　من كف جارية ممشوقـة القد
تسقيك من يدهـا خمـراً ومـن فمها　　　خمـرا فما لك من سكرين من بد

ويتخذ أبو نواس الخمر شعاراً للجديد ، وسلاحاً يحارب به القديم والتقليد ، وهو لا يعرف في حربه هوادة ، ولا يؤمن في هجومه برأفة ، فالقديم كلام الحمقى والغلاظ والمجانين ، وما ضر الواقفين على الأطلال لو قعدوا ، قال :

قل لمن يبـكي على رسـم درس　　　واقفـاً ما ضر لو كان جلس

وقال :

صفـة الطلـول بلاغـة الفدم　　　فاجعـل صفاتـك لابنـة الكرم (1)

وما زال يهاجم القديم ساخراً أحياناً ، ومستهزئاً أحياناً ، ومشدداً الهجوم على خصومه أحياناً حتى نجح في نقل الشعر من البكاء إلى السرور ، ومن الشقاء إلى اللهو والطرب ، ومن الصحراء والأطلال إلى مجالس اللهو والطرب والحانـات ، قال :

عـاج الشقـي على رسـم يسائله　　　وعجت أسأل عن خمارة البلد

واتخذ أبو نواس من الخمر سلاحاً يهاجم به العرب ، ويفتخر العرب بأدبهم ودينهم ، أما أدبهم فقد جعله أدب الحمقى والمجانين والأشقياء والباكين ، إما الدين فقد واقع غير ما حلله ، ودعا الناس إلى ارتكاب محرماته ، وأي خير في الخمر أن لم تكن سبيلاً إلى الكفر ، أما المتدينون الذين يحرمون نفوسهم ملذات الدنيا خوفاً من

---

(1) الفدم : الغليظ الأحمق .

النار فإنهم سيندمون قال :

فــلا خــير في شرب بغــير مجانة ولا في مجـون ليس يتبعـه كفر

وقال :

تعض ندامــة كفيك مما تركت مخافــة النــار السرورا

واتخذ من الخمر سبيلاً إلى الخطايا والآثام ، ومن الخطيئة سلاحاً يهاجـم به علماء الدين ، ومن علم الكلام وسيلة للرد على المعتزلة وعلماء الكلام ، ومن اللهو والملذات طريقاً واسعة يمهدها للراغبين في الدنيا وملذاتها ، فيغويهم ويضعف تأثير الدين فيهم ، ومن الزندقة سنداً للشعـوبية تفت في عضـد العـرب وتسعى إلى تفريقهم ، وإذا لم يرتكب الإنسان الخطايا سلب الله اجمل صفة من صفاته ، وأي معنى للغفران دون ارتكاب المحرمات :

تكثـر ما استطعـت من الخطايا فإنــك واجـد ربـا غفورا

الوصف

الوصف ميدان من الشعر فسيحة جنباته ، مديدة آفاقه ، ينبسط حتى يضم تحت جناحيه اكثر فنون الشعر المعروفة ، قال ابن رشيق « الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف » وقال أحد نقاد الأفرنج « الشعر ابن الخيال البكر » وقال آخر « الشاعر اثنان احدهما يصور صورة ، والآخر ينشد أنشودة » .

والشاعر رسام يصف بكلماته ما يرسمه المصور بألوانه ، وكلاهما يتخذ من المناظر التي يراها مواد يبتدع صورها ، ويتفنن في تجويد رسمها فإذا بالفن أجمل من العلم ، وإذا بالخيال أحلى من الواقع ، وأفضل الإبتداع ما كان بينه وبين المألوف صلة ، والخيال المبدع يحلق في أجواء الفن ولكنه إذا قطع صلته بالأرض جمح فتدهور .

الوصف في الجاهلية

الشعراء متأثرون ببيئتهم يسيرون في الدرب التي تشقها لهم حياتهم ، ولذلك غلب على الشعر الجاهلي وصف البادية والفرس والصيد والناقة ، ووصف البرق والمطر والليل وسائر مايتعلق بحياة الشاعر الجاهلي ،والمشاهد في الجاهلية قليلة ولذلك تفنن الشعراء في وصفها فأبدعوا غير أن الشاعر الجاهلي لم يتعمق في الأوصاف الخيالية ولم يحلق في الإبتداع المعنوي ، وإنما حلق وأجاد في الوصف التشبيهي ، وللعرب في الجاهلية تشبيهات ما زلنا نسطو عليها ونقلدهم فيها ، فالوجه ما يزال كالصبح والشعر كالليل وعين المرأة كعين المهاة وجيدها كجيد الرئم الخ . .

في صدر الإسلام

الفرق بين الحياة في الجاهلية وبينها في صدر الإسلام ضعيف يكاد لا يظهر ، ولذلك لم يختلف الوصف في الشعر الأموي عنه في العصر الجاهلي اختلافاً كبيراً ، إلا ما كان من وصف الجنائن والأنهار مما شاهده العرب في العراق والشام ، ولم يعرف العرب في صدر الإسلام آداب الأمم الأخرى فظل الخيال العربي يحن إلى البادية ويتأثر بمشاهدها .

في العصر العباسي الأول

تأثر العرب في العصر العباسي الأول بالفرس والروم وأخذوا من الفرس أدبهم وفلسفتهم ، ومن الروم علمهم ومنطقهم ، فاتسع الخيال العربي ، وكثر فيه الإختراع والإبتداع وعمل فيه المنطق فانتظمت الصور ، وترابطت الأجزاء ، ووصف الشعراء مشاهد الحضارة ، ومرئيات الترف والنعيم ، وتفننوا في وصف الأزهار والرياحين ، ومجالس اللهو والطرب ، والعبث والمجون . واتخذوا ألوان صورهم من الجواري والغلمان والخمر والذهب والفضة ، والعاج والحرير والديباج ، وربطوا بين أجزاء الصورة ربطاً عقلياً محكماً ، ولم يتورعوا عن التفلسف في الوصف ، وجعلوا الخمر روحاً بلا جسد ، تعين بلا قوى الى غير ذلك من الأوصاف المعنوية العميقة ، وتفننوا في تصوير المعاني فشبهوا الحسود بالنار وغير ذلك من الصور التي ابتدعوا بعضها ، ونقلوا غيرها .

إلى عصر النهضة

اختلفت الأمصار التي تتألف منها الدولة العباسية من حيث السياسة والثقافة ، ومن حيث الخيال والأدب ، فاختلف الوصف باختلاف الأمصار وتنوعت الصور بتنوع الشعراء فابتدع بعضهم وقلد الآخرون ، ووصف المتنبي غير وصف ديك الجن الحمصي ، وما زال الوصف يسير مع الشعر في طريق التطور حتى أمسى تقليداً لا ابتداع فيه ، وقولاً مكرراً لا تجويد في رسومه .

الوصف في النهضة

تأثر النثر في النهضة بالتجديد أكثر مما تأثر الشعر ، ولكن الشعر كان له من التطور نصيب كبير ، فقلد الشعراء بعض شعراء الوصف المشهورين القدماء وجدد بعض الشعراء في وصف اشياء لم يعرفها القدماء، كالسيارة والطيارة والقطار والكهرباء وغير ذلك . غير أن الأوصاف القديمة ظلت تطغى على الشعراء إلى اليوم .

امرؤ القيس (نحو497 م ـ545 م)

قيل ان اسمه جندح وأن امرأ القيس لقب غلب عليه ومعناه رجل الشدة ، وقيل أن امرأ القيس اسم لا لقب ، وذكره مؤرخو الروم بإسم قيس .

وهو من قبيلة كندة من اليمن ، وكان أبوه ملكاً على أسد فولد امرؤ القيس في نجد ، وربي فيها ونظم شعره بلغة مضر ، وقيل ان أمه فاطمة بنت ربيعة أخت المهلهل ، وقيل ان فاطمة هذه زوج أبيه لا أمه وقد أحبها وتغزل بها فطرده أبوه .

وكان أصغر أخوته سناً فانصرف عن الجد إلى اللهو ، وعن العظمة والوقار إلى العبث ونظم الشعر والتغزل بالنساء ، وجاوز في غزله ما يليق بأبناء الملوك فنهاه أبوه فلم ينته ، وقيل ان أباه اطلع على علاقته الغرامية بزوجه فاطمة فغضب عليه وطرده .

وجمع امرؤ القيس جماعة من الشذاذ وطلاب اللهو أمثاله وأخذوا يتنقلون من غدير إلى غدير يقومون إلى الصيد قبل الطير حتى إذا أضحوا واشتد الحر عادوا إلى غديرهم يذبحون ما اصطادوه فيشوي لهم الطهاة ويطبخون ، وتغني لهم القيان فيأكلون ويشربون الخمر ويتنادمون ويلهون ويعبثون حتى يمسوا فإذا أصبحوا عادوا إلى الصيد والشواء والعبث فإذا جفت مياه الغدير انتقلوا إلى غدير آخر لا يحملون هما ولا يفكرون بغد ، فإذا هطلت الأمطار لم يعدموا من يأويهم من أحياء العرب حتى يعودوا إلى لهوهم ونعيمهم .

وظل امرؤ القيس طريد ابيه يلهو ويعبث وينظم الشعر وينتقل من غدير إلى غدير ، وينتقل من مكان إلى مكان حتى قتل أبوه فإذا بحياته تتبدل ، وإذا به ينقلب شخصاً جديداً ، لا يمت إلى الشخص القديم بصلة ، فيترك اللهو والعبث وينصرف إلى الأخذ بثأر أبيه من بني أسد فيجمع القبائل ويطوي بلاد العرب والشام حتى يصل إلى القسطنطينية مستنجداً بقيصر الروم ثم يموت غريباً في انقره .

وامرؤ القيس من أشهر شعراء الجاهلية ، وأحد الثلاثة المقدمين فيها وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، ويمتاز امرؤ القيس بروعة خياله ، وجمال وصفه ، وهو أقرب شعراء الجاهلية إلى الأدب الرفيع ، وله أشياء ابتدعها وسار الشعراء على دربه فيها ، ورسومه واقعية يسهل على الرسام نقلها ، ويقرب إلى الافهام والأذواق مأخذها ، وقد أكثر من وصف فرسه حتى قيل « أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب » .

وعاش امرؤ القيس في دوره الأول متنقلاً من مكان إلى مكان لا يشغل فكره شاغل ، ولا يلهيه عن فنه مله ، ولا يمنع خياله عن التحليق في فضاء الطبيعة مانع . ولما قتل أبوه أخذ يجوب انحاء الجزيرة العربية ، ظهر فرسه وطنه ، وسيفه اليفه ، والغبراء فراشه ، والسماء لحافه والنجوم ندماؤه ، وضاقت عنه الجزيرة فيمم بلاد الروم ومر ببعلبك وحمص فرأى من المشاهد. ما لم يره شاعر جاهلي آخر والخيال ثمرة من ثمار المشاهد قبل أن يكون آلة الفن والإبداع .

ولأمرىء القيس في الوصف صور فنية تستحق أن تكون الواحاً رائعة لو صورت ، قال يصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله	علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
إلا أيها الليل الطويل الا انجلي	بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كان نجومه	بأمراس كتان إلى صم جندل

وتشبيه الليل بموج البحر صورة رائعة مهيبة ، والجامع بينهما الأبدية والرهبة ، فالبحر يظهر للناظر إليه أنه يمتد بآفاقه إلى الدهر ، وليل المتألم البائس اليائس لا صبح بعده طول العمر ، والبحر والليل كلاهما رهيب مخيف ، وبين الأمواج في علوها وهبوطها أشباح مرعبة ، وتحت وميض البرق خيالات مهيبة رائعة ، والأشباح من أخصب موارد المصورين ، والشعراء يعيشون في عالم الخيالات والأشباح .

ويشخص امرؤ القيس في البيت الثاني الليل ويبعث في جماده الحياة ، وأجمل الصور أقربها إلى الحياة ، وقد يخيل إلينا أن البيت الثالث خال من التصوير ، ولكننا إذا انعمنا النظر فيه رأينا الشاعر قد انتقل من التصوير المادي إلى التصوير المعنوي ، وإذا كانت النفس مصدر الهموم ، فالليل والصبح عندها سواء ، أما البيت الأخير ففيه صورة مادية جمالها في سهولتها الممتنعة .

ومن صور امرىء القيس الفنية النادرة قوله يصف البرق :

أصاح ترى برقاً اريك وميضه	كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب	أمال السليط بالذبال المفتل

وفي البيت الأول صورة مادية جمالها في قربها من الواقع ، ولمعان البرق يشق أكاليل السحاب أشبه ما يكون بحركة اليدين في شكله وسرعته ، أما البيت الثاني ففيه صورة رائعة من صور امرىء القيس الفنية ، ولمعان البرق في الليلة الظلماء وضوء الكنيسة الضئيل كلاهما يخلق أشباحاً رهيبة وخيالات مرعبة .

ومن صوره النادرة قوله في وصف الحرب :

والحرب أول ما تكون فتية	تبدو بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها	عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشم والتقبيل

وتروى هذه الأبيات لشاعر آخر ، ولكن خصائص امرىء القيس الفنية

ظاهرة فيها ، والحرب في أول أمرها براقة خداعة كأنها فتاة متبرجة غاوية ، وكما ينخدع الجهال بالفتيات المتبرجات ينخدع الأغرار بالحرب البراقة ، وكما تتكشف المتبرجة عن عجوز قبيحة شمطاء ، تتكشف الحرب عندما تقوى وتشتد عن القتلى والجرحى ، وعن الشر والظلم والدمار ، والحرب كالعجوز النحس كلتاهما شر وشر ما فيهما أن العالق في حبال العجوز لا يرى بداً من تقبيلها ، والعالق في شراك الحرب لا يعرف كيف يتخلص منها .

ومن صور امرىء القيس الفنية قوله يصف فرسه :

مكر مفر مقبل مدبر معا — كجلمود صخر حطه السيل من عل

ونرى هذه الصورة في الألياذة ولا شك في أن امرأ القيس لم يسرقها عن هوميروس .

وقد أكثر امرؤ القيس من وصف فرسه وأجاد حتى قيل أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ولكن أوصافه لفرسه متشابهة في صورها مكررة في لفظها ، معادة في معناها ، ولا يتعدى وصفه لفرسه كبر جثته وهزاله ، وأنه يسبق الوحوش ولا يعرق في سرعته ، وجسمه ناعم قليل الشعر ، وذنبه طويل إلى آخر ما هنالك من الأوصاف التي نجدها في عدة قصائد من شعره ، ومن نوادره في وصف الفرس قوله :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة — وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

والذي أعجب الشعراء في هذا البيت جمعه أربعة تشابيه فيه ، وكثيرون هم الذين قلدوه في رص التشابيه رصاً مزحوماً مصنوعاً .

. ولامرىء القيس أشياء ابتدعها وقلده الشعراء فيها وما يزالون . قيل إنه أول من وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الأحبة والديار في شطر واحد من مطلع معلقته ، ولا نستطيع أن نفهم قوة هذا الحكم إلا إذا عرفنا أن الوقوف على الأطلال أصبح بعد امرىء القيس زياً متبوعاً وتقليداً قوياً مرعياً ، وقد اتبع الشعراء

سنة امرىء القيس زماناً طويلاً ، وكثيرون هم الذين وقفوا على الأطلال في شعرهم حيث لا أطلال ، وبكوا الأحبة والديار دون أن يكون ثمة دمن أو أطلال ، وكثيراً ما وقف الشاعر العباسي على الأطلال وبكى الأحبة والديار ووصف البادية وهجيرها، والصحراء ونيران شمسها ، وهو في أحضان الغواني في بغداد يتقلب ، وبين الكؤوس في الخمارات يتنعم .

وامرؤ القيس أول من شبه النساء بالمهى والظباء ، وظل الشعراء يسيرون تحت لوائه مئات السنين ، وكثيرون هم الذين شبهوا عيون النساء بعيون ألمها ، وأعناقهن بأعناق الظباء دون أن يروا ظبياً أو مهاة . قال امرؤ القيس :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقال :

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

وهو أول من قيد الأوابد ، قال :

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وأعجب الكتاب والشعراء بهذا القيد فقيدوا اللحاظ والقلوب ، وفلان قيد اللحاظ تتبعه العيون حيث سار فكأنه يقيدها .

وامرؤ القيس أول من زرع بذرة القصة الغرامية القصيرة فقد زار حبيبته ليلاً ، وسما إليها سمو حباب الماء ، وحياها فتولهت ثم اطمأنت فخرجا يعفي ثوبها على أثريهما ، ولكن فن القصة عنده مهلهل ضعيف يغلب عليه الوصف .

وأجاد وصف السحاب والمطر والسيل وغيرها من المناظر الطبيعية حتى حمل لواء الشعراء وقادهم إلى النار .

البحتري (820 م ـ897 م =205 هـ ـ284 هـ .)

اسمه الوليد ، وكنيته أبو عبادة ، وينسب إلى بحتر أحد أجداده . ولد في البادية ، ونشأ في منبج وهي بلدة قرب حلب عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الأدواء ، ليلها سحر كله ، فكان للطبيعة السمحاء أثر في صفاء خياله وجمال وصفه ، وروعة فنه .

ونظم البحتري الشعر حدثاً ، يمدح في أول أمره أصحاب البصل والباذنجان ثم أحب علوة الحلبية وشبب بها ، وظل يذكرها وهو في بغداد وهي في حلب .

واتصل بأبي تمام ، ودرس الشعر عليه ، ثم ذهب إلى بغداد واتصل بالوزراء والأمراء ، وأخيراً اتصل بالخليفة المتوكل ومدحه ونال عطفه وصلاته ، ولما قتل المتوكل رثاه رثاء مطبوعاً صادقاً كاد [illegible] حياته ، ثم عاد إلى الشام وأخذ يتردد إلى بغداد وسر من رأى يمدح الخلفاء والوزراء والأمراء ، وأخيراً مات في منبج بالسكتة .

والبحتري أحد شعراء الوصف الفني المقدمين في الأدب العربي ، قيل « أبو تمام والمتنبي حكيمان وإنما الشاعر البحتري » . ولشعره جمال في اللفظ وسهولة في التركيب ، وعلوق في النفس قيل فيه : « أراد أن يشعر فغنى » وقيل : « ان شعره كتابة معقودة بالقوافي » وإنه « كالشمس قريب ضوءها ، بعيد منالها » .

ويمتاز وصفه بالإنسجام والترتيب فهو يربط بين أجزاء صوره ، ويوفق بين رسمه وفكرته ، ويرتب ألوان رسومه ، ويسير في تصويره هادئاً لا يثب ولا يسف ، ولا يترك الصورة حتى يتمم أجزاءها ، ويربط بينها ربطاً منسقاً حكيماً ، ومن صوره الجميلة قوله يصف اللقاء :

بودي لو يهوى العذول ويعشق ... فيعرف أسباب الهوى كيف تعلق
وقد ضمنا وشك التلاقي ولفنا ... عناق على أعناقنا ثم ضيق
فلم تر إلا مخبرا عن صبابة ... بشكوى وإلا عبرة تترقرق

فأحسن بنا والدمع بالدمع واشج   بمازجه والخد بالخد ملصق
ومن قبل قبل التشاكي وبعده   نكاد بها من شدة الوجد نشرق
ولو عرف الناس التلاقي وحسنه   لحبب من أجل التلاقي التفرق

السينية :

1 صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدا كل جبس
2 وتماسكت حيث زعزعني الدهر - التماساً منه لتعسي ونكسي
3 وكان الزمان أصبح محمو   لا هواه مع الأخس الأخس
4 واشترائي العراق خطة غبن   بعد بيعي الشآم بيعة وكس
5 ولقد رابني نبو ابن عمي   بعد لين من جانبيه وأنس
6 وإذا ما جفيت كنت حرياً   أن أرى غير مصبح حيث أمسي
7 حضرت رحلي الهموم فوجهت - إلى أبيض المدائن عنسي
8 أتسلى عن الحظوظ وآسى   لمحل من آل ساسان درس
9 ذكرتنيهم الخطوب التوالي   ولقد تذكر الخطوب وتنسي
10 وهم خافضون في ظل عال   مشرف يحسر العيون ويخسي
11 حلل لم تكن كأطلال سعدى   في قفار من البسابس ملس
12 نقل الدهر عهدهن عن الجده - حتى غدون أنضاء لبس
13 فإذا ما رأيت صورة أنطا   كية ارتعت بين روم وفرس

(*) الجدا العطاء ، الجبس : الجبان . (4) الوكس : النقصان . (5) نبو : جفاء وبعد . (7) حضرت : جعلته حاضرا ، عنسي : ناقتي . (8) درس : بال . (10) خافضون . [illegible] برفاهية ودعة ؛ يحسر : يعي ويكل . (11) حلل بالكسر : جمع حلة وهي المحلة ، البسابس : جمع سبسب وهو القفر الخالي ، ملس : قفار ليس بها نبات . (12) أنضاء موازيل أو الثياب البالية .

14 والمنايا مواثل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
15 في اخضرار من اللباس على أصفر - يختال في صبيغة ورس
16 وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس
17 من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنان بترس
18 تصف العين أنهم جد أحياء - لهم بينهم إشارة خرس
19 يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس
20 قد سقاني ولم يصرد أبو م الغوث على العسكرين شربة خلس
21 من مدام تقولها هي نجم أضوأ الليل أو مجاجة شمس
22 أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة إلى كل نفس
23 وتوهمت أن كسرى أبرويز م معاطي والبلهبذ أنسي
24 حلم مطبق على الشك عيني أم أمان غيرن ظني وحدسي
25 وكأن الإيوان من عجب الصنعة م جوب في جنب أرعن جلس
26 يتظنى من الكآبة ان يبدو م لعيني مصبح أو ممسي
27 مزعجاً بالفراق عن انس ألف عز أو مرهقاً بتطليق عرس
28 عكست حظه الليالي وبات م المشترى فيه وهو كوكب نحس،
29 فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي
30 مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس

---

(14) مواثل : حاضرة ، يزجي : يسوق ، الدرفس : العلم الكبير . (15) ورس : صبغ أحمر . (16) خفوت : سكوت ، الجرس : الصوت الخفي . (17) المشيح : المقبل والمليح المحاذر . (19) يغتلي · يعظم ، تتقراهم : تتبعهم . (20) يصرد : يقلل . (21) المجاجة · ما ينفث من الفم . (25) جوب : ترس ، أرعن : أحمق ، جلس : غليظ أحمق والمعنى أن الايوان مستدير كالترس قائم في جنب بناء عظيم يشبه الجلس . (26) يتظنى : يطن فيه . (27) مرهقاً : متعباً ، عرس : زوجة .

31 لابسات من البياض فما تبصر م منها إلا فلائل برس
32 ليس يدري أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس
33 وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
34 وكأن القيان وسط المقا صير يرجحن بين حو ولعس
35 وكأن اللقاء أول من أمس م ووشك الفراق أول أمس
36 عمرت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
37 وأراني من بعد أكلف بالأشراف م طرا من كل سنخ وأس

غرض البحتري في الابيات الخمسة الأولى ، بيان اباثه وترفعه عن الدناءة والذل ، والشكوى من الزمان الذي يميل مع الأخس ، ويسعى في تعس الشريف ونكسه ، وقد وفق الشاعر في تصوير النفس الأبية يزعزعها الدهر فلا تلين ، وفي الأبيات الثلاثة التي تليها تألم البحتري من تركه الشام واستعاضته عنها بالعراق ، وقد عبر عن آلام الغربة أجمل تعبير ، وفي أبيات ثلاثة بعدها يذكر الأسباب التي من أجلها سافر إلى المدائن ، فهو لم يكرم في مكان لم يبت فيه .

ثم يتعزى البحتري عن مصابه بمصائب الملوك ، وتؤثر فيه عظمة الإيوان فتتحول عواطفه تأثرات أدبية فنية ، ويصف مجد الفرس الماضي وخفض عيشهم في

---

(29) تجلدا : تصبرا ، ككل : صدر ، مرس : ثابت . (30) رضوى وقدس : علمان لجبلين (31) الصلائل : جمع فليلة وهي الشعر المجتمع ، برس : القطن أو شبيه به . (32) ضاحين : بارزين للشمس ، حسرى : متلهفين واحدها حسير ، خنس : متأخرين . (34) يرجحن : يملن بالأرجوحة ، ويروى يرجعن أي يرددن أصواتهن بالغناء ، حو : سمر ، لعس : جمع لعساء وهي الجارية بها لعس وهو سواد مستحسن في الشفة . (37) اكلف : اعجب ، انزم ، سنخ : أصل .

سبعة أبيات وصفا جميلاً رائعاً ، ثم ينتقل إلى وصف الإيوان بصور فنية في نحو ثلاثين بيتاً ، ثم يرمي إلى الإعتذار عن تمجيد الفرس بأنهم أعانوا قومه قديماً ، وهو عذر فيه شيء من التكلف ، وبإعجابه بالاشراف من كل جنس ، وهو عذر وفق فيه الشاعر لأن المجد لا يميز بين أمة وأمة ، والإعجاب بالفن لا يعرف وطناً .

وميدان السينية الوصف لا الحكمة ، والقوة العاملة فيها الخيال لا العقل ، ولذلك قلت فيها المعاني المخترعة ، والحكم الرائعة ، وأكثر معانيها الجميلة حنينه إلى وطنه مع غناه وكرامته في الغربة ، فالوطن اجمل من المال الوافر والمنزلة الرفيعة .

ومنها قوله : « وتذكر الخطوب وتنسي » في البيت التاسع ، وكثيراً ما ينسى الإنسان مصائبه إذا ذكر الملوك الهاوية عن عروشها ، وكثيراً ما تحمل الآثار الشعراء على أجنحة الخيال إلى ذكرى أمجاد أصحابها ، وفي هذه الذكرى انتقال من الوصف الحسي إلى الوصف الخيالي .

وفي البيت الثاني والعشرين معنى جميل مبتدع ، وفكرة حكمية موفقة ، وفي البيت الثامن والعشرين إشارة إلى إيمان العرب بالنجوم ، فالمشتري عندهم كوكبُ سعد ، وزحل كوكب نحس ، وفي البيت الأخير معنى فني جيد ، ومن أجمل الحكم أن يعجب المرء بالفضيلة والمجد والشرف والفن اني وجدها .

وأسلوب السينية جزل يميل إلى القوة ، وتراكيبها قوية مرصوصة يصعب فيها حذف كلمة وزيادة أخرى ، وأكثر الأبيات موصول فكأنها نثر قوي معقود بالقوافي ، ولا تميل مفرداتها إلى العظمة والفخامة ، بل تميل إلى الجزالة والغرابة ، وتظهر عليها آثار التهذيب والتثقيف ، ويضعف فيها التزيين والتنميق ، وتقل المحسنات البديعية وتكاد تختفي وراء سدول يرخيها البحتري بأحكامه وتفننه .

وفيها من المحسنات البديعية الطباق بين تماسكت وزعزعني ، واشترائي وبيعي ، ونبوولين ، وتذكر وتنسي ، والجدة وانضاء ، ومأتم وعرس ، والأصل في

كلمة مأتم كل اجتماع ولكن غلب عليها اجتماع الموت ، وفيها العكس في البيت الثاني والثلاثين ، والمزاوجة بين تعسي ونكسي ، ولين وأنس ، واتسلى وآسي ، ويحسر ويخسي ، والجناس بين عنس وعبس ، ومشيح ومليح ، إلى غير ذلك من المحسنات البديعية التي تدل على صنعة البحتري صنعة أجاد فيها ، وتهذيبه الشعر تهذيباً وفق فيه .

وفي الأبيات كثير من الإستعارات الجميلة ، والمجازات البديعة ، والتشابيه الجيدة ، والكنايات السائرة ، مثل زعزعني الدهر ، واشترائي العراق وبيعي الشام ، ونقل الدهر ، وتشبيه الخمر بالنجم ، ومجاجة الشمس ، وأفرغت من كل قلب ، وعكست حظه الليالي، ويبدي تجلداً ، إلى آخر ما هنالك من أنواع البلاغة والبيان .

وفي القصيدة عواطف قوية مهتاجة ، وشعور حساس فياض ، فالبحتري في أولها متألم بائس يرفع نفسه عن الذل ويترفع عن جود الجبس ويف أمام الدهر وقفة الجبار لا يتزعزع ، ثم لا يلبث أن يذكر وطنه فتشتد عاطفة الشوق اليه ، وتقوى فيه آلام الغربة بعيداً عنه ، ثم يعمل فيه جفاء ابن عمه فيؤلمه ، وظلم ذوي القربى اشد إيلاماً من ضرب السيف ، ثم تنقلب عاطفته شعوراً فنياً خالصاً فيعجب بفن الإيوان وعظمة الفرس ، ويكلف بالشرف في كل جنس وعرق وأمة .

والسينية على البحر الخفيف ، وهو من أفضل البحور للغناء والإنشاد ، إلا أن القصيدة بعيدة عن جمال الموسيقى ، وحلاوة الجرس ، والسبب في ذلك رص تراكيبها ، واتصال الكثير من أبياتها حيث لا وقفة موسيقية منظمة بين الصدر والعجز ، ثم غرابة بعض الفاظها وبعد أكثرها عن الجرس الموسيقي ، وللألفاظ رنة موسيقية تزيد في جمالها على رنة البحر ، ولا تقل عن جرس التركيب ، ومهما يكن فالقصيدة لم تشتهر بموسيقاها وليست مما يغنى به ، ولولا ذلك لكانت أجمل قصيدة عرفها الأدب العربي .

وقيمة السينية في جمال خيالها ، فكلها صور رائعة ورسوم حية تكاد تنطق ،

وعلى هذه الصور والرسوم تقوم منزلتها وشهرتها ، وقد حلق البحتري في وصف الإيوان ، وبعث فيه الحياة وأجمل الصور فنا أقربها إلى الحياة .

رأى البحتري في الإيوان صورة تمثل واقعة جرت بين الروم والفرس في إنطاكية ، فصور كسرى بلباسه الملوكي الأخضر المصبوغ يختال تيهاً ، ويسوق الجنود تحت العلم ، حتى يشك البحتري نفسه في حياة الصورة فيتقراهـا باللمس ليزيل شكه .

ومن الصور الرائعة جعله من الإيوان المستدير الرابض أمام عظمة الصباح ، ورهبة المساء ، شخصاً حياً تعلوه الكآبة كأنه عاشق فارق إلفه ، أو زوج طلق عرسه ، ولكنه على كبته عظيم النفس ابيها ، يبدي أمام المصائب صبرا ، ودون كلاكل الدهر تجلدا .

ومن رسومه البديعة صورة البائس الأبي النفس ، يتمسك حيث يزعزعه الدهر ، ومنها تشبيه الخمر بمجاجة الشمس ، إلى غير ذلك من الأوصاف الحسية الجميلة .

ويحلق البحتري في خياله ، فينتقل من الوصف الحسي إلى الوصف الخيالي ، ويتخيل نفسه وهو البائس المظلوم ، القابع في خرائب الإيوان ، نديم كسرى وأنيس وزيره ، ثم لا يلبث حتى يبعث بوصفه الخيالي الحياة في الإيوان ، فإذا بتلك الرسوم الصامتة حية تنطق ، والآثار الساكنة تعود إليها الحياة والعظمة والجمال ، فالوفود تتزاحم ، والقيان ترجع أو ترجح وكأن الزمان لحظة ، ومئات السنين يوم واحد .

ابن الرومي (826 م . ــ896 م)

هو علي بن العباس بن جريج الرومي ، ولد في بغداد ، وكنيته أبو الحسن ، وهو رومي النسب من جهة أبيه ، فارسي من جهة أمه ، عربي بالولاء ، مات والده وهو صغير ، فاتكل في معاشه على أمه وأخيه ، وكان متهالكاً على اللذة ، يحب ألا تفوته فرصة ، ويحرص على ألا تفلت من يده لذة ، وكان مسرفاً في طعامه وشرابه ،

متهالكاً على السهر والملذات ، وشاب في العشرين من عمره .

ولم يوفق ابن الرومي إلى الانتفاع بشعره ، فعاش فقيراً يطلب الدرهم بشعره فلا يعطى ، وتزوج وولد له ثلاثة أولاد ماتوا صغاراً ، وماتت زوجته فأصيب بالوسواس ، واشتدت عليه الطيرة حتى أصبح سخرية لأصحابه وجيرانه ، ومات مسموماً ، وقيل إنه مات بداء السكري أو بداء آخر .

وهو من أشهر شعراء التصوير ، وخياله كمزاجه وثاب متقلب ، يثب إلى أجمل الصور وأبدعها ، ثم ينزل ليسير مع الشعراء أو ينحط عن المجيدين منهم ، ومن النقاد من يفضله على البحتري ، ومنهم من يفضل البحتري عليه .

أبرز مزايا ابن الرومي

من أبرز مزايا ابن الرومي في شعره طول نفسه ، واستيفاؤه المعنى إلى أبعد حد ، قال ابن رشيق : « كان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني حريصاً عليها ، يأخذ المعنى ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته ويعلم أن لا مطمع فيه لأحد » . وهذه الميزة من مظاهر الأدب اليوناني ، لأن خيال العربي وثاب ، ووحدة الشعر العربي البيت لا القصيدة ، ولكن ابن الرومي كان إلى العربية أقرب منه إلى اليونانية ، فهو لا يجعل من قصيدته وحدة تامة شأن القصائد اليونانية ، ولا يتوغل في الشعر الموضوعي شأن شعراء اليونان ، وربما كان أميل إلى الشعر النفسي الوجداني من أكثر شعراء العرب ، أما قصيدته فأجزاء يربط بينها وحدة في التفكير ، وأقسام تجمع بينها المعاني المتشابهة ، وليس من فرق كبير بين قصائد ابن الرومي الطويلة وسينية البحتري ، أو بائية أبي تمام ، أو دالية المتنبي ، ولكن ابن الرومي أتقن هذا الفن حتى غلب عليه واشتهر به ، وله من القصائد الطوال أكثر من سواه ، ومن قصائده قصيدة تبلغ مئة وسبعة عشر بيتاً ثلاثون منها في وصف المشيب ، وله قصيدة أخرى تبلغ مئة وخمسة وسبعين بيتاً سبعون منها في الشيب وذكريات الشباب . ومن قصائده الطوال قصيدة تبلغ مئة

وثلاثين بيتاً ، وثانية مئة وسبعين ، وثالثة مائتين وستة عشر ، وكلها من جيد الشعر ومتينه ، وميزة ابن الرومي مع طول نفسه وامتداده أنه لا يسف في أواخر قصائده ، ولا تظهر عليه أثار التعب والإجهاد ، فكأنه جواد كريم أصيل يجود كلما طال شوطه ، ولولا ذلك لكان طول قصائده ضعفاً لا قوة .

وابن الرومي في امتداد نفسه راغب في استيفاء المعنى حتى لا يبقى منه بقية لغيره ، قال ابن خلكان : « يأخذ المعنى فلا يزال يعالجه حتى لا يبقى فيه بقية ، وأكثر معانيه تامة ، وأوصافه مستوفاة يدور بها على غرضه ، ويتبسط في تفاصيله ، ويذكر كل ما يتعلق به ، حتى لا يترك مطمعاً لغيره » .

وإذا عمد ابن الرومي إلى معنى من المعاني وجد المجال أمامه واسعاً فتصرف فيه من حيث يضيق على غيره . أراد أن يصف صديقاً له بالمهارة في لعب الشطرنج ، فوصف ذلك في أكثر من عشرين بيتاً فيها من جمال التصوير ما اشتهر به ابن الرومي ، قال :

غلط الناس لست تلعب بالشطر ... نج لكن بأنفس اللعباء
لك فكر يدب في القوم أخفى ... من دبيب الغذاء في الأعضاء

وله في وصف السهر وأهواله قصيدة طويلة وصف فيها دجلة وأخطارها ، وصور مشاهد هياج الأنهار وتفنن في تصويرها ، وله صور كثيرة في وصف الشيب وأيام الشباب ، ووصف المآكل ومشاهد الطبيعة ، وغير ذلك من المشاهد المتعددة والمناظر الكثيرة ، ويصف ابن الرومي اشياء لم يصفها غيره من الشعراء ، وفي أكثر ما يصفه تبسط واستيفاء ، قال في الأحدب :

قصرت أخادعه وغار قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا

ولو كان غير ابن الرومي لاكتفى بالبيت الأول لأن فيه صورة تمثل الأحدب ، ولكن ابن الرومي يستقصي المعنى ، وفي انتظار الصفعة الثانية تقوية للصورة .

ومن أبرز مزايا ابن الرومي جمال تصويره ، قال يصف الخباز :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقى فيه بالحجر

ويروى عن ابن الرومي أنه كان نهماً يحب المآكل الطيبة ، وكأنه كثيراً ما كان يحدق في يد الخباز فأثر هذا المشهد فيه فوصفه وصفاً شعرياً جميلاً ، أما تشبيهه الرغيف تتسع دائرته بالماء ، فصورة يعجز عنها غير الشعراء المجيدين ، وإذا كانت قريبة فهي السهل الممتنع وكأنها الشمس قريب ضوءها بعيد منالها . وقال يصف الزلابية :

رأيته سحراً يقلي زلابية في رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقي العجين لجينا من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب

وابن الرومي شاعر العاطفة الحساسة والشعور المرهف الشديد الثائر . وربما كان أقرب الشعراء إلى وصف تأثرات النفس ، أحب المآكل الطيبة وكان فيها نهماً لا يشبع ، وظمآن لا يرتوي ، ولم تكن الثمرة عنده أطيب من الزهرة ، وكما أجاد في وصف المآكل أجاد في وصف المنظر الحسن . وامرأة ابن الرومي جميلة فتانة ، وحلوة بسامة ، ولكنها غانية مغوية ، أو راقصة مغرية ، أو بنت هوى متبذلة ، قال يصف وحيد المغنية :

يا خليليّ تيمتني وحيد ففؤادي بها معنى عميد
تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين لك منها ولا يدر وريد
مد في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد

وابن الرومي في خياله وثاب يثب إلى أجمل الصور فيسبق الشعراء ثم يعود

ليسير معهم أو وراءهم ولكنه لا يلبث حتى يؤثر فيه فنه ومزاجه فيرتفع ثم يرجع إلى الأرض ، وقد وثب في وصف وحيد المغنية وثبتين وأجمل الغناء العربي تفنناً الشجا، أما تشبيه أنفاس المغنية الطويلة بأنفاس العاشقين المديدة فمن الصور البديعة الجميلة .

وأجمل الأشياء عند ابن الرومي واطيبها الثمرة والمرأة والزهرة وقد تفنن في وصف هذا المثلث ومزج بين أجزائه مزجاً فنياً جميلاً وكانت الحياة عنده امرأة فاتنة وطبيعة فتانة فإذا وصف المرأة شبهها بالطبيعة بما فيها من ثمرة يانعة لذيذة وزهرة فواحة عطرة وإذا وصف الطبيعة شبهها بالمرأة بما فيها من خد مورد ريان وثغر طلق بسام وتبرج مغر فتان قال يصف الطبيعة في الربيع :

تبرجت بعد حياء وخفر   تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقال :

هي في زينة البغي ولكن   هي في عفة الحصان الرزان

وقال يصف النساء ويجمع بينهن وبين الأزهار والأثمار :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعتاب مهدلة   سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به   أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة   وما الفواكه مما يحمل البان

وكان ابن الرومي يهوى الطيبات الدائمة واللذات التي لا تنقطع ولذلك كانت المرأة أطيب عنده من الفاكهة لأن ثمرتها لا تنقطع ولكن هذه الثمرة مرة أحياناً ولعل الغواني كن يهجرن ابن الرومي لفقره ولضعفه فلا يرى في المرأة الا ناكثة للعهد متقلبة تسير مع الهوى قال في النساء :

الفـن من كل شيء طيب حسن — فهـن فاكهـة شتـى وريحان
ثمار صدق إذا عاينـت ظاهرها — ولكنهـا حـين تبلـو الطعـم خطبان
بل حلـوة مرة طوراً يقـال لها — شهـد وطـوراً يقـول النـاس ذيفان

وانتشر الجدل الديني في العصر العباسي ولم ينج منه ابن الرومي مع أنه كان أكثر الشعراء بعداً عن الحكمة والفلسفة والله عنـده خلـق الحسـان الغوانـي لكي يخطىء الرجال فيظهر عفوه عنهم قال :

يبلـو بهـا الله قومـاً كي يبيـن له — ذو الطاعـة البـر ممـن فيه عصيان
ومـا ابتلاهـم لاعنـات ولا عبث — ولا لجهـل بمـا يحـويه أبطان
لكن ليثبـت في الأعنـاق حجته — ويحسـن العفـو والرحمـان رحمان

وكان ابن الرومي أسير الغواني ولذلك رأى فيهن السلطان على الرجال مع ضعفهن قال :

ومـن عجائـب ما يمنـى الرجـال به — مستضعفـات لنـا منهـن أقران

ومن ميزات ابن الرومي أنه أكثر الشعراء تبسطاً في وصف حياته وأكثر ما نعرفه عنه مستمد من شعره، شاب وهو ابن عشرين وكان ضعيف البنية يغربل في مشيته خوفاً من أن يسقط وكان يتكل في معيشته على أمه ثم على أخيه ويسميه والدا ثم افتقر واحتاج فاضطرت زوجته إلى العمل لتساعده في كسب المعاش وكان له أولاد ماتوا صغاراً فرثاهم وتفنن في تصوير الامه وكان يؤمن بالطيرة ويميل إلى التشاؤم ويخاف السفر وركوب البحر وغير ذلك من التفاصيل الدقيقة التي قلما نجدها عند شاعر غيره وكان إذا شعر بالضعف ورأى شبح الموت بادر إلى انتهاب الملذات خوفاً من أن يموت فتفوته قال :

والآن حـين أحـد الشيب يطلبني — أبـادر الشيب باللـذات عجلانا

ومن مزايا ابن الرومـي في شعـره ثورتـه على الحياة ونقمتـه على الظـالمين ،

وغضبته على الأقوياء المستبدين ، قال :

أتراني دون الأولى بلغوا الآمال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى في النفوس والأحباب
لهف نفسي على مناكير للنكر م غضاب ذوي سيوف غضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحي ذات طهر ترابها كالملاب
من كلاب نأى بها كل نأي عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
وإثبات على الظباء ضعاف من وثاب الأسود يوم الوثاب

وقلما نجد من شعراء الأدب العربي القديم ثائراً على النظام الإجتماعي مثل ابن الرومي وكأنه كان يرى من هم كالبهائم في نظره متمتعين بوظائف الحكومات حين يحرم هو منها أما نقمته على التجار فربما كان من أسبابها أن أحدهم سلب ابن الرومي غانية بماله ولذلك جعل التجار الفائزين بالأحباب بهائم، ويجيد ابن الرومي في فنه الشعري التصويري فيشخص الجمال ويهب السيوف الحياة فيجعلها غضبى ثائرة تهتز في أغمادها لتطهر الأرض من الظالمين ويوفق ابن الرومي في بيته الأخير وشر صفات الإنسان أن يكون ذليلاً أمام الأقوياء مستبداً بالضعفاء ومن مثل هؤلاء يجب أن تطهر الأرض .

وتشتد ثورة ابن الرومي على الأقوياء الظالمين حتى تتسامى فتنتقل من الأنانية إلى الغيرية فيثور على قوم لم يظالموه ولكنهم ظلموا الضعاف إخوانه ، والمشهور عن ابن الرومي أنه كان حيياً جباناً ولكنه كان يستأسد عندما يثور على الظالمين وتمتزج العاطفة الإنسانية عنده بالشعور الشخصي فلا يخاف من الدعوة إلى الثورة جهاراً ويهدد الحكام دون خوف ، والعاطفة الانسانية اذا تسامت بعثت الشجاعة في قلب صاحبها ، قال ابن الرومي يخاطب العباسيين ويهددهم بالعلويين :

لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً سيسمو لكم والصبح بالليل مولج

وفي هذه الصرخة جرأة نراها نادرة في تلك الأيام ولو قام شاعر أو كاتب اليوم

يدعو إلى الثورة على الحكام ما سلم رأسه ، وأهم أسباب ثورة ابن الرومي الفقر والحرمان قال :

أفي الحق أن يمسوا خماصا وانتم   يكاد أخوكم بطنه يتبعج

ورأى أهل بغداد أن ابن الرومي كان متشيعاً لأنه ثار على العباسيين ودافع عن العلويين . أما المعري فلا يراه إلا على مذهب غيره من الشعراء . ولكن العقاد في مصر ألف كتاباً كبيراً عن ابن الرومي خطأ فيه المعري وقال ان أبا العلاء لم يطلع على شعر ابن الرومي كله ففاته أمره، والأرجح أن المعري كان مصيباً والعقاد المخطىء، فقد رثى ابن الرومي القائد العباسي الذي تولى حرب العلويين عندما مات وأراد العقاد أن يجد ما يبرر موقف ابن الرومي فدار ولم يوفق ، وخير ما يقال في ذلك أن أبي الرومي كان نصير الضعفاء وكان ثائراً على الأقوياء ولو كان العباسيون الضعفاء لكان عباسياً ولذلك نقم على الزنج الذين أحرقوا البصرة وفتكوا بأهلها بعد ثورة على سادتهم ، ولعل ابن الرومي كان يرجو من الثورة الإصلاح لا استبداد المظلوم بالظالم إذا قوي ، وفي ذلك من العاطفة الانسانية السامية ما فيه وربما كان لمزاجه الشخصي أثر في رقة فؤاده، فقد كان يكره الدماء ولو طلب تطهير الأرض من الناس الكلاب وله في وصف فتنة الزنج شعر تصويري رائع منه :

كم أغصوا من شارب بشراب   كم أغصوا من طاعم بطعام
كم رضيع هناك قد فطموه   بشبا السيف قبل حين الفطام

وسواس ابن الرومي وتشاؤمه

توالت المصائب على ابن الرومي فأثرت في جسمه وعقله وشعره . وتتابعت أيام النحس عليه فافتقر واحتاج وشاب وهو ابن عشرين ، وما زالت النحوس تعمل فيه حتى ضعف جسمه فضعف عقله ، وتوغل في التطير ، ومال إلى التشاؤم ، وتغلغل في مجاهلهما فأصبح يرى الحسن نحساً ، والطالب موتا . ويشتق كلمة جعفر من جاع وفر ، وأصبح يدافع عن الطيرة محتجاً بالقرآن والحديث والسنة ، وكثيراً ما

كان يلزم داره لا يبرحه طول يومه إذا رأى منظرا يتشاءم منه كالأعـور والأحـدب وغيرهما ، وعرف الناس ذلك منه فأخذوا يسخرون به ويعذبونه .

تأثير الحياة فيه

ولد ابن الرومي في بغداد وربي فيها ، ولم يسافر غير مرة واحدة ندم عليها ، وكان في شبابه فتى جميلاً لعوباً يريد أن ينعم بملذات الحياة فانغمس في شهواتها ، وعاش بين الفتيان والفتيات لا يؤجل إلى غده عمل يومه ، وكان ابن الحاضر لا يبيع نقداً بدين ، ونهما لا يشبع من لذة ، ولا يرتوي من نهلة ، وما زال ينتقل من ذراع غانية إلى حضن بنت هوى متكلاً في معاشه على أمه وأخيه ، وما زال ينتقم من الحياة حتى انتقمت الحياة منه فسلبته الشيء الكثير من صحته وعقله .

وكان شاعراً شديد الحس ، ومخلوقاً ودميماً جباناً ، فلم يستطع النجاح في حياة ابناؤها كالذئاب والكلاب ، وماتت أمه وأخوه فخرج من أحضان الغواني إلى حضن الحياة الخشن القاسي ، وتبدلت تلك الأنامل اللطيفة الناعمة مخالب قاسية مزقـت جسمه ، ونهكت دماغه ، وهدت قواه ، فنقـم وثـار ، وافتقـر وتألـم ، والـويل للإنسان إذا اجتمع عليه الجوع والذكاء واقترن الحس المرهف فيه بالفقر والحرمان .

والتجأ ابن الرومي في معاشه إلى الشعر ، ولكن الذين تهزهم المدائح ذهب الدهر بهم ، وكثيراً ما كانت الحاجة تدفعه الى طلب كساء فيمنع ، والتماس قوت قليل فيلتوي عليه ، قال :

أيلتمس النـاس الغنـى فيصيبهم   والتمس القـوت الـطفيف فيلتوي

والفقر سبب من أسبـاب النقمـة والوسـواس ، وكثـيراً ما يكون سبيلاً إلى التشاؤم فيرى الفقير الناس كلهم أشرارا ، ولذلك كان الأمراء والوزراء في رأي ابن الرومي بخلاء ، قال :

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالي المران

وكانوا عميانا كالخفافيش ، لا يفرقون بين الظلام والنور ، وكانوا جهالاً كالبهائم يطربهم الشعر السخيف ولا يصغون إلى الشعر الفني العالي ، ويزيد في وسواس ابن الرومي خيبته ، فيرى أن الناس لم يقدروه حق قدره ، قال يصف امراء عصره :

بهائم لا تصغي إلى شدو معبد وأما على جافي الغناء فتطرب

وسقته الأيام كأسها المرة إلى الثمالة ، فمات أولاده وماتت زوجته فحزن حزناً مؤلماً ، وظهر حزنه المفرط نفثات حرى في شعره ، وعاطفة معذبة متألمة فياضة في رثائه ، وكثيراً ما يضعضع الحزن العقول الراجحة ، ويهد الأعصاب القوية ، ولذلك غلبت العاطفة في رثاء ابن الرومي على العقل ، وتغلب الوجدان على التفكير ، فإذا بولديه الباقيين يذكرانه بأخيهما الميت إذا لعبا فيزيدان في آلامه آلاما ، وفي أحزانه حزناً . ولو كان غير ابن الرومي لوجد في الأحياء تعزية له عمن فقده . قال :

أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد

وله في رثاء ولده هذا صور فنية رائعة ، ورسوم شعرية مؤثرة . وأشد ما يثير الحزن تذكار مشاهد الاحتضار ، ولا سيما إذا كان المحتضر صغيراً يحمل على الأيدي وهو ينزف الدما ويساقط نفسه بسقوط دمائه ، ولا عجب أن يكون ابن الرومي بعد ذلك من أجود شعراء التصوير ، قال .

توخى حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

وتمتزج عاطفة ابن الرومي الحزينة بفنه فيسهل ويجيد . قال :

كأنــي ما استمتعــت منــك بضمة ولا شمــة في ملعــب لك أو مهد

ويموت ابنه الثاني فتمتزج الدموع منه بالتفجع ، وينقلب البكاء يأساً لا صبر فيه ولا عزاء ، قال :

فيا حزنــي ألا سلــو يطيعني ويا سوءتــي من سلوتــي إنهــا غدر

وتسود الدنيا في عينيه فلا يرى مكاناً إلا حيث ابنه ، قال :

ما أصبحــت دنياي لي وطناً بل حيث دارك عنــدي الوطن

ويموت ابنه الثالث فيقوى الحزن على أعصابه ، وتجمد عيناه عن البكاء ، ولا يرى في الحياة غير الحسرة والألم ، ويعجب من استطاعته على تحمـل المصائب ، قال :

بنــي الــذي أهديتــه أمس للثرى فللــه ما أقــوى قناتــي وأصلبا

وتموت زوجته ، ويلازمه النحس ، فلا يجد لنفسه عزاء ، قال :

عينــي سحــا ولا تشحا جل مصابــي عن العزاء

ورثاء ابن الرومي قليل ، ولكنه صادق مطبوع ، سواء أرثى زوجته وأولاده ، أم رثى أصدقاءه وخلانه ، أم بكى من يحـب ويهـوى ، أم ثار على سفـك الدمـاء والتدمير ، وله في البكاء على البصرة ، عندما خربها الزنج وفتكوا بأهلها ، شعر فني مطبوع ، وثورة إنسانية رائعة انقلب الحزن فيها شعوراً بالغيرية ، وتسامياً إلى الرفق والحب والحنان ، وفي شعره في ذلك من جمال التصوير ما كان ابن الرومي معه من شعراء الطبقة الأولى في الفن والتصوير .

تأثير محيطه

عاش ابن الرومي في العصر العباسي الثاني فلم يدرك مجد الخلافة وعظمتها كالبحتري ، بل أدرك من الخلفاء ثمانية قتل أحدهم وكان لولي العهد يد في قتله ، وقتل ثلاثة منهم بعدما خلعوا ، ومات غيرهم مسموماً أو مسجوناً ، ولم تكن حال الأمراء والوزراء أفضل من حياة الخلفاء كثيراً .

وتنازع السلطان العرب والفرس والأتراك والخدم من الروم والسودان ، وانتشرت الدسائس والرشوة انتشاراً واسعاً ، وكثيراً ما أصبح الخادم وزيراً ، والساقي قائداً ، وكثر طلاب الوظائف والمناصب . روي عن الخاقان الوزير أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة ، وأخذ من كل واحد منهم نصيباً من الرشوة .

واضطرب حبل الأمن ، وكثرت الفتن والثورات ، واستفحل أمر الخوارج ، وقوي شأن القرامطة ، قيل إنهم قتلوا عشرين ألفاً من الحجاج . وكانت فتنة الزنج في البصرة فذبحوا أهلها . وفي وسط هذا المحيط الصاخب الرجراج وتلك البيئة الثائرة السالبة عاش ابن الرومي ، ولم يكن جريئاً يستطيع أن يزاحم الأقوياء ، أو منافقاً ليسير مع الراشين ، بل كان حيياً وديعاً ينظر إلى الأقوياء والمغامرين نظرة الحسد والغيرة . وكان طامعاً في الحياة الهنيئة . وغلب شعوره على عقله وركبه الوسواس ، فثار يريد تطهير الأرض من المنافقين .

وكان الخلفاء في زمان ابن الرومي في شغل عن الشعراء ، وكان بعض الوزراء أتراكاً لا يقيمون للشعر وزناً ، ولا يعرفون للأدب قيمة ، وكان حب المال يهيمن على جو المحيط فهو في نظر الناس أثمن من الشعر ، وكان ابن الرومي شاعراً فكان النحس اليفه والحرمان صديقه فلا عجب أن يوسوس قال :

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالي المران

تأثير شعوره

كان ابن الرومي عصبي المزاج ، ضعيف البنية ، سطت أعصابه على تفكيره فكان شديد التأثر ، وتناوله المحيط والبيئة والحياة بالألم ، فغلب شعوره عقله ، ونقم على الأقوياء ، وقام يدعو إلى الثورة على الحكام دون أن يفكر في عواقب عمله ، وتسامى شعوره فانتقل من الأنانية إلى الغيرية ، وأصبح وسواسه أداة للإصلاح ، وأصبح يعطف على الضعاف أيا كانوا .

وزاد النحس عليه ، وضعف جسمه فضعف عقله ، ومال إلى الطيرة ، ودافع عنها دفاع الموسوس المجنون ، وغلب عليه التشاؤم حتى أصبح يرى الحسن نحساً ، وكان إذا رأى أحدب أو أعور أو أصلع في صباحه لا يبرح داره ، وعرف الناس عنه ذلك وكان له جار أحدب ، فكانوا يكلفونه أن يظهر له في الصباح فيغلق ابن الرومي داره لا يبرح بيته طول نهاره . وأثر الوسواس فيه فاستل منه شعراً فنياً جميلاً .

وإذا كان ابن الرومي قد أصيب بالوسواس إلى حد الجنون فإنه كان على جانب كبير من حدة الذهن والذكاء . وإذا كان شاعر الفن والتصوير فإنه لم يكن سخيفاً في معانيه منحطاً في أفكاره وخواطره في الموت والحياة ، وكان العرب في عصره قد اطلعوا على كتب العلم والفلسفة والمنطق ، فارتقت العقول حتى تفلسف الشعراء . ويرى ابن الرومي أن الله لم يخلق جمال المرأة للإغواء والعقاب والتعذيب وإنما خلقه ليأثم الرجال فيكون الإثم سبيلاً الى العفو والغفران ، وبيان رحمة الله ، ولولا الخطيئة لم يظهر تأثير الغفران ، والرحمة لله وحده .

ومع ايمان ابن الرومي بالعفو والغفران ، واضطراره إلى هذا الإيمان لتبرير اندفاعه في اللهو والمجون وحب الغواني والملذات ، كان يرى رأي المعتزلة حيناً ، والمعتزلة فرقة تريد أن تحكم العقل في فهم الدين .وهي ترى أن صاحب الخطيئة الكبيرة خالد في النار . والسنة تنكر ذلك وترى أن الله يغفر جميع الذنوب ، قال ابن الرومي :

أأرفض الإعتزال رأيا ... كلا لأنـي به ضنين

وكان يرى أحياناً أن الإنسان مسير في أعماله لا مخير ، وأن ما قدر على الإنسان أصابه ، ولولا ذلك ما أغتنى تجار كالبهائم ، ونال الوظائف قوم كالكلاب ، ولكنه كان يرى أحياناً أن الإنسان مجزي على عمله إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، ولعل رأي ابن الرومي كان إلى الحظ والقضاء والقدر أميل ، لأنه كان يعتقد أنه لم يجز على جده وقدرته وفنه ، وربما كان إيمانه بالإكتساب أقرب إلى الآخرة منه إلى الدنيا .

ويتفلسف ابن الرومي فيرى أن في الإنسان طبيعة تميل إلى الخير ، وأخرى تنحو نحو الشر ، ولعله متأثر في رأيه هذا بفلسفة الفرس ، وربما كان هذا الرأي من ثمار العلم والنظر لا من نتاج الحياة والإختبار لأن حياة ابن الرومي كانت تدعوه إلى التشاؤم والشر ، وإذا كان له شيء من الآراء الفلسفية فإنها لا تعدو تفلسف الشعراء الرقراق ، فالطفل يبكي عندما يولد جزعاً من شقاء الحياة ، وخوفاً من صروفها ، وكان يرى أن أعداء الإنسان يستفيدون من أصدقائه فخير له ألا يكثر من أصدقائه ، قال :

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

وهو يعتقد أن الإنسان مطبوع على الشر، وأن الخير من ثمار التعليم والتهذيب والتقويم ، قال :

واعلم بأن الناس من طينة ... يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم ... إذن لفاح الحمأ اللازب

وهو يرى أن القناعة في الحياة من أسباب الراحة والنعيم ، وأن الدهر لا يكسو قوماً من ناحية حتى يسلبهم أضعاف ما يكسوهم من ناحية أخرى ، وله في الفضيلة رأي فلسفي سام ، وليس الفاضل من يرجو على فضله ثمناً ، أو يأمل من ورائه جزاء ، أو يخاف عقاباً ، وإنما الفاضل من يتحلى بالفضيلة لأنها فضيلة ، قال :

بل الكريم الذي يعطي عطيته ... لغير شيء سوى استحسانه الحسنا

وقال :

أأحب قوماً لم يحبوا ربهم إلا لفردوس لديه ونار

ومن الآراء الحكمية المشهورة أن يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ، قال ابن الرومي :

لانتقام المظلوم أربى على الظا لم من ظلمه على المظلوم

ولكن مهما يكن من آراء ابن الرومي الحكمية ، ومعانيه الفلسفية ، فإنه شاعر التصوير لا شاعر الحكمة ، وربما كان لوسواسه أثر كبير في نبوغه .

الموشحات

الموشحات ضرب خاص من ضروب الشعر يمتاز بترتيب قوافيه ، وتنوع أجزاء القصيدة فيه ، واهتمامه بالموسيقى أكثر من اهتمامه بالمعنى والتركيب . وتمتاز الموشحات برقة لفظها ، وجمال موسيقاها . كأن ناظميها تأثروا بألحان الطير وخرير الماء وموسيقى الإسبان ، فمزجوا الألحان الغربية بالألحان الشرقية ، قال ابن خلدون : « وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح » . أما موشح ابن المعتز فقد اختلف الرواة في نسبته إليه ، وسواء أصح أنه له أم لم يصح ففن الموشحات لم ينتشر إلا في الأندلس .

وتتألف الموشحات عادة من أبيات وأقفال ، أما الأقفال فأجزاء مؤلفة تتفق في الموشح كله في أوزانها وقوافيها وعددها . وأما الأبيات فأجزاء مؤلفة تتفق في الوزن والعدد دون القوافي .

وأشهر الموشحات موشح لسان الدين ابن الخطيب ومنه :

القفل الأول :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

البيت الأول :

إذ يقود الدهر اشتات المنى ننقل الخطو على ما ترسم
زمرا بين فرادى وثنا مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر فيه تبسم

القفل الثاني :

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
وكساه الحسن ثوباً معلما يزدهي منه بأبهى ملبس

البيت الثاني :

أي شيء لامرىء قد خلصا فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الأزهار منه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
وإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه

القفل الثالث :

تبصر الورد غيورا برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما يسرق السمع بأذني فرس

وفي هذا الموشح ستة أقفال وخمسة أبيات ويتألف القفل فيه من بيتين والقوافي فيها متشابهة في الأعاريض والأضرب ، فالروي في العروض الميم وفي الضرب السين . أما بيت الموشح فيتألف من ثلاثة أبيات من الشعر أعاريضها وأضربها

مقفاة ، ولكنها تختلف بين بيت وآخر ، فروى العروض في البيت الأول النون ، وفي البيت الثاني الصاد ، وروي الضرب في البيت الأول الميم ، وفي البيت الثاني الياء ،

وقد تختلف الموشحات عن نظام هذا الموشح بعدد أبياتها وأقفالها ، وترتيب اجزائها ، وقد تختلف أحياناً عن الأوزان المعروفة في علم العروض ، وتخرج عن النظام المألوف ، قال احدهم من موشح :

ما للموله من سكره لا يفيق يا له سكران
من غير خمر ما للكئيب المشوق يندب الأوطان

وقد انشئت الموشحات للغناء والطرب ، ووصف الطبيعة وجمالها ، فلا حاجة بها إلى الحكمة والفلسفة والغوص على المعاني العميقة ، والموشح ثوب موشى جماله في زينته ، ووشاح ثمين قيمته في وشيه ، وقطعة موسيقية لذتها في جرسها ، ورقة لفظها ، وعذوبة إنشادها .

وكثيراً ما تخلو الموشحات من ترتيب الأفكار ، وتنسيق الأجزاء ، ووحدة الموضوع ، والإرتباط بين الصور وانتظامها وترتيبها ، فينتقل الشاعر فيها من صورة إلى صورة دون رابط ، ومن فكرة إلى فكرة دون ترتيب ، ولكن ذلك لا ينقص من قيمتها لأنها انشئت للغناء فتلتذ الأذن لموسيقاها ، وترعرعت في أحضان الوصف فيسرح الخيال في ألوانها ، ولم تنشأ للعقل ليتمتع بعلمها ، أو للفكر ليلتذ بمعانيها .

ولغة المغرب اضعف من لغة المشرق عامة ، وأميل منها إلى الرقة ، والموشحات شعر الطبع ، ولغة الجمهور ، فهي أقرب إلى الرقة المطبوعة من سائر ضروب الشعر ، وقد اشترط بعضهم أن يكون في الموشحات شيء من لغة العامة ، ومما زاد في رقتها مجالس الأنس والخمر ، وما زالت الموشحات تسير في طريق الرقة حتى ضعفت ثم ركت ، فلما كانت عصور الإنحطاط تحولت زجلاً وشعراً عامياً قد لا يتقيد بوزن أو قياس ، قال بعضهم :

لما أن تسربل . . . ثوب الحسن زيا . . . أردت أقبل . . . لماه الشهيا

فقال تمثل . . . بالشعر أبيا . . . ومال تدلل . . . بأجلى مقال . . .

أنا أقول قوقو . . . ليس بالله تذوقو .

وكثر في الموشحات استعمال التشابية والاستعارات ، وتفنن الشعراء في استعمال انواع البديع ، واوغلوا في الصنعة والتكلف ، حتى اصبح بعض الموشحات ألفاظاً جوفاء لا معنى لها ولا جمال فيها .

وللموشحات ألفاظ خاصة بها تكاد تكون متشابهة في أكثرها ، ولها تعابير رقيقة لا تصلح لغيرها ، وكثيراً ما تكرر الألفاظ والعبارات فيها كما تكرر المعاني .

والموشحات جميلة إذا سارت مع الطبع وخلت من التكلف والإجهاد ، وهي تقبح إذا خلت من العاطفة ، والخيال المبدع ، والموسيقى العذبة .

العناصر التي ساهمت في نشأة الموشحات على الأرض الأندلسية ؟

المشهور أن الموشحات من اختراع شعراء الأندلس . قال ابن خلدون : « أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح » . ولكن الأدباء يروون لأبن المعتز موشحاً مطلعه :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فإذا صحت هذه الرواية لم تكن الموشحات من استحداث شعراء الأندلس لأن ابن المعتز شاعر عباسي شرقي ولي الخلافة العباسية في بغداد يوماً واحداً ، غير أن المشارقة لم يعالجوا هذا النوع من النظم فظلت الموشحات من صنع الشعر الأندلسي .

وأقوى العناصر في رقي الشعر الغنائي حياة الطرب واللهو والنعيم .

والموشحات شعر غنائي ، وقد اشتهر شعراء بغداد في العصر العباسي الأول بحياتهم الطروب اللاهية ، وميلهم إلى الخمر والغناء والطرب ، ولكن طبيعة العراق وتأثير الفرس في العرب اختلفا عن الطبيعة في الأندلس ، فكأن الطبيعة كانت العنصر الأول في نشأة الموشحات على الأرض الأندلسية .

والموشحات نوع من الشعر المزين الموشى ، والطبيعة في الأندلس موشاة مزينة وراقصة طروب ، والموشحات شعر الرقص والطرب . والأندلس جنة واسعة غناء ، مياهها جارية صافية ، وغياضها خضر زاهرة ، ومناظرها فاتنة مغرية ، وزهرة فواحة معطرة ، وشعراء الأندلس أبناء هذه الطبيعة المرحة الطروب ، وتلاميذ ذلك الأقليم المشبه بالفردوس ، وإذا كان الشعر وحي الآلهة أو نفثات الشياطين ، فالشاعر ربيب الحياة ونتاج البيئة والإقليم .

ومن العناصر التي ساهمت في نشأة الموشحات على الأرض الأندلسية المرأة من عربية ولا عربية ، ولا تقل المرأة عن الطبيعة تأثيراً في الشعراء ، ونساء الأندلس العربيات بنات الطبيعة يطلبن الطرب ويعجبهن الغناء ، ويغويهن الوشي والتزيين، وقد نشأ على الأرض الأندلسيه أديبات وشواعر كان لهن أثر بارز في تجميل الشعر وتزيينه وتوشيته ، وأثر قوي ظاهر في تفتيق قرائح الشعراء ، قيل في ولادة بنت المستكفي انها كانت ماجنة اديبة تناضل الشعراء ، وتساجل الادباء وتفوق البرعاء ، وكانت من الأدب والظرف بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب .

وكان لنساء الأندلس غير العربيات حظ وافر من الطرب والغناء وتختلف موسيقاهن عن الموسيقى المعروفة في الشعر العربي.ولذلك امتزجت الألحان الإسبانية بالألحان العربية على أرض الأندلس ، وضاقت عن هذا الإمتزاج وحدة القافية ، وتقلص عنه نظام العروض المعروف ، فنشأت الموشحات وكان من أسباب نشوئها الطبيعة والمرأة .

ومن العناصر التي ساعدت في نشأة الموشحات على الأرض الأندلسية امتزاج العرب بالإسبان امتزاجاً كان له نتائج أدبية واجتماعية ، وقد كان امتزاج العرب بالفرس في العراق أقوى وأظهر ، ولكن موسيقى الفرس كانت منظمة راقية ، فطغت على موسيقى العرب وجرفتها في تيارها ، والموسيقى العباسية عربية فارسية ولكن الأثر الفارسي فيها أقوى ، ولا يزال بعض اسماء الألحان العربية فارسية في لفظها مثل نهوند وحجاز كار وغيرهما .

أما الإسبان فلم يكن لهم قبل الفتح العربي موسيقى منظمة راقية كالموسيقى الفارسية ، ولذلك تأثر كل من الشعبين بالآخر ، وأفاد من موسيقاه وأنغامه ، فعند الإسبان ربع صوت وثلث صوت ، وعند العرب اختلاف القافية ونظام القصيدة وعند الإسبان نوع من الشعر مأخوذ عن كلمة الزجل العربية .

ومن العناصر التي ساهمت في نشأة الموشحات الجنكلر ، وهم قوم من سكان غربي أوروبا كانوا يطوفون البلاد رجالاً ونساء يتغنون بأناشيدهم ، وليست هذه الأناشيد شعراً موزونا مقفياً كالشعر العربي ، فلما ارتقى فن الغناء عند الأندلسيين اعجبهم طراز هذه الأناشيد فتأثروا بها ونظموا الموشحات على طراز جديد متأثرين بها وبالموسيقى العربية ممتزجين ، وأناشيد الجنكلر متأثرة بأناشيد التروبادور التي ظهرت في جنوب فرنسا في القرن العاشر ، وتتناول هذه الأناشيد في أغراضها الغزل ، ووصف الطبيعة ، والمدح ، والقصة ، وأغراض الموشحات في أصلها غزل ومديح ووصف للطبيعة والمرأة .

وأناشيد التروبادور جميلة في لفظها ، حسنة في توقيعها ، ولكن معانيها ضعيفة رقراقة لا ترتيب في أفكارها ، ولا تنسيق بين اجزائها وكذلك الموشحات .

وفي أناشيد التروبادور أسماط وأجزاء ، ولا تلتزم فيها القافية كما تلتزم في الشعر ، وإنما تلتزم في كل ثلاثة أجزاء أو ستة ، وفي نهاية كل سمط ، ويراعى في التزامها الوزن الذي وردت فيه أولاً ، والموشحات تتألف من أقفال وأبيات ، وتتنوع قوافيها ، فهي أقرب ما تكون إلى أناشيد التروبادور .

الشعر السياسي

الفخر والمديح والهجاء

الوحدة السياسية في العصر الجاهلي في الجزيرة العربية القبيلة ، وكان الشعراء يدافعون عن قبائلهم ، ويمدحون زعماءها ، ويهاجمون خصومها كما يفعل اصحاب الصحف اليوم ، وكثيراً ما كان الشعراء سفراء زعمائهم عند القبائل الأخر ، وكثيراً ما استطاعوا أن يقنعوا بنصرة القبائل المحايدة بتفننهم في السياسة ، ونبوغهم في الدعاية ، غير أن النطاق السياسي في الجزيرة كان ضيقاً ، لأن القبائل لم يكن لها سياسة معينة تسير عليها كما تسير الدول المنتظمة .

وكان هنالك دولتان منظمتان . أحداهما في العراق والثانية في الشام ، وكانتا تتبعان في سياستهما الفرس والروم ، وكانت القبائل العربية الضاربة بينهما تتنقل في سياستها كتنقلها في مواشيها ومراعيها ، ولذلك انصرف الشعراء في هاتين الدولتين إلى الدعاية بين القبائل ، وأعظم شعراء السياسة في العصر الجاهلي النابغة الذبياني ، وكان يمدح هؤلاء وأولئك ويثير الدعوة بين القبائل .

وللنابغة في الشعر السياسي منزلة كبيرة وتأثير شديد . فهو إذا مدح الأنصار هاجم الخصوم ، واستعمل في مديحه الصفات التي تليق بالحكام ، وفي هجائه الصفات التي تضعف من منزلتهم بين القبائل . وهو يمدح بالشجاعة والكرم وهما أجدر الصفات للحكام ، لأن في الكرم استمالة الناس حباً ورغبة ، وفي الشجاعة

استمالتهم قوة ورهبة . ولذلك كانت الشجاعة والإقدام من أجمل الصفات التي يمتدح بها العرب .

وكان إذا هجا جرد المهجو من القوة وسلبه الصفات الحسنة ، وإذا مزج بين مديح الأنصار وهجاء الخصوم ذكر من الحقائق ما هو أشد تأثيراً في الدعاية من الخيال والغلو .

في صدر الإسلام

جاء الإسلام يوحد بين القبائل العربية ، ويقيم صرح السياسة على أسس جديدة ترجع إلى المبادىء لا إلى العصبية القبلية ، ولذلك علا شأن الدعاية السياسية ، وقوي تأثير الشاعر السياسي ، فأصبح في قدرته إذا أحسن الدعاية أن يحول الناس من مبدأ إلى مبدأ ، وينقلهم من خصومة إلى نصرة ، وكان للسياسة تأثير يفوق تأثير الرمح والسيف وسائر أدوات القتال . قال النبي لحسان بن ثابت ، وكان حسان أجبن الناس : « اهجهم فوالله لشعرك أشد عليهم من نضح النبل في غلس الظلام » .

وأخذ الناس ينقسمون أحزاباً بعد موت النبي ، واشتدت الخصومة بين الناس في عهد علي ، وأخذت الدعاية السياسية تدور على قطب الخلافة ، فاحتاجت السياسة إلى شعراء يؤيدون دعوات الأحزاب ، فارتقى الشعر السياسي ، ونبغ فيه شعراء يقوم كل منهم بالدعوة إلى حزبه ، وهناك قطري بن الفجاءة وهو من شعراء الخوارج وزعمائهم ، وأبو الأسود الدؤلي وهو من شعراء العلويين ، وأبو صخر الهذلي وهو من شعراء بني أمية المتعصبين لهم ، وحكيم الكلبي وهو من شعراء اليمانية هجا آل علي وشيعته وسائر مضر ، والكميت وهجا اليمانية كلها ، وهنالك الأخطل وهو شاعر بني أمية المفضل مدحهم وهجا خصومهم فأجاد في الدعوة لهم ، وحلق في الحملة على خصومهم .

في العصور العباسية

قوي شأن الحكومة المركزية في العصر العباسي الأول ، وضعف أمر الأحزاب فانصرف الناس عن السياسة إلى اللهو والمجون ، وكاد الشعر السياسي ينحصر بين العباسيين والعلويين ، وكان لكل منهما شعراؤه المتحمسون له ، وارتفى العقل فالتجأ شعراء السياسة إلى المنطق . قيل إن بيتاً واحداً كان أشد على العلويين من السلاح ، وأدعى إلى تثبيت حقهم في الخلافة من الجيوش . قال السيد الحميري :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

وضعف شأن الدعاية السياسية في العصر العباسي الثاني ، وغلب سيف الأتراك على الأدب ، وانقسمت الدولة في العصر العباسي الثالث ، فاختلف الشعر باختلاف الدويلات المستقلة ، وضعفت الأحزاب فيها فضعف أمر الشعر السياسي ، وما زال يسير في طريق الإنحطاط حتى كانت النهضة .

في النهضة

فتح الشعراء عيونهم في عصر النهضة فشاهدوا الأتراك يستبدون بالعرب ويظلمونهم ، ورأوا الأحرار في غياهب السجون أو في أعماق البوسفور ، أو في سبل الإغواء والنفاق ، فقاموا يدعون إلى أن يوحد العرب جهودهم ، وفي الإتحاد قوة ، وفي الوحدة رقي ونجاح ، وكانت مصر ملجأ الأحرار ومركز الأحزاب ، ومن أشهر شعراء السياسة الشيخ إبراهيم اليازجي وله سينيته المشهورة ، وحافظ ابراهيم وهو من شعراء الدعوة إلى توحيد مصر والشام ، وأحمد شوقي وهو من شعراء الجامعة الإسلامية وغيرهم كثير ، ولا يزال الشعر السياسي يقوى بقوة الأحزاب ، وينهض بكثرتها ، غير أن الصحافة زاحمت الشعر ، وكانت دعايتها أقوى من دعوته ، ونهضتها أرقى من نهضته وتأثيرها أشد من تأثيره .

الفخر

لعل من أقوى طبائع الإنسان افتخاره بنفسه وذويه ، وقد يتعدى الإفتخار

الإنسان إلى الحيوان ، فالطاووس معجب بريشه والاسد يتباهى بعمرته ، ولم تضعف هذه الطبيعة برقي الانسان وتمدينه ، ولا يسلم من الفخر بالنفس أكبر العلماء وأرقى الناس .

وميدان الفخر واسعة جنباته ، مديدة آفاقه ، متسعة أرجاؤه ، وقد يفتخر الإنسان بطموحه وإبائه كما يفتخر بماله وذكائه ، وكرمه وشجاعته ، وأجداده وآبائه ، وما إلى ذلك من إنماء الحياة المختلفة ، وكثيراً ما يتخذ بعضهم الفخر للحط من قيمة سواه ، وهجاء خصومه وأعدائه ، كما يفتخر بعضهم لتغطية عيوبه ونقائصه .

وتطور الفخر في الأدب العربي بتغير العصور والأجيال ، وتبدل بتبدل الثقافات والأفكار والأحوال ، وكان الشاعر في العصر الجاهلي يفتخر بالشجاعة والكرم ، والعزة والإباء ، ونصرة الجار ، وإغاثة الضعفاء ، وكثيراً ما كان الشاعر الجاهلي يتوغل في مجاهل الفخر توغل الطبع والحداثة ، ويغلو غلو الأولاد والشباب ، وكان في الشعر الجاهلي فخر أبي كريم ما زال الناس في حاجة إلى الإنتفاع به لتنقية نفوسهم من الذل والصغار ، ومن الغريب أن الشعراء في الجاهلية كانوا يفتخرون بالفسق وزيارة النساء المتزوجات في الليل ، ولكن هنالك من كان يفتخر بالعفة ، وصيانة عرض الجار ، ولعل الكثيرين منا اليوم في عصر النور والعلم والمعرفة يحتاجون إلى الإنتفاع بافتخار بعض الشعراء البداة .

وكان بعض شعراء الجاهلية يفتخرون بعلمهم ومعرفتهم واطلاعهم على أخلاق الناس ، وغير ذلك .

وكان الإسلام ، فأخذ الناس يفتخرون بالتدين والتقوى ، والتزين بمكارم الأخلاق إلى جانب الصفات التي كانوا يفتخرون بها في الجاهلية ، وانتشر الإفتخار بالآباء والأجداد ، وكان الشعراء الحزبيون فافتخروا بزعماء أحزابهم وما يتحلون به من الشجاعة والشرف والحلم والإقتدار ، وغير ذلك من صفات الزعماء ، وقد

يفتخر الشاعر بقرابته إلى الحاكم أو إلى النبي كما يفتخر بصفات غرضه الأول منها هجاء الخصوم . قال الفرزدق :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقال جرير يخاطب الأخطل :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلي قطينا

وكان العصر العباسي ، فاتسعت آفاق الفخر باتساع آفاق الحياة وانتشر الغلو بين الشعراء فغلوا في فخرهم غلواً يصل أحياناً إلى درجة الجنون ، ولكن الشجاعة والكرم ظلتا في الطبقة الأولى من الصفات التي كان يفتخر بها الشعراء ، ومن الصفات التي كثر الإفتخار بها في العصر العباسي ، الإفتخار بالشعر ،والإطلاع على الحكمة والمنطق ، وعلو الكعب في الفهم والتفلسف .

وكانت عصور الإنحطاط ، والغريب أن الفخر لم يجار سائر الفنون في الإنحطاط ، وربما غلب عند بعض الشعراء على سائر الفنون ، قال ابن سناء الملك :

وانك عبدي يا زمان وإنني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

وعندما نهض الشعر نهضته الحديثة استحيا الشعراء من الأفتخار بنفوسهم كما كان يفتخر القدماء فضعف شأن الفخر في الشعر العربي .

المدح والهجاء

قلما كان الشاعر في الجاهلية يمدح إلا إذا أحب ممدوحه وأعجب بأعماله ، ولكن بعضهم كان يمدح رغبة في أموال الملوك والأمراء ، كأكثر شعراء المناذرة والغساسنة ، وكان النابغة فمدح وتكسب واتخذ من المديح وسيلة لأغراضه السياسية والذاتية ، ووفق في مديحه حتى روي أنه كان يأكل في صحاف الذهب والفضة ،

ولكنه خص مديحه بالملوك ، وكان الأعشى فمدح الملوك والسوقة ، واتخذ المديح سبيلا إلى كسب المال قيل إنه اتصل بكسرى ومدحه فلم يعجبه شعره ولكنه وصله ، وكان الحطيئة فمدح طمعا بالمال ، وهدد بالهجاء إذا لم يعط .

وبلاد العرب في أكثرها قفار جرد يهيمن على أقليمها الفقر ، ويكثر بين سكانها العزو . ولذلك كانت الشجاعة والكرم من أجمل الصفات التي كان العرب بها يمدحون ، وقد تفنن الشعراء في تصويرهما فشبهوا الممدوح في الكرم بالربيع والبحر والمطر ، وفي الشجاعة بالأسد والمنية والسيف . ومن الصفات التي كان الشعراء يمدحون بها الأمراء والزعماء إجارة الجار ، وإغاثة الملهوف ، وشرف النسب وغير ذلك من الصفات . أما الهجاء فكان أمره في الجاهلية أضعف من أمر المديح ، وكان الشعراء يهجون بالبخل واللؤم والغدر والجبن ، وضعة النسب والقبح وغير ذلك من صفة الخلق والأخلاق .

وتحول وجه المديح والهجاء في صدر الإسلام ، غير أن الشعراء ظلوا يهجون بالبخل والجبن ، ويمدحون بالشجاعة والكرم . ودخل المديح والهجاء ميداناً جديدا هو ميدان السياسة والدين فأصبح الشعراء يمدحون بالايمان والتقوى ، والبر والاحسان ، والعفة والصلاح ، والتمسك بتعاليم الاسلام ، ويهجون بالكفر و خلافة الحكام ، فلما كان عهد علي عاد الشعر إلى الطريق التي كان يسير فيها قبل الإسلام ، وقامت الدولة الأموية فقوي المديح والهجاء السياسيان ، ورغب الشعراء في التنعم بملذات الحياة فكان المادح يفد من البصرة وغيرها من الأمصار البعيدة إلى دمشق طمعاً بالمال ، وأصبح أكثر الشعراء متكسبين ، غير أن بعضهم كان متحمساً للحزب الذي ينتمي إليه لا يؤثر فيه عطاء ، ولا يمنعه في عصبيته وعد أو وعيد ، ونشأ في الهجاء فن جديد هو الهجاء بين الشعراء طمعاً بالشهرة والغلبة ، ومن غلب في الهجاء سكت فخمل ذكره وانحطت منزلته .

وضعف أمر الأحزاب في العهد العباسي ، وتغيرت الأحوال الاجتماعية ، وكثرت الأموال في الحواضر ، وطمع الشعراء في المال . والحفوا في طلبه . وكان

بعضهم يتخذ الهجاء سبيلاً إلى كسب المال ، فيهدد الأشراف بالهجاء حتى يسدوا فمه ، فإذا لم ينفع التهديد ، كان الهجاء المقذع ، وتفنن الشعراء في اكتساب المال حتى أصبح لكل قصيدة عندهم ثمن ، فهذه أربعون ألفا ، وتلك مائة الف ! . . روي أن بشار بن برد نال على قصيدة واحدة مائة ألف درهم والدرهم في تلك الأيام ليرة لبنانية اليوم ، وغلا الشعراء في المديح حتى جعلوا الممدوح الها يتحكم بالاقدار ، وذهبوا في الهجاء كل مذهب واستعملوا من بذيء الكلام ما يندى له الجبين ، ولما استقلت بعض الأمصار من بغداد أنشأ الملوك في قصورهم أندية للشعر ، وبذلوا للشعراء الأموال ، قيل إن سيف الدولة كان يعطي المتنبي ثلاثة آلاف دينار من الذهب على ثلاث قصائد ، وقد مدح المتنبي كافورا الأخشيدي صاحب مصر ثم هجاه هجاء مراً مؤلماً ، وظل الشعراء يعفرون جباههم على أعتاب الملوك والأمراء في عصر الإنحطاط ولكن مدحهم أصبح تقليداً حتى طغى عليه الغلو ، أما هجاؤهم فأصبح سخفا وهذياناً .

وظل الشعراء يمدحون ويهجون في عصر النهضة الحديثة ، وكان للقصور أثر في الشعر ، فبطرس كرامة شاعر الأمير بشير ، وأحمد فارس الشدياق مدح باي تونس وانتفع من مدحه ! . . وشوقي في ضحى النهضة كان شاعر الأمراء والملوك في مصر ، غير أن رقي العلم ، وارتقاء الفكر في النهضة أضعفا من أمر المديح والهجاء ، وزاحم رجال الصحافة الشعراء في كسب المال فافتقر هؤلاء ، واغتنى أكثر أولئك .

ومن النقاد من يرى أن المديح أضعف الشعر العربي ، وصرف الشعراء عن الفن إلى التدجيل ، وعن الطبع والشعور إلى النفاق ، ومنهم من يرى أن التكسب أفاد الشعر العربي ، وأن لقصور الملوك فضلاً كبيراً في رقيه ، وإن كان التكسب قد أذل الشعراء حتى أصبحوا سؤالاً ، وصرفهم عن الفن والصدق أحياناً فإن الشعراء المجيدين لم يصرفهم المديح عن الميادين التي خلقوا لها ، فالمتنبي حكيم الشعراء وحكمه في مدائحه ، والبحتري صور وغنى ، وصوره وأنغامه في مدائحه ، ولولا المديح لخسر الشعر العربي كثيراً من زعمائه .

المتنبي

(915 م ـ 303 هـ . 965 م ـ 354 هـ .)

هو أحمد بن الحسين الجعفي من شعراء العصر العباسي الثالث ، ولد في محلة كندة في الكوفة فعرف بالكندي ، وكني بأبي الطيب ولقب بالمتنبي ، وعاش في الدور الأول من ادوار حياته مسافراً من مدينة إلى مدينة يجاهد الدهر ويغالب الأيام ويدعي النبوة فيسجن ويتوب فيفرج عنه ، وينتقل من أمير إلى أمير مادحاً ، ولكنه لا يقع أمله في مكان حتى يخيب فلا يضعف ذلك من همته ، ولا يفت في ساعده وآماله .

واتصل في دوره الثاني بسيف الدولة فنعم عيشه ، وعلت منزلته وقربه الملك إليه ، وجعله فوق الشعراء جميعاً لا ينشده إلا قاعداً ، فأوغر بذلك قلوب الحساد ، وكان به كبر فأبغض الناس ، وتحاملوا عليه ووشوا به إلى سيف الدولة فكان يجفوه حيناً ، ويسمح لحساده أن يعبثوا به حيناً آخر ، حتى ضاق ذرع الشاعر بهم وعجز عن دفعهم ، وأبت نفسه الكبيرة الذل والمصانعة فترك بلاط سيف الدولة على كره ، وأم مصر طامعاً مؤملاً .

وعاش في دوره الثالث في مصر بالأماني ، ويتعلل بالوعود . ومدح كافور الأخشيدي طامعاً في ولاية ، راغباً في حكم ، فوعده كافور ولم يف بوعده ، فهرب من مصر ناقماً على العبد الأسود نقمة ثائرة مضطرمة . وهجاه هجاء قوياً لاذعاً .

وترك المتنبي مصر يائساً ، وأقام بالكوفة مدة . فكتب إليه سيف الدولة ان يعود إليه فأبى ، وقصد بغداد فلم يوفق فيها . وسار إلى فارس واتصل بابن العميد وعضد الدولة بن بويه فنال مالا وافراً . ولكن الإقامة هناك لم تطب له ، فعاد يريد الكوفة ، غير أنه قتل في بادية بني أسد ، واختلف المؤرخون في سبب قتله .

قال إبراهيم اليازجي في المتنبي: « ينطق بألسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان » فما هي الناحية الإنسانية في شعر المتنبي .

إذا كان المتنبي خالدا في شعره ففي تلك الناحية الإنسانية منه ، وإذا كان البحتري شاعر الطبيعة ، فالمتنبي شاعر الإنسان ، وتقوم عظمة المتنبي الشعرية على أبياته الحكمية المنفردة التي تتناول حياة الإنسان من أكثر نواحيها ، فلا يجد المرء نفسه في حال من الأحوال ، حتى يجد له في شعر المتنبي بيتاً أو نصف بيت يتمثل به ، ولأبي الطيب أكثر من مائة بيت من الشعر سبق فيها فلم يشق غباره شاعر ، وله نحو من خمسمائة بيت يجاري فيها شعراء الطبقة الأولى ، وله نحو مئتي بيت يخجل الطالب الناشيء أن تنسب إليه ، وما بين ذلك يتراوح بين الجودة والرداءة .

وإذا كان الشعر معرفة دقيقة بأفكار الناس ، وتعبيراً بليغاً عن خلجات نفوسهم ، فالمتنبي أعظم شعراء العرب ، وقد شبهه بعض النقاد بشكسبير ، ولم يقدم شكسبير لرقة في شعره ، أو تفنن في رسم الطبيعة وتصوير جمالها ، ولكنه رتب في الطبقة الأولى من شعراء العالم ، لأنه كان ينطق كل إنسان بما يجب أن ينطق .

وإذا كان من شروط الشعر العربي حلاوة في اللفظ ، وعذوبة في الجرس ، وجمال في التصوير ، فإن من شروطه أيضاً دقة الملاحظة وجمال التعبير عن أفكار الناس ، وقد درس المتنبي في مدرسة المجتمع البشري فكان شاعر الإنسان يصف طموحه وظلمه ، وكذبه ونفاقه ورياءه ، وغير ذلك من الصفات البشرية المتفرقة في شعره .

وتأثر المتنبي بحكمة اليونان ، وقد ألف الحاتمي رسالة أورد فيها ما توارد من المعاني بين المتنبي وأرسطو فبلغت نحواً من مئة وخمسين بيتاً يكاد بعضها يكون منقولاً بالحرف الواحد ، فإذا كان المتنبي قد أخذها عن أرسطو ففي ذلك دليل على علمه واطلاعه ، وله في نظمها فضل على الفيلسوف اليوناني نفسه ، ولولاه لم تنشر بين

الناس ، وإذا كان المتنبي قد ابتدع بعض هذه الحكم ففي ذلك دليل على عبقريته ، قال أرسطو « النفوس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفوس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام » وقال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وقال أرسطو « الظلم من طبع النفوس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين علة دينية لخوف معاد ، وعلة سياسية لخوف الإنتقام » وقال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقال أرسطو « علل الافهام أشد من علل الأجسام » وقال المتنبي :

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول

وقال أرسطو « الجبن ذلة كامنة في النفس فإذا خلا الجبان بنفسه أظهر شجاعته » وقال المتنبي :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ولم تكن حكم المتنبي الخالدة كلها من نتائج الدرس والعلم ، بل كان للتجارب أثرها فيها ، وفي ذلك ما يدل على عظمته ورفيع منزلته بين الحكماء ، عاشر طبقات المجتمع كلها فلم يجد في رأيه إلا الكذب والنفاق قال :

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

والمتشائمون كلهم يشاركون المتنبي في رأيه ، وأكثر المتفائلين يوافقونه إلى حد ، وإن كانوا يرون أن الإنسانية تسير في سبيل الإصلاح والرقي .

وعاش أبو الطيب عند سيف الدولة معززاً مكرماً ، ولكنه كان محسوداً يحسده كبار رجال الدولة ووزراؤها ، وأقارب سيف الدولة وأبناء عمه ، فاضطر إلى

مصانعة من يحسده ، ومصاحبة من يكرهه ، ولا نزال نرى في مثل هذه المصانعة ألماً وشقاء قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

والمتنبي من أصحاب النفوس الأبية الكبيرة ، ولا يزال هؤلاء يفضلون الإكرام والإحترام على المناصب والأموال ، فلا غرابة أن يعيش المتنبي شقياً مجاهداً ، وأن يعيش بعد موته زعيماً للكرام قال :

وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرّم

وكان المتنبي معجباً بذكائه ، فخوراً بعقله ، وعاش شقياً فاكتسب حكمة نطق بها فإذا هو ينطق بكل لسان قال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وما تزال هذه الحكمة السامية على ألسنة الخاصة والعامة نقول : ما لذة العيش إلا للمجانين ، ومن يطلع على سير الحكماء يرى أنهم في واد ، والسعادة في واد ، وسبب ذلك أن الذكاء والسعادة لا يجتمعان ، فإذا لم يشق الذكي همه أشقاه هم الآخرين ، وإذا لم يتألم من ظلم ألم به آلمه ظلم الناس ، وإذا انصرف عن مشاغل الناس إلى العلم حملته همته إلى معرفة المجهول ، وسما به همه إلى كشف الأسرار ، فإذا قصر حزن ، وإذا عجز تألم ، وإن يفزبما يريد تطلع إلى الأمام فرأى أن هنالك أسراراً تطلب هماً ، وأشياء مجهولة تشغل الفكر فتؤلمه ، وكأن هذه الحكمة كانت متمكنة من نفس المتنبي فرددها أكثر من مرة قال :

أفاضل الناس أغراض لدى الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقال :

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهي النفس وجده

وما أقل ما نرى من أحوال الحياة مما لا نجد له أثراً في شعر المتنبي ، وكم من كهل متصاب يمجن ويعبث وثري يبخل على نفسه بالطعام ، وفقير مسرف يستدين ليقلد الأغنياء ، ومتأدب لا يغضب حتى تخرج الشتائم من فمه كالسيل ، فلا نلبث أن نقول مع المتنبي :

لكل امـرىء من دهـره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

والإنسان ميال بطبعه أو بتأثير نظامه إلى الشر ، وهو لا يخترع اختراعاً حتى يحوله إلى القتل والتدمير ، ولا تجود عليه الأرض بالخيرات حتى يجعلها أسباباً للفتك قال المتنبي :

كلما انبـت الزمـان قناة ركب المرء في القنـاة سنانا

والبشر قسمان كرام لا يخضعون الا للطف ، ولئام لا ينامون الا للقوة ، قال المتنبي :

إذا أنـت أكرمـت الـكريم ملكته وإن أنـت أكرمـت اللئيم تمردا

وللمتنبي كثير من الأبيات المنتشرة بين الخاصة والعامة ، وربما كانت عظمة المتنبي في شهرته بين العامة ، وهم يعرفون من شعره أكثر مما يعرفون من شعر الشعراء مجتمعين .

وكثيراً ما تكون مصيبة الناس من أقرب الناس إليهم قال المتنبي :

ومـن العـداوة ما ينـالك نفعه ومـن الصداقـة ما يضر ويؤلـم

وكثيراً ما ننظر إلى نسائنا المتمدنات المتبرجات تغطي الأصباغ وجوههن ، وينعم الترف والراحة بشراتهن ، فتعجب بجمال الحضارة ونعومة الترف ، ثم نرى فتاة قروية صباغها دم الصحة ، وبشرتها سمرة الشمس ، فنردد وكثيرا ما نردد :

حسـن الحضـارة مجلـوب بتطرية وفي البـداوة حسـن غـير مجلوب

ولا اظن شابا على شيء من الثقافة لم يردد قول المتنبي مرارا كثيره :

لا يسلـــم الشرف الـــرفيع من الاذى حتـــى يراق على جوانبـــه الدم

وللمتنبي مئات من مثل هذه الأبيات الناطقة بكل لسان ، ومئات من أنصاف الأبيات التي تتضمن أمثالاً صالحة لكل موقف وحال ، وحكماً خالدة لا يذهب بها زمان أو مكان ، وقلما نجد موقفاً من مواقف الحياة يعجز فيه الإنسان عن أن يعثر في شعر المتنبي على بيت أو نصف بيت يوافق تلك الحال أما الذين لا يقرون بعظمة المتنبي ، ولا يعترفون بشهرته وخلوده فيكفيهم قوله :

وليس يصـــح في الافهـــام شيء إذا احتـــاج النهـــار إلى دليل

تأثير سيف الدولة وكافور في شعره

مدح المتنبي قبل سيف الدولة عدداً كبيراً من الوزراء والأمراء ، وكان في هذا المديح شاعراً يريد أن يشق طريق الشعر لنفسه ، وكان في مديحه متكسباً يرغب في الصلات الوافرة ، ولم ينقطع في هذا الدور إلى وزير أو أمير ، بل كان يفد على الممدوح بقصيدة يقبض ثمنها ، ثم لا يلبث حتى يغادره إلى غيره ، منتقلاً من مكان إلى مكان يلازمه النحس ، ويجزى أحياناً بدينار واحد ، وما كان ليجد في مستقبله غير ظلام دامس طويل ، وفي ذاته غير نفس طموح لا تيأس ، وهمة عالية جبارة لا تلين ، ومن أشهر مدائحه قبل سيف الدولة قصيدته اللامية في مدح بدر بن عمار ، وفيها من التغني في وصف الأسد ما يدل على عبقرية ناشئة لا بد من أن تلمع وتشرق .

ولما اتصل المتنبي بسيف الدولة انقطع إليه ، ورافقه في غزواته وحروبه ، وأحبه حباً صحيحاً صادقاً ، ويرى بعضهم أنه أحب أخت الملك الكبرى وطمع في الزواج منها ، ويقال إن هذا الحب كان من أسباب العداء بين ابي الطيب وأبي فراس ، ومنهم من يرى أن المتنبي أخلص الود لسيف الدولة لما كان يجود عليه من الأموال مع غنج الشاعر وإدلاله ، وإعجابه بنفسه ، قال أبو فراس مرة لسيف

الدولة « إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد » ويرى غيرهم السبب في حب الشاعر لمليكه أن الملك كان يحترمه ويقدمه على سائر الشعراء ، وكان المتنبي أبي النفس يحب من يحترمه ، ويخلص الود لمن يكرمه ، وربما كان أحلى على قلبه أن ينشد الملك قصائده قاعداً ، وعيون الشعراء تنظر إليه نظرة الحسد والغيرة ، من أن يكون صاحب ضيعة أو حكم أو ولاية قال :

وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرم

وربما كان في خصال سيف الدولة ما يدعو إلى الاحترام وفي نفسه الكبيرة ما يستل الإعجاب والإكرام ، ولا يعرف قيمة العظيم إلا العظيم ، ولا شك في أن بين النفوس الكبيرة أسباباً للحب والوداد ، وصلات متينة للإكرام والإحترام ، فلا عجب أن يخلص المتنبي العظيم الحب لسيف الدولة العظيم فيتركه على مضض ولا يهجوه بعد تركه بل يمدحه وهو عند كافور قال :

فراق ومن فارقت خير مفارق وأم ومن يممت خير ميمم

أما كافور فقد كان عبداً أسود ليس له من شرف النسب ما لسيف الدولة ، ولا شك في أن المتنبي لم ير فيه ذلك المثل العالي الذي صورته له أحلامه ، ونسجته أمانيه وآماله ، ورسمه فنه وخياله ، ولذلك احتقره ولم يحمل له في نفسه الإعجاب والإحترام اللذين حملهما لسيف الدولة ، وكأن كافوراً لم ير في المتنبي تلك النفس الكبيرة التي تخيلها ، ولم يجد ذلك الاباء السامي الذي تصوره ، أو أنه خاف أن ينضم الشاعر إلى أعدائه ، ويعمل مع أولئك الناقمين الذين ينظرون إلى حاكم مصر نظرة الحسد ، ولا يرون فيه غير دعي مغتصب ، ويرى بعض الأدباء أن المتنبي اصطنع التزلف عند كافور على غير عادته فكان ينشد العبد واقفاً بين يديه ، ولم ينشد الحر إلا قاعدا ، والأرجح أن الشاعر فعل ذلك مرغماً لا راضياً ، ومكرهاً لا مختاراً ، ولسنا نظن أنه كان يأبى القعود أمام كافور لو سمح له بذلك ، أو الوقوف

أمام سيف الدولة لو أبى عليه الملك غير الوقوف ، والنفس راغبة إذا رغبتها ، وطامحة ما رأت مجال الطموح أمامها واسعاً ، فإذا ردت إلى القليل قنعت به ، قال المتنبي :

والنفس راغبـة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ورأى المتنبي في إصرار كافور على أن ينشده واقفاً ما يسيء إلى نفسه الكبيرة التي تعودت القعود ، ويجرح فؤاده الطموح الذي يحتقر كل ما خلق الله فاضطغنها قلبه والقلوب كالزجاج كسره لا يجبر ، ولذلك لم يحمل له في قلبه احتراماً وحباً ، وهو الذي لم يحترمه منذ ما لقيه ، ولذلك لم يتورع عن هجائه هجاء مؤلماً مقذعاً بعد ما تركه .

ويتصف مديح المتنبي لسيف الدولة بالطبع الصادق والعاطفة المعجبة الدفاقة والشعور الحي الفياض وهو يتدفق بآيات الحب والإخلاص ، ولكنه لا يخلو من الحكم السامية ، والصور البارعة ، والرسوم الفنية الرائعة ، والغلو المألوف في عصره والمدح بصفات يحبها الشاعر ويرنو اليها ، ويزيد على ذلك كله إبداعه في وصف المعارك والحروب ، والإدلال على الممدوح ، ومخاطبته بلغة الحب والوداد ، والمتنبي حكيم الشعراء وهو يتخذ من حكمته سبيلاً إلى أغراضه الاخر كالمديح والهجاء وغيرهما ، وأي فائدة من الحكمة إذا لم تكن غايتها خدمة الإنسان وإشباع رغائبه قال المتنبي يمدح سيف الدولة :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

وفي الشطر الأول حكمة وفي الثاني مديح ومن هذه القصيدة في الغلو قوله :

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجداً
وصول إلى المستصعبات بخيله فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

ومنها في الحكم :

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه تصيده الضرغام فيمن تصيدا

إذا أنــت أكرمــت الــكريم ملكته وإن أنــت أكرمــت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف فى العلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

وللمتنبي في سيف الدولة شعر كثير يتصف اكثره بحسن الاداء وجودة الأسلوب ، وميله إلى الجزالة السهلة ، والبيان البليغ ، وبعده عن الغلو في الصنعة والتهذيب ، وان لم يخل من شذوذ النوابغ ، وسخف العظماء ، وإسفاف المحلقين ، ومن هذا الشعر الجيد قصيدته الخالدة ، « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » وقصيدته : « الرأي قبل شجاعة الشجعان » وغيرهما كثير وفيها كلها فن وحكم ومديح مخلص .

أما مدائحه في كافور فكانت مصانعة ورياء وليس فيها رسوم يحلق فيها كما حلق في مدح سيف الدولة أو مدح بدر بن عمار . ولكن فيها سهولة في التركيب ، ورشاقة فى اللفظ ، وبعدا عن الصنعة البيانية والتهذيب ، ولعل السبب فى ذلك على ما ذكره الناقدون أنه كان ينحو أول امره نحو أبي تمام وغيره من شعراء الصنعة ، فيثقف شعره ، ويتعب فى تثقيفه ، ويفتش عن الغريب تفتيشاً ، يزاد على ذلك أن ملكة النظم لم تكن قد تمكنت منه ، وربما كان لحياة البادية أثرها الكبير في شعره ورأى نفسه عند سيف الدولة في محفل حافل بالعلماء والشعراء يحصون عليه أنفاسه ويفتشون عن غلطاته وسرقاته . ويحتقرون شعره إذا كان سهلاً مسترسلاً مع الطبع ويحسبون ذلك منه ضعفاً . أما كافور فلم يكن بالعربي البليغ ولم يكن في بلاطه كأبي فراس وابن خالويه وغيرهما ، ولذلك سار المتنبي عنده على طبعه آمناً فكان في شعره سهولة وبيان ، وفي أسلوبه طبع ورشاقة ، وله فيه قصيدته « إنما التهنئات للأكفاء » وهي تجرى مع السهولة حتى تنزل إلى الرقة وتسير مع الطبع لا تثقيف فيها ولا تهذيب ومنها :

كرم في شجاعــة وذكاء في بهــاء وقــدرة في وفاء
يا رجــاء العيون في كل أرض لم يكن غــير أن أراك رجائي

وله فيه قصيدته الدالية « أود من الأيام ما لا توده » وفيها سهولة ورشاقة ، وان لم تبلغ في الرقة مبلغ الهمزية ومنها في الحكم :

وأسرع مفعــول فعلــت تغيرا تكلف شيء في طباعــك ضده

وهذاالمعنى مأخوذ عن أرسطو ومنها :

فلا مجــد في الــدنيا لمن قل ماله ولا مال في الــدنيا لمن قل مجده

ويروى أن سبب البخل عند المتنبي طمعه في المجد ، وقد رأى أن النـاس يكرمون الغني لغناه ، ومنها في طلب الولاية والمجد :

إذا كنــت في شك من السيف فابله فإمــا تنفيه وإمــا تعده

وله فيه قصيدته اليائية التي عارضها شوقي وهو يغلو فيها غلو أهل عصره ومنها :

وغــير كثـير أن يزورك راجل فيرجــع ملــكاً للعراقــين واليا
ومنها : إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنــك تعطــي من نداك المعاليا
ومنهــا : فأصبــح فوق العــالمين يرونه وإن كان يدنيه التــكرم نائبا

وهنالك شخص آخر مدحه المتنبي في مصر ، وهو أبو شجاع فاتك ، وكان من خصوم كافور ، ولما مات رثاه رثاء عاطفياً جمع فيه بين رثـاء أبـي شجـاع وهجـاء كافور .

وصفوة القول ان المتنبي مدح سيف الدولة مخلصاً له الحب والوداد ، حاملاً له في فؤاده الإعجاب والإحترام ، وانه مدح كافوراً طمعاً بالولاية والحكم ، ولـم يكن له في فؤاده إعجاباً واحتراماً .

أما الصفات العامة في مديح المتنبي فهي الإكثار من الحكم السائرة والمعاني السامية الخالدة ، والوصف القوي الحربـي ، والمدح بالصفـات التـي يرنـو إليهـا الشاعر ويرى مثله الأعلى فيها كالكرم والشجاعة والبطش والفخر والإباء ، والعلم

والذكاء ، وغير ذلك من الصفات التي يتمدح بها العرب ، والتي كان يعتقد المتنبي انها من صفاته وهو يغلو في مديحه غلواً كان معقولاً في عصره ومفضلاً .

ويتصف مديح المتنبي قبل سيف الدولة بالصنعة والتهذيب ، وغرابة اللفظ وقوة التركيب ، والإسفاف أحياناً كثيرة ، وفيه صور فنية مصنوعة ، أما مديحه في سيف الدولة فيتصف بالتهذيب والتثقيف ، والجزالة التي تنحو أحياناً نحو القوة وتميل أحياناً إلى السهولة ، والبلاغة التي قل فيها الفن البياني ، والتحليق في وصف المعارك والحروب ، أما في كافور فيتصف مديحه بالبراعة والرشاقة والتمكن من ناصية البيان واللغة والفصاحة ، والسهولة في التركيب والإسترسال مع الطبع في اللفظ .

أما هجاء المتنبي فشبيه بمديحه يتقلب بتقلب أدوار حياته ، ويختلف باختلاف المؤثرات التي عملت في طراز معيشته ، ولكنه يختلف عن المديح في أنه لم يتكلف فيه شيئاً ضد طباعه ، ولم يهج مرة مضطرا أو مكرهاً ، أو متكلفاً شيئاً من طباعه ضده ، بل هجا ناقماً دائماً ، وثائراً مهتاجاً أبداً .

وكان المتنبي في الدور الأول من أدوار حياته مجاهداً يحارب الدهر ويعارك الأيام ليشق طريقه إلى المجد ، وكان في هذا الدور حاسداً لا محسوداً ، يرى أن الدهر لم يعرف قدره ، ويعتقد أن الناس لم ينصفوه ، ولذلك غضب على الدهر ، وحمل على الناس جميعاً . وكان هجاؤه أميل إلى الصنعة الشعرية والتلاعب بالألفاظ والمعاني . ولكنه كان أحياناً ينقم على بعض الناس الذين يقفون حجر عثرة في سبيل طموحه ، قيل إن أحدهم انتقص من شعره أمام أحد الأمراء فهجاه غاضباً ناقماً قال :

فيا ابن كروس يا نصف أعمى وأن تفخر فيا نصف البصير
تعيرنا لأنا غير لكن وتبغضنا لأنا غير عور

وما يزال هذا الهجاء صالحاً في كل أعور إلى اليوم ، وقيل ان محافظ طرابلس

طلب منه مرة أن يمدحه فأبى ترفعاً ، فأخره ثلاثة أيام ، فهجاه هجاء مراً مطبوعاً ، ومن هجائه فيه قوله :

ومــن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطــاب من لا يفهم

ومنــه :

وجفــونــه مــا تســتقــر كأنهــا مطـروفـة أو فت فيهــا حصــرم

ونعم المتنبي في دوره الثاني عند سيف الدولة ، وقربه الملك وأكرمه ، وجاد عليه بالأموال ، وأعجب به واحترمه ، حتى سمح له أن ينشده جالساً وكان ذلك كله سبباً في تألب الشعراء عليه ، وحسدهم إياه ، وكان به كبر وعنفوان فازدادوا له بغضاً ومنافسة ، وكثيراً ما وشوا به إلى سيف الدولة فكان يجفوه حيناً ويعتب عليه حيناً ، ويرضى عنه بعد لأي فتألم ونقم ، وهــي هجاء مرا مطبوعاً ، وكانت نقمته في هذا الهجاء نقمة المحسود لا نقمة الحاسد ، وثورته ثورة المظلوم الخائف أن تزول نعمته ، ولكنه لم يفحش في هجائه ولم يشتم ، ولعله فعل ذلك احتراماً لسيف الدولة ، أو لعله خاف على رأسه وكان أكثر الذين تناولهم بالهجاء الشعراء ، وكان أكبر منافسيه منهم أبا فراس ، وهو ابن عم سيف الدولة ومن الأبطال الشجعان ، ولذلك كان هم المتنبي إن يحصر هجاءه في دائرة الفن الشعري فيلمح حينا ويصرح حينا ، وكثيراً ما كان يتجه إلى العبث والإستهزاء فيجعل من الشعراء حمقى ، ويتخذ منهم أدوات يلهو بها سيف الدولة ويتسلى ، قال :

إذا شاء أن يلهــو بلحية أحمق أراه غبــاري ثم قال له الحق

وكثيراً ما كان يؤلمه جهلهم أو تجاهلهم ، وينقم على انتقادهم المبني على الغيرة والحســد ، لا على النقد الصحيح الفني ، فيقول :

وليس يصــح في الافهــام شيء إذا احتــاج النهــار إلى دليل

وإذا كان هذا البيت من باب الحكم فإن المتنبي كان يستخدم حكمته لأغراضه

الأخر ، واشتدت حملة الحساد عليه حتى لم يستطع صبرا على حسدهم ، قال يخاطب سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسدا

ويضيق بهم ذرعا ، ويعلو بنفسه عليهم فيهجوهم هجاء الاحتقار ، قال :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

ويشتد حسد الحساد ، وتزداد نقمة المتنبي ، ويشتد ساعدهم فيضعف عن مقاومتهم ، وتأبى نفسه الكبيرة أن يصانعهم فيترك سيف الدولة على رغمه وحبه له ، ويقصد مصر طامعاً طماحاً ، وينسى ما أصابه في حلب فلا يهجو سيف الدولة ولا يهجو الشعراء .

وسار المتنبي إلى مصر بعد ما توالت عليه الأرزاء ، أو ما يعتقدها أرزاء ، وبعد ما أثرت فيه الخيبة ، وحطت الأيام من عنفوانه وحماسته ، وكان الزمان قد تقدم به ، والإنسان في أيام الشباب قوي طماح لا تقف أمامه عثرة حتى يذللها ، ولا تمنعه من التقدم عقبة حتى يحطمها ، وما يزال في طموح وصعود ما زال جسده في نماء ، فإذا ولى الزمان به ، وذهب عهد الشباب ضعفت همته فلا يلبث أن يتراجع أحياناً أمام المصاعب ، وهو بعد الأربعين ضنين بآماله ، خائف على أمانيه أن تتحطم ، فإذا خاب ، وتوالت عليه العقبات نقم ، وكانت نقمته شديدة ، وعز عليه أن يعود إلى الجهاد بعد الخيبة ، وقد سار المتنبي إلى مصر تحدوه الآمال ، وتدفعه المطامع والأحلام ، وزاده كافور أملاً فطلب ولاية وحكما ، وأخذ يحلم بالسيادة التي فاتته في شبابه ، ولذلك مدح العبد الخصي مديحاً بارعاً جوده وتعب في نظمه ، ولكن كافوراً منعه فحطم آماله ، وأخلف وعده له فاستولى اليأس على نفسه ، وكانت خيبته مرة فهجاه هجاء قاسياً ، وترك ميدان الطموح إلى ساحة كافور يفتش فيها عن عيوبه ، وينقب عما يشفي به نفسه من ثورتها ، ولسنا نرى في هجاء المتنبي لكافور ذلك الطموح الذي نراه في هجائه للشعراء عند سيف الدولة ، ولا نجد ذلك

العنفوان الذي رأيناه في هجاء المتنبي أيام شبابه ، وما هجاؤه للعبد إلا عيوب ومخاز فكأن روح الشاعر العظيم قد اختفت لتظهر نفس العبد اللئيم ونفوس الراضين بحكمه ، ولا يرضى بحكم اللئيم إلا اللئام ، قال المتنبي :

من حكم العبد على نفسه الأم من عبد ومن عرسه
فلا ترج الخير عند امرىء مرت يد النخاس في رأسه

وفي هذا الهجاء سهولة يزاحم فيها المتنبي شعراء الرقة المشهورين ، فكأنه غريب عن خصائص المتنبي في أسلوبه ، غير أن أبا الطيب في هذا الهجاء ناقم مطبوع ، ومتألم ثائر . ولم يكتف كافور بحرمان المتنبي ، بل منعه من ترك مصر ، فقال :

نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وفي هجاء المتنبي حكمة أسدل الستائر عليها الذكاء ، قال :

العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

ولا يستبد بالناس مثل من ذاق طعم الإستبداد ، ولا يستعبدهم إلا من كان في نفسه شيء من صفات العبيد .

والمتنبي في هجائه لكافور لا يعتدل ، بل يركب إليه كل مركب ، ويسير في تعبيره على كل سبيل فيسلبه الصفات الحسنة ، والأخلاق الكريمة ، ويصفه بقبح الهيئة ، وسواد الوجه ، وضعة القدر ، ويصغره ويحتقره وغير ذلك مما يؤثر في الخاصة والعامة معاً قال :

من علّم الأسود المخصي مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنــه في يد النخــاس دامية   أم قدره وهــو بالفلســين مردود
أولى اللئــام كويفــير بمعذرة   في كل لوم وبعض العذر تفنيد

وإذا كان من الناس من يبكيهم الألم ، ويهدهم الإستبداد ، فمن الناس من يثيرهم اللؤم والظلم ، والمتنبي من الذين يثورون ، لا من الذين يبكون ، وإذا وجد عذراً لكافور فلأن الناس كلهم لئام قال :

وذاك ان الفحــول البيض عاجزة   عن الجميل فكيف الخصية السود

ويجيد المتنبي في تصوير كافور حتى يجعله تمثالاً من العيوب والمخازي ، قال :

أمينــا وإخلافــا وغــدرا وخسة   وجبنــا أشخصــا لحــت لي أم مخازيا

وأسلوب المتنبي في هجاء كافور سهل مرسل يدل على عاطفة ثائرة وطبع دفاق ، وإذا كان الشاعر مطبوعاً غرف الشعر فيه من بحر فكان سهلاً ، وقد تمكن بغض كافور من فؤاد المتنبي حتى أصبح بضعة منه ، فهجاه في مواقف أبعد ما تكون عن الهجاء . مات أبو شجاع فاتك وكان المتنبي يحبه ويحترمه ، فرثاه رثاء حزيناً مؤلماً ، ولم يتورع والموقف موقف رثاء عن أن يهجو كافورا امرٌ الهجاء ، قال :

أيمـوت مثــل أبــي شجــاع فاتك   ويعيش حاســده الخصي الأوكع

إلى أن يقول مخاطباً الدهر :

أبقيت أكذب كاذب أبقيته   وأخـذت أصـدق من يقــول ويسمع
وتــركت أنتــن ريحــة مذمومة   وسلبــت أطيب ريحــة تتضوع

ومما يزيد هذا الهجاء إيلاما المقابلة ، والضد يظهر قوته الضد .

وترك المتنبي مصر يائساً ثائراً ، ولكنه لم يترك هجاء كافور ، ونزل في طريقه

على رجل من طيء يقال له وردان ، فاستغوى عبيد أبي الطيب ، فأخذوا يسرقون له من أمتعته ، فلما علم بذلك قتل أحد عبيده ، وقال يهجو وردان :

لئـن تلك طيء كانـت لئاما فالأمهـا ربيعـة أو بنوه
وأن تلك طيء كانـت كراما فوردان لغيرهـم أبوه

وفي الأبيات هجاء شديد ثائر ، ولكنه لا يصل في ثورته إلى ما نراه في هجاء كافور ، وذلك لأن المتنبي خسر عند وردان مالا ، وفقد عند كافور آمالا ، وشتان ما بين الأموال والآمال .

وأبرز صفات الهجاء عند المتنبي ولعه بالتصغير والسخرية ، ونفاذه إلى الفضائل يجرد منها مهجوه ، واعتماده على الرذائل يسربله بها ، ومزجه بين الهجاء بسلب الصفات الحسنة ، وقبح الوجه والهيئة وضعة النسب ، ولا يخلو هجاؤه من المحسنات اللفظية ، والصنعة البيانية ، ولكنهما في الهجاء أقل منهما في الوصف والمديح ، لأن العاطفة القوية لا تظهر عند المتنبي في فن من فنون الشعر ظهورها في الهجاء .

وأسلوب هجاء المتنبي في أول أمره مثقف مصنوع ، جزل لفظه ، قوي تركيبه ، وفي حلب جميل أسلوبه ، بليغ انشاؤه ، وفي كافور سهل مسترسل مع الطبع ، قليلة صنعته ، ضعيف تثقيفه .

بين مديح المتنبي وهجائه

إذا كان الشعر ، إلا أقله ، راجعاً إلى باب الوصف كما قال ابن رشيق ، أو كان وليد الخيال البكر كما قال أحد أدباء الإفرنج ، فالمتنبي في مديحه أشعر منه في هجائه ، لأن فنه التصويري في المديح أرفع منه في الهجاء ، وخياله أبدع وأروع ، ووصف الأسد في مديح بدر بن عمار ، ووصف جيوش الروم الهاربة ، ووصف سيف الدولة في حربه مع الروم من أجمل الأوصاف في الأدب العربي . قال ابن الأثير في أبي الطيب : « إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع

من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا » . ووصف المعارك والحروب قسم من مدائح المتنبي .

وإذا كان الشعر شعوراً فياضا صادقا . وعاطفة متأثرة دفاقة . فالمتنبي في هجائه أشعر منه في مديحه، وهو لم يمدح صادقا مخلصا غير سيف الدولة ، أما الذين هجاهم فقد كان عليهم ناقماً ثائراً ، ولهم كارها مبغضاً ، ومنهم غاضباً منتقما ، نزيد على ذلك أن الثورة كانت بضعة من فؤاده ، وجزءاً من نفسه ، وكان في شعره كله ناقماً .

وإذا كان الشعر حكمة رائعة ، ومعنى بديعا سائراً ، فالمتنبي في مديحه كالمتنبي في هجائه ، حكيم شعراء العرب ، وإذا كانت الحكم في المديح أكثر منها في الهجاء فلأن مدائحه أكثر من أهاجيه ، وإذا كان العقل قائد قوى الشعر فالمتنبي قائد الشعراء .

وأسلوب المتنبي في المديح أجزل منه في الهجاء وأقوى ، وفي الهجاء أسهل وأكثر استرسالاً .

أما من حيث الموسيقى ، فشعر المتنبي كله قوي لا يصلح للغناء ، غير أن فيه نوعاً من الموسيقى العوية التي هي أقرب إلى موسيقى الحرب منها إلى سائر ضروب الأغاني ، وموسيقى المتنبي الحربية في مدائحه لا في أهاجيه .

لسانه أمضى من نصال المعركة

قال ابن الأثير في المتنبي : « إذا خاض في وسط معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، وأن السلاحين قد تواصلا » . فما صحة هذا القول وما أبرز خصائص الوصف عند المتنبي .

المتنبي شاعر الخيل والليل والبيداء ، وخياله خيال العظمة والقوة والعلاء ،

وأبرز خصائص وصفه جزالة لفظه ، وفخامة تركيبه ، وميله إلى ألوان الحرب في التصوير ، وولعه بمظاهر القوة في الرسم ، وقد كان له من طبعه نفس كبيرة تطمح إلى المجد والقوة ، وكان يرى الشهرة الصحيحة في تضريب أعناق الرجال ، والمجد في الهبوات السود والعسكر المجر قال :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما ... تداول سمع المرء أنمله العشر

وكان لحياته ونفسه أثر في شعره ، فكان لوصفه دوي كدوي الجيوش ، وكانت ألوانه قوية كلمعان السيوف وبريق الرماح .

وقد عاش المتنبي في الدور الأول من أدوار حياته جوابة آفاق ، ينتقل من مكان إلى مكان في عصر اضطرب فيه حبل الأمن ، وكثرت الشيع والفرق ، وانتشرت الفتن والثورات ، ولم يكن له في تنقله من سمير غير شجاعته ، ومن أنيس غير جواده ، ومن صديق أو رفيق إلا سيفه ورمحه ، وعاش بين الاعراب ، وكان له منهم أصدقاء وأتباع وأصحاب . وأدعى النبوة في رأي بعض الأدباء ، والزعامة في رأي غيرهم ، والإمامة في قول بعضهم ، وكان قائداً لفرق من الغازين والثائرين ، وروي أنه سجن وهو لا يزال دون العشرين ، فكأنه ربي بين الطعن والضرب ، وعاش شبابه بين السيف والرمح ، واصطحب منذ نشأته الخيل والليل والبيداء ، ولذلك كان خياله أقرب إلى القوة ، ووصف مشاهد الحرب والقتال .

وعاش أبو الطيب في دوره الثاني عند سيف الدولة يرافقه في غزواته ، وقيل إنه كان السبب مرة في نجاته ، وذكر الرواة أنه في أحدى الغزوات تراجع الجيش ولم يبق في الميدان غير سيف الدولة وستة من رجاله أحدهم المتنبي ، وكانت غزوات سيف الدولة كثيرة ، وحروبه عديدة ، فكان المتنبي وسيفه إلى جانبه يصف ما يرى ، ويصور ما يشاهد ، وكان خياله يسبح بين الخميس فينطلق بما يشعر به .

وذهب المتنبي في دوره الثالث إلى مصر ، فعاش هنالك حياة يسودها الهدوء ، ويهيمن على جوها الراحة والسلام ، ولكن خياله المتأثر بمشاهد المعارك والحروب ، كان يسبح أبداً في ميادينها ، وأحلامه الطامحة إلى العلاء والعظمة كانت تطلب حكماً يشبع طموحها ، وترنو إلى ولاية تروي غليلها ، ولذلك ظل خياله خيال العظمة والقوة ، وبخل عليه كافور فهرب من مصر ومعه جيش صغير من غلمانه وأتباعه ، ولكن معه نفسه الكبيرة وجواده وسيفه .

وسار إلى الكوفة ، ثم قصد بغداد ، ولكن الإقامة في دار السلام لم ترق للمولع بالخصام ، المتعود العظمة وركوب الجياد ، واقتحام الأمور العظام ، وإذا كان المتنبي شاعراً حكيماً فقد كان بطلاً عظيماً ، وكما كان مولعاً بالقرطاس والقلم كان مولعاً بالسيف والرمح ، وهو القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والغريب أن هذا البيت كان السبب في قتله ، وقد ذكره به غلامه عندما هرب من القتال فعاد فقتل .

وإذا كانت الحكم سبباً من أسباب خلود المتنبي فوصف الخيل والجيوش سبب آخر من أسباب عظمته ، وإذا أجاد أبو الطيب في وصف الخيل فقد كان فارسها ، وإذا حلق في وصف الجيوش فقد عاش في وسطها ، وكان من أبطالها ، وإذا لم يزاحم المتنبي البحتري في وصف الطبيعة ومواقف اللقاء ، وإذا قصر عن الشعراء في وصف المرأة ، فقد فاقهم في وصف الحروب والجيوش ، قال يصف جيوش الروم :

أتوك يجرون الحديد كأنما   سروا بجياد ما لهن قوائم
إذا برقوا لم تعرف البيض منهم   ثيابهم من مثلها والعمائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وامة   فما يفهم الحداث الا التراجم

وألوان الصور في هذه الأبيات حربية كسواد الحديد وبياض السيوف ، وفيها

جلبة وضوضاء ، ودوي وزمزمة ، فكأنها موسيقى حربية قوية ، وقال يصف سيف الدولة في القتال :

تمـر بك الأبطـال كلمـى هزيمة ووجهـك وضـاح وثغـرك باسم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة تمـوت الخـوافي تحتهـا والقوادم
نثرتهـم فوق الأحيدب كله كما نثـرت فوق العـروس الدراهم

وفي هذه الأبيات صور للحرب قوية ، ورسوم للمعركة جميلة ، وقد حلق المتنبي في تصويرها وسبق ، وما زلنا ننظر إلى سيف الدولة مبتسماً ابتسامة الواثق بالنصر ، يضم الجناحين إلى القلب فيمزقهما ويضعضعه ، وإذا كان في هذا الوصف مبالغة فالغلو من صفات الشعر في العصر العباسي الثالث ، وقال المتنبي يصف الخيل :

وجـردا مددنـا بـين آذانهـا القنا فبتـن خفافـاً يتبعـن العواليا
تجـاذب فرسـان الصبـاح أعنة كأن على الأعنـاق منهـا أفاعيا

وفي الشطر الأخير صورة جمعت بين الوصف الحسي والوصف الخيالي ، فقد شبه الرماح بالأفاعي ، وهذا التشبيه مادي حسي ، ولـكن الأفاعـي تخيف الخيل فتجري مسرعة ، وفي هذا الرسم تصوير خيالي .

ولم تقتصر قوة المتنبي في وصفه على المعارك والحروب ، بل أجاد في وصف كل ما يمت إلى القوة والعظمة بصلة ، وهو يجيد تصوير مشاهـد العظمة والعـلاء ، ومواقف المجد والإباء ، قال يصف قلعة بناها سيف الدولة :

بناهـا فأعلى والقنـا يقـرع القنا ومـوج المنـايا حولهـا متلاطم

وله في وصف الأسد صورة لم يلحقه فيها شاعر وصف الاسد .

وصور المتنبي بعيدة عن اللطف واللين والرقة ، ولعل السبب في ذلك أنه لم يتأثر بلطف المرأة ورقتها كما تأثر غيره من شعراء الرقـة والسهولـة ، ولـذلك ظل شديداً في أخلاقه ، خشناً في تصويره ، والرجل إذا لم يتأثر برقة المرأة ظل خشناً ،

وإذا لم تنفث فيه من مفاتن سحرها ودعتها ولطفها كان قويا شديداً ، والمتنبي يكني عن البيض بالسيوف لا بالحسان ، وعن النعومة بالصقل لا ببصاضة الأجساد ، قال :

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أحببته تجدي مثلي
محب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل

وقال :

أصخرة أنا ما لي لا تحركني هذى المدام ولا تلك الأغاريد

أناظماً كان أم شاعراً ؟

قبل أن نحكم على المتنبي اناظماً كان ام شاعراً ، علينا أن نفرق بين النظم والشعر ، أما النظم فكلام موزون مقفى عن قصد ، وأما الشعر ففن جميل رفيع ، وربما كان أرقى الفنون الرفيعة كلها ، وأرقى الفنون الجميلة الشعر والموسيقى والتصوير ، والشعر أرقى من أخبه ، وأحلى من أخته ، وذلك لأنه يجمع بينهما ويزيد عليهما فكرته السامية ، وربما كان أفضل تحديد للشعر أنه نغم عذب جميل ، ورسم رائع جميل ، وفكرة فنية جميلة ، ولا يبعث الحياة في الشعر الا الشعور الفياض الدفاق .

وإذا كان الشعر لفظا سائغاً عذباً ، وموسيقى رقيقة لطيفة ، فإن أبا الطيب لم يكن شاعراً ، وقلما يصلح شعره للغناء العذب اللطيف .

وإذا كان الشعر تعبيراً صادقا عما يختلج في النفس من لواعج ومؤثرات فقد كان المتنبي شاعرا أحياناً ، وناظما أحياناً وكثيرا ما كان شعوره يتدفق ويفيض فيقذف حمماً ثائرة ، أو دموعا لا تفيض حتى تحبسها النفس الكبيرة .

وإذا كان الشعر وصفاً قوياً ، أو موسيقى حربية ، أو فكرة سامية ، فالمتنبي من شعراء الطبقة الاولى ، أجاد في وصف المعارك والحروب ، وعرف بجزالة اللفظ

وقوة التركيب ، واشتهر بسمو أفكاره وروعة حكمه وأمثاله ، وقد لقبه أحد النقاد بشكسبير العرب ، وشكسبير من شعراء الطبقة الأولى في العالم ، ينطق كل لسان بما يحسن أن ينطق ، وأبو الطيب شاعر الإنسانية ينطق بألسنة الحدثان ويتكلم بخاطر كل إنسان .

والمتنبي شاعر لا ناظم في حكمه وأمثاله ، وإذا كان المتنبي شاعر الحكمة ، فلأنه لم يكن عليها متطفلاً ، بل كانت جزءاً من نفسه لا يحتاج إليها حتى تلبيه صاغرة مطيعة ، طلبها صغيراً وتمرس بها كبيراً ، وأطلع على حكمة اليونان ، واستفاد من تجارب الأيام ، وتفنن في استخدام الحكمة لأغراضه ، فكان شاعراً في الحكمة لا ناظماً .

وإذا لم يكن الناطق بألسنة الناس شاعراً فلعنة الله على الشعر والشعراء . والمتنبي في حكمه شاعر الإنسان ، يصف طموحه وشرفه واباءه ، ويصف ظلمه وكذبه ورياءه ، وغير ذلك من الصفات البشرية التي نراها منثورة في شعره .

وللمتنبي حكم عديدة أخذها عن أرسطو ونظمها ، ولكنه ألبسها شيئا من فنه ، فكان شاعر الحكمة وحكيم الشعراء ، وله حكم تعبر عن شعوره ، وتصف تأثراته ، فإذا هي تعبر عن شعور كل فؤاد ، غير أنه كان إلى التشاؤم أقرب ، ولم يبلغ شاعر مبلغه في وصف الأشرار والمنافقين ، قال :

ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام

والمتنبي شاعر لا ناظم في هجائه ، وهجاؤه عاطفة دفاقة وشعور فياض ، وصور فنية مؤثرة ، وقد نقم أبو الطيب على دهره فهجاه هجاء شاعر ثائر ، ونقم على الشعراء الذين حسدوه فهجاهم هجاء شاعر متفنن ، وصورهم صورا فنية مخزية ، وصغرهم وجعلهم زعانف حمقى ، قال :

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

وقال :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

وإذا كان في مثل هذه الأبيات مبالغة وغلو فالغلو من صفات الشعر في العصر العباسي الثالث ، ثم أن الشعر فن وأجمله فناً أبدعه تصويراً ، والكذب لا يحط من قيمة الشعر الفني . قيل : أعذب الشعر أكذبه .

والمتنبي شاعر ثائر في هجاء كافور ، وله في هجاء العبد الأسود صور شعرية رائعة ، ورسوم فنية ساخرة ، وقد سارت بعض أبياته في هجاء كافور بين الخاصة والعامة ، وقل من لم يردد هذا البيت :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ان العبيد لانجاس مناكيد

ويحلق المتنبي في هجاء كافور في الفن الشعري التصويري ، ويجرده من شخصيته الإنسانية ليجعله تمثالاً من المخازي والعيوب ، قال :

أمينا وإخلافا وغدرا وخسة وجبنا أشخصا لحت لي أم مخازيا

والمتنبي شاعر لا ناظم في بعض مدائحه ، وهو يجيد عندما يمدح صادقاً مخلصاً ، وأجود مديحه ما كان في سيف الدولة ، وكان أبو الطيب يحب مليكه لأن ملكه أحبه واحترمه حتى سمح له أن ينشده قاعداً ، وقيل إن المتنبي كان يحب أخت سيف الدولة الكبرى ويطمح إلى التزوج بها ، وكان سيف الدولة كبير النفس وبين ذوي النفوس الكبيرة صلة حب وإعجاب ، وفي مديح المتنبي لسيف الدولة شعر جيد راق في فنه ، وفيه حكم سامية مطبوعة وأن لم يخل من الصنعة أحياناً .

والمتنبي شاعر لا ناظم في قوة الوصف . قيل : إذا خاض في معركة كان لسانه

أمضى من نصالها ، وهو يحلق في وصف المعارك والحروب حتى لا يلحق ، ويجيد في رسم مشاهد العظمة والقوة حتى يسير في طليعة الشعراء لا الناظمين . قال يصف الأسد :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلاً

والمتنبي شاعر لا ناظم في بعض رثائه ، وكان فيه حزيناً مطبوعاً يقطع الألم فؤاده ، والغريب أن يفعل الحزن فعله في تلك النفس العظيمة الجبارة ، ولكن الإنسان مهما رجح عقله ، وسمت آماله ، وعظمت نفسه ، وخشن شعوره ، لا بد له من فترات في حياته يشعر فيها بالضعف ، ومهما يكن من عظمة المتنبي وعبقريته فقد كان في بعض الأحيان ضعيفاً لا تقوى نفسه على مصائب الأيام .

وأصدق رثاء للمتنبي رثاؤه لجدته ورثاؤه في أبي شجاع فاتك ، وكان في الموقفين كليهما ضعيفاً يحتاج إلى تعزية ، وخائباً يائساً يندب آماله الضائعة ، ويرثي أحلامه المتحطمة ، وهولم ينس في رثاء جدته خيبته وحساده ، ولم يعف في رثاء أبي شجاع عن هجاء كافور ، وموقف الرثاء لا يمت بصلة إلى موقف الهجاء ، ولكن المتنبي كان في رثائه أقرب إلى الحزن على نفسه منه على من يرثيه ، وكان العبد الأسود تلك الصخرة التي تحطمت عليها أحلام المتنبي الجسام وآماله الكبار .

أما جدة المتنبي فقد رأى بعض النقاد أنها كانت من سادات الشيعة ، وقد تزوجت رجلاً لا يليق بمقامها ، فغضب عليها أهلها ولكنها ظلت تحتفظ بأموالها وعظمتها ، وكانت تعطف على حفيدها فيجد فيها حباً وحناناً ، ويرى عندها مفزعاً لشكواه وتخفيفاً لبعض آلامه ومعيناً لآماله وأحلامه ، واضطرته الأيام إلى مغادرتها ، وقيل أن خصومه سعوا في نفيه ، ولم يوفق المتنبي في غربته فكتبت اليه تدعوه للرجوع إلى الكوفة ، فجاء إلى بغداد ، ومنع من دخول الكوفة ، فكتب إليها يسألها المسير إليه ، وكانت قد يئست منه فقبلت كتابه شوقاً ، وغلب عليها السرور فحمت وماتت ، فكان لموتها وهو في أشد الحاجة إليها أثر عميق في نفسه ، فتألم وبكى

ورثا ، وكان في رثائه شاعراً مطبوعاً مجيداً ، وله فيها قصيدة مشهورة منها في بيان تأثير الحزن فيه :

أحن إلى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضما
حرام على قلبي السرور فإنني أعد الذي ماتت به بعدها سما

ولم يكن المتنبي كاذباً في صرخته ، جامح الخيال في أمنيته ، فالإنسان قد يتمنى الموت لسبب بسيط كقطيعة فتاة مثلاً ، أو رسوب في امتحان ، ولكن الإنسان ابن النسيان ، ومن أبياته في جمال الوصف قوله :

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي فمت بها غما
تعجب من لفظي وخطي كأنما ترى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمه حتى أصار مداده محاجر عينيها وأنيابها سحما

ومما يزيد في حزن المتنبي اعتقاده أن الناس شامتون به مسرورون ، وربما كانت شماتة الحساد أقوى مصائب الإنسان .

وتوفي أبو شجاع فاتك وكان المتنبي يحبه ويعجب به ، فرثاه رثاء قوياً صادقاً ، وزاد في عاطفته أن الشاعر وجد نفسه بعد موت أبي شجاع ضعيفاً في مصر لا عون له ولا نصير ، حتى إذا اشتد عليه الحزن وقوي به الألم تحول الحزن ثورة جارفة ، وانقلب الألم شجاعة هوجاء ، فإذا رثا أبا شجاع هجا كافوراً قال :

أبقيت أكذب كاذب أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة وسلبت أطيب ريحة تتضوع

وكان المتنبي ناظماً في أكثر رثائه ، وكثيراً ما كان يرثو وهو غير حزين ، ولذلك

كان يقصر ويسير في مؤخرة الشعراء لولا أبيات متفرقة جمالها في حكمتها ، منها قوله في الرثاء :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال
يدفن بعضنا بعضا وتمشي أواخرنا على هام الأوالي

وكان المتنبي ناظما لا شاعراً في غزله ، وهو لم يجد في قلبه فراغا للمرأة ، ولم يشغله الحب عن الطموح إلى المجد والعلاء ، فكأنه في واد ، والمرأة في واد ، وإذا تغزل فبحكم العرف وقوة التقليد ، وهو يعترف بأن فؤاده لا يؤثر فيه ما يؤثر في قلوب العشاق من خمر وغناء وبيض حسان ، قال :

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا تلك الأغاريد

وقد اشتهر المتنبي في شعره بتلك أبياته المتفرقة في قصائده ، وله في الغزل أبيات سائرة يستشهد بها العشاق ، قال

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أحببته تجدي مثلي

ولكن أكثر الذين يرددون هذا البيت يجهلون أن المتنبي يتغنى بالسيف لا بالمرأة ، وإذا تغزل بالبيض فيعنيه سيوف لا نساء .

ومن شعره المنظوم في الغزل قوله :

الناعمات القاتلات المحييات المبديات من الدلال غرائبا

والمتنبي شاعر لا ناظم في بعض فخره ، وقد كان يتحلى بصفات يحق للعظماء الإفتخار بها ، فهو أبي النفس لا ينام على ضيم ، وهو من الواثقين بنفوسهم المتكلين على سواعدهم في الوصول إلى المعالي ، قال :

وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرّم

وقال يخاطب كافورا :

إذا كنت في شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده

وكان يفتخر بعلمه وشجاعته فخرا فنياً جميلا ، قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وكان المتنبي ناظماً لا شاعراً في بعض فخره ، وكثيراً ما ينقلب فخره جنوناً ، وتتحول عظمته شذوذاً ، وللنوابغ شذوذ ، وفي العظماء سخافة ، والعباقرة إخوان المجانين ، قال المتنبي :

أي محل ارتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق م - الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

ويبلغ به الجنون حتى يجعل من الناس كلهم صغاراً لئاما ، بل يجعلهم ترابا وهو الذهب قال :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وإذا كان المتنبي شاعر الفكرة الفنية السامية ، والوصف الحربي الرائع ، فقد كان أحياناً شاعر العاطفة الدفاقة ، والوجدان النفسي المتأثر ، وكثيراً ما افتخر مطبوعاً ، وهجا ناقماً ثائراً ، ومدح صادقاً مخلصاً ، وكثيراً ما وصف طموحه وإباءه وأوجاعه وصف شاعر وجداني مجيد ، وله في وصف أوجاعه عندما أصيب بالحمى في مصر شعر يزاحم فيه شعراء الوجدان المقدمين ، قال :

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

وفي تشبيه المحموم بالسكران صورة فنية رائعة ، وقال :

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وماتت في عظامي

ولكن نفس المتنبي التي أبت أن تذل للدهر ، تأبى أن تذل للمرض قال :

يضيق الجلد عن نفسي وعنها فتوسعه بأنواع السقام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام

وكانت الآلام قد جرحت المتنبي حتى بات لا يشعر بالآلام ، وكان الدهر قد حطم آماله حتى أمسى لا يرى في الدنيا آلاما جديدة ، قال :

ابنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

ولكن الآلام لا تضعف من نفس المتنبي الأبية الطموح ، ومصيبة الحمى عنده أهون من مصيبة الراحة والقعود عن السعي في سبيل المجد ، وإذا كان الشعر الوجداني تعبيراً عن خلجات النفس ومشاعر الوجدان فالمتنبي شاعر في آلامه ، وشاعر مجيد في التعبير عن آماله وأحلامه ، وإذا كانت الحمى قد آلمته فلأنها ألزمته الراحة قال :

يقول لي الطبيب اكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام
وما في طبه اني جواد أضر بجسمه طول الجمام
فان أمرض فما مرض اصطباري وأن أحمم فما حم اعتزامي

وإذا كان المتنبي شاعراً فنياً مجلياً حيناً ، ومحلقاً حيناً ، ومجيداً أحياناً ، فقد كان ناظماً تارة ، وضعيفاً سخيفاً تارة ، ومعقداً ساقطاً طوراً ، ولكن الضعيف لا يحط من

قيمة الجيد ، والسخافة لا تذهب بالعبقرية ، والشذوذ والجنون لا يعفيان على آثار الفن والنبوغ .

أشهر شعراء الأدب العربي وأعظمهم

رزق المتنبي شهرة لم يرزقها سواه من شعراء العرب ، وكان أنصاره وخصومه معاً من أسباب شهرته ، قال الثعالبي فيه : « يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط » . وقال : « تفرق الأدباء فرقاً في مدحه ، والقدح فيه ، وذلك أول دليل على وفور فضله ، وتفرده عن أهل زمانه » .

وقد اشتهر المتنبي في حياته كما اشتهر بعد مماته ، ذكر أحدهم قال : « دخلت على ابن العميد يوماً فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب فظننته واجماً عليها فقلت : لا يحزن الله الوزير فما الخبر ؟ قال : إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي ، واجتهادي في أن أخمد ذكره فقد ورد علي ستون كتاباً ونيف في التعزية ما منها إلا ما صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ؟ فقلت له : « القدر لا يغالب » .

ومن أكبر العوامل في عظمته وشهرته رجاحة عقله ، فقد روي عنه أنه كان ذكياً فصيحاً أخذ من البداوة بيانها ، ومن الحضارة ثقافتها ، وهو ما يزال حدثاً وأبوه سقاء في الكوفة ، ولولا ذكاؤه ونبوغه لظل حيث وضعه أبوه ، والنوابغ الأذكياء لا يرضيهم غير العظمة والعلاء قال :

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

ومن أسباب عظمة المتنبي وشهرته حياته . فقد ربي فقيراً وكان عبقرياً مرهف الحس فشعر بمرارة الحياة ، وأحس بشقائها ، والويل للناس إذا اجتمع الفقر وشدة

الإحساس ، ومن شروط الثورة ظلم وشعور بالظلم ولا يثور الإنسان إلا إذا كان مظلوماً ، ولا يرنو الى العلاء ويأنف من الشقاء إلا إذا شعر بالظلم قال المتنبي :

إلى أي حين أنت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

وفي هذا الإستفهام الانكاري قوة ثائرة تدفع صاحب النفس الكبيرة إلى العظمة فالشهرة .

ومن أسباب عظمة المتنبي وشهرته محيطه فقد عاش في عهد شبابه متنقلاً في البادية يصاحب الاعراب ، والاعراب في عهده لا يعرفون حكومة ، ولا يوالون أميراً ، وقد كثرت الفرق الدينية ، واضطربت الأحوال الإقتصادية ، وكثر قيام الزعماء فلا يقوم زعيم حتى يتبعه جمهور من القبائل الضاربة في أنحاء البادية البعيدة عن مراكز الحكومات ، تدفعها العاطفة أولاً ، وحب الغزو والنهب ثانياً ، وقوي في أيام المتنبي أمر القرامطة والاسماعيليين والفاطميين وغيرهم كثير ممن لم تنجح دعوتهم فلم يذكرهم التاريخ ، وكثر الذين يبشرون الناس بالمهدي المنتظر ليطهر الأرض من الجور والفساد ، ويأخذ للفقير ماله من الغني ، وللضعيف حقه من القوي ، وانتشر الخوارج في كل مكان يقتلون ويعيثون في الأرض فساداً ، وينشرون في الناس الفقر والشقاء فينتظر هؤلاء رسولاً تبعثه السماء يخلصهم من شقائهم ، ورأى المتنبي من هم دونه ذكاء وشجاعة يقدمون على قيادة الجماهير فرأى في النبوّة سلماً إلى العظمة فادعاها في رأي أكثر الأدباء والنقاد .

ومن أسباب عظمة المتنبي وشهرته أخلاقه فقد كان أبي النفس عظيم الهمه مدح سيف الدوله ورافقه في غزواته فأجزل له سيف الدولة العطاء ، ورفع منزلته فوق الشعراء ، ولكنه كان يجفوه أحياناً فيتألم ، وأبى الجفاء أخيراً ، فتركه وذهب إلى كافور ، ولما لم يلق عنده ما يرنو إليه من عظمة وإباء تركه وخرج من مصر هارباً .

وكان يأبى إلا المنازل العالية قال :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وربما كان من مظاهر عظمة المتنبي وشهرته شذوذه ، وبين النبوغ والشذوذ قرابة ، وبين العبقرية والجنون نسب ، والعبقرية في اللغة العربية نسبة إلى عبقر وهي أرض يكثر فيها الجن ، وقد شبه بعض النقاد العقل البشري بدائرة يلتقي فيها النبوغ بالجنون ، وتعانق العبقرية الشذوذ ، وكان المتنبي أحياناً مجنوناً شاذاً ، ومن شذوذه كبرياؤه وإعجابه بنفسه إعجاباً يتجاوز العقل إلى الجنون ، قال سيف الدولة فيه يتعاظم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لولا حماقته ، وله حوادث كثيرة منها أنه لبس مرة سبعة أقبية ملونة تظهر كلها ، وكان ذلك في الصيف وفي بغداد .

ومن أسباب شهرة المتنبي اضطرام نار الحرب بين أنصاره وخصومه فقد رفعه أنصاره فوق الشعراء ، وحطه خصومه إلى منزلة المحمومين ، واشتد الجدال بينهما حتى اشتهر أمره ، وعظم شأنه ، ولولا رديء المتنبي لم تشتد نار الحرب بين المعجبين به والقادحين فيه ، والغريب أن الفريقين وجدا في شعر المتنبي ما يؤيد رأي كل منهما فأبو الطيب يحمق في شعره ويجن كما ينبغ ويحلق ، ويسف وينحط كما يجيد ويجلي ، ومن جيده حكمه السائرة وأمثاله الطائرة ووصفه وغير ذلك من جيد شعره . أما رديئه فليس بالقليل ومنه شعر أحمق سخيف في فخره وغزله ، ومنه شعر معقد يصعب فهمه ومنه قوله :

دان بعيد محب مبغض بهج أغر حلو ممر لين شرس[1]
ند أبي غر واف أخي ثقة جعد سري نه ندب رض ندس[2]

---

(1) دان قريب - وأغر : كريم الافعال.

(2) الندي : الجواد ، والغري : الحسن ، والجعد : الكريم ، والنهي : العاقل ، والندب : السريع في الأمر ، والندس : الذكي .

وقوله : غش ابق اسم جد سد قد مر أنه أسر فه تسل

غِظ ارم صِيب أحم أغزُ اسبُ رَعْ زعَ دل اثن تل(1)

وقوله : أقِل أنل أقطع أحمل علّ سلّ أعد

زد هشّ بشّ تفضل أدن سرَّ صِلِ(2)

وقوله : أيفطمه التوارب قبل فطامه : ويأكله قبل البلوغ إلى الأرض(3)

وقوله : الحازم اليقظ الأغر العالم م الفطن الألد الأريحي الأروعا(4)

الكاتب اللبق الخطيب الواهب م الندس اللبيب الهبرزي المصقعا(5)

ومنه : يكرن ضرا وبكرت تنفع وسجسج أنت وهن زعزع(6)

وواحد أنت وهن أربع وأنت نبع والملوك خروع(7)

ولعل هذه الأبيات وأمثالها من شعر الملوك ، أو من نظم شعراء الجنة ، ونظم الملوك سخيف ، وشعراء الجنة كناية عن المجانين ، وللمتنبي كثير من مثل هذا الهذيان المحموم ، وللعباقرة فلتات من الجنون .

هل كان المتنبي فيلسوفاً ؟

نال المتنبي شهرة قلما نالها شاعر عربي غيره ، وكثر الباحثون في شعره منذ ما كان حياً وما يزالون ، وإذا كان من القدماء من أعجب بشعره وفضله فمن المحدثين

---

(1) قد من القيادة ، واسر من السرو وهو المروءة في سخاء ، وصب من صاب بمعنى أصاب ، ورع : أفزع ،

(2) وزع : امنع ، ود : أدفع الدية ، ول : أمر من ولي بمعنى احكم ، واثن : رد .

(3) أقل من أقال وأقاله من عثرته : رفعته ، وانل : أعط أرضا ، وهش : تبسم ، وبش : لينطلق وجهك . التوارب : التراب

(4) الأريحي : الواسع الصدر والخلق ، والأروع : الذي يعجبك بجماله وشجاعته .

(5) الهبرزي : الجميل الوسيم ، والمصقع : الخطيب البليغ .

(6) النون في بكرن للرياح الأربع ، والسجسج الريح اللينة ، والزعزع : الريح القوية

(7) النبع : شجر كبير قوي ، والخروع : نبت صغير ضعيف .

من أعجب به إلى حد الجنون فعمي عن ... فعله وضعيفه ، وعلا بجيده إلى سدرة المنتهى ، ولم يكتف بذلك بل جعله بعض ... هم دوحة الفلسفة العقلية ، ونبعة العلم العصري الحديث ، ومن نقادنا من يجعله شاعر الفن التصويري في الأدب العربي ، ومنهم من يقرنه بشكسبير فيجعله أحد شعراء العالم الثلاثة أو الأربعة ، ومنهم من يجعله حكيماً كصولون ، فيلسوفاً كأرسطو ونيتشه ، عالما طبيعياً كداروون ، ومنهم من يجعله سابقاً لنيتشه إلى الكثير من أفكاره ومبادئه ، ويوفق بينه وبين داروين في الطريقة التي يفهم بها البشر حياتهم وغايتها ، ويتنازعون البقاء فيعلو بعضهم على بعض .

وإذا كان المتنبي قد سبق الشعراء في ميدان ، فقد سبقوه في ميادين ، وإذا كان قد حلق في أمثاله الطائرة ، وحكمه المتفرقة ، فقد قصر عن البحتري مثلاً في جمال الموسيقى ، وعن ابن الرومي وابن زيدون في جمال التصوير ، ولكل شاعر ميدان يجود فيه ويسبق ، وميادين يقصر فيها ولا يلحق .

وليست الفلسفة آراء متفرقة مبعثرة ، أو مذهباً شخصياً يدين به الإنسان في الحياة ، ويفضله على سواه ، فلكل واحد منا آراء متفرقة ، ولكل واحد منا مذهب يفضله على سواه ، وليس كل واحد منا فيلسوفاً .

أما الفلسفة فبحث منطقي منظم ترتبط الأسباب فيه بالنتائج ويدور الفكر فيه حول رأي يعلله تعليلاً منطقياً حكيماً ، ويبحثه بحثاً علمياً متسلسلاً ، أو مذهب خاص يتخذه صاحبه وسيلة إلى بلوغ الحقائق ، ومعرفة العالم ، والقضاء على مغالطات متحكمة في العقائد والمفاهيم وتجريد الحقائق من الخرافات والأوهام ، وإذا كان بعض الباحثين يحسبون المعري فيلسوفاً فلأنه اتخذ العقل مشيراً له في الصباح والمساء ، ليتوصل إلى الحقيقة التي لا تعثر بالأوهام ، ويحرر العقول من الحجب التي تغطيها فلا تؤمن بما لا تستسيغه الأفهام ، أما نيتشه فاتخذ القوة مذهباً له ليتخلص الناس من المرضى والمجانين والضعفاء ، فلا يبقى غير الأقوياء ، وإذا كان من الفلاسفة من يخطىء نيتشه في رأيه ، فكثيراً ما يختلف الفلاسفة في آرائهم ،

وكثيراً ما يقضي العلم على آراء يعتقدها العلماء صحيحة لا خطأ فيها كما فعل غاليلي وداروين وسواهما . وتنازع البقاء الصحيح عند داروين تنازع الأنواع لا تنازع الأفراد ، وسنة الطبيعة عنده محاربة الإنسان للوحوش والجراثيم والجوع والبرد وغير ذلك من أعداء الإنسان ، وليس تنازع البقاء عند داروين محاربة الإنسان للإنسان .

وإذا كان من يدين بالدرع والسيف والرمح والفتكة البكر فيلسوفاً ، فعنترة ابن شداد فيلسوف، وعمرو بن كلثوم والشنفرى وابن سناء الملك فلاسفة ، وإذا كان من يؤمن بالتقتيل فيلسوفاً فأكثر شعراء الأدب العربي القديم فلاسفة ، وربما كان الحجاج أشد ولوعاً بالقوة من المتنبي ، ولعنة الله على الفلسفة إذا كان الحجاج بن يوسف فيلسوفاً .

وإذا كان المتنبي متشائما فليس التشاؤم الذي لا يعزز بالبرهان ، ولا يبنى على البحث والمنطق فلسفة ، وإذا كان المتنبي قد ذم الناس ذماً هو إلى الجنون أقرب فليس الجنون فلسفة ، وليس من يسب الناس فيلسوفاً ، قال أبو الطيب غفر الله له :

أذم إلى هذا الزمان اهيله ... فأعلمهم فدم واحزمهم وغد[1]
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم ... وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد[2]

وما أسخف الفلسفة إذا كان في هذا الكلام فلسفة ، وما أسخف الفلاسفة إذا كانت هذه الآراء آراءهم .

وإذا كان الناس فى رأي المتنبي أحراراً وعبيداً ، وجبناء وشجعاناً ، وكراما ولئاما ، وسادة وبهائم فما يزال كثير من الناس يرى رأي المتنبي ، وليس كل من يرى ذلك ، أو يرى ضده فيلسوفاً .

---

(1) الفدم الغليظ الأحمق ، والوغد الأحمق الخسيس

(2) السهاد : السهر ، والفهد حيوان يشبه النمر يضرب به المثل بثقل النوم كما يضرب المثل بجبن القرد .

وإذا كان للمتنبي آراء إجتماعية فيها شيء من المذاهب الفلسفية ، كالطموح إلى المجد ، وإيمانه بالحظ ، واعتقاده أن المال سبيل المجد والعلاء ، وغير ذلك من الحكم المتفرقة ، فإن بعض هذه الآراء مشاع شائع تعرفه الخاصة والعامة ، ويؤمن به الفيلسوف والمثقف والأمي ، أما الفيلسوف فيبحث هذه الآراء ويعللها ويعود إلى أسبابها فيأتي بالبراهين العقلية على صحتها ، ولم يفعل المتنبي شيئاً من هذا ، ولذلك لم يكن فيلسوفاً ، أما بعضها الآخر فقد ورد في كتب الحكمة التي ترجمها العرب ، وبعضها ورد في كلام العرب أنفسهم ، واكتسب المتنبي بعضها بالتجارب والإختبار وليس من نقل رأياً عن أرسطو فيلسوفاً ، وليس من أكسبته الأيام حكمة فيلسوفاً .

أما ما يروى عن آرائه فيما وراء الطبيعة فأقوال قرأها في كتب الفلسفة ولم يعن بأمرها ، أو يبحثها وينظمها بل أرسلها خطرات شاعر ، ولم يصل فيما وراء الطبيعة إلى أكثر من القول بالفصل بين الأرواح والأجسام ، أو إلى الشك في بقاء الأرواح بعد الموت ، وليس مجرد القول فلسفة ، ولا كل من شك فيلسوفاً ، قال المتنبي :

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

وقال :

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

وإذا لم يكن فيلسوفاً فقد كان ذكياً ، سخر من الذين يقولون بأن الكواكب عقول تعقل وتدبر ، ولكنه لم ينقض آراءهم بالبرهان الفلسفي ، أو المنطق العقلي كما فعل أبو تمام مثلاً . قال أبو الطيب :

فتبّاً لدين عبيد النجوم ومن يدعي أنها تعقل

أما الذين رأوا في المتنبي فيلسوفاً فقد ظلموه ، وغضوا من قدره من حيث أرادوا أن يرفعوه ، وليس دين القوة المجرد فلسفة ، ولا الحكم المتفرقة علماً .

هل كان المتنبي حكيماً ؟

من الأقوال الشائعة بين الكتاب والنقاد أن المعري فيلسوف الشعراء والمتنبي حكيمهم ، ولعل الفلسفة غير الحكمة ، ولا سيا الحكمة الإجتاعية ، فالفلسفة حب الحكمة ، والبحث عن المعرفة ، والتفتيش عن الحقيقة ، والإنسان ميال بطبعه إلى الكشف عن المجهول ، وراغب بفطرته في البحث عن الأسباب والعلل ، وكانت هذه الرغبة من أكبر أسباب رقيه ، وذلك الميل من أقوى العوامل في علمه واختراعه ، والفيلسوف لا يهمه من المعارف غير الإطلاع عليها وفهمها وترتيبها ، ولا يبالي من الحقائق إلا بمعرفتها ، والربط بين أولها وآخرها ، واشباع نهم العقل الى معرفة العلاقة بين أسبابها ونتائجها ، أما الإنتفاع بالمعارف والحقائق فمن غير أبواب الفلسفة ، وربما كان الفلاسفة أبعد الناس عن الإنتفاع بفلسفتهم في الحياة الإجتاعية .

أما الحكمة فلا تكتفي بالمعرفة والإطلاع ، ولا تقنع بمعرفة الحقائق والربط بين أسبابها ونتائجها ، ولكنها تطمح إلى الإنتفاع بالأفكار السامية ، والإفادة مما تعرفه وتطلع عليه ، ولا يكون العارف بالحكم الإجتاعية حكيماً إلا إذا عرف كيف يستعمل حكمه في حياته ، ولا تكون المصانعة مثلاً حكمة إلا إذا عرف الإنسان كيف يصانع الناس ، وإذا كان المتنبي حكيم الشعراء فلأنه عرف أن ينتفع بحكمه ، وليس المتنبي حكيماً في قدرته على نظم الأمثال السائرة ، والحكم الطائرة فحسب ، لكنه شاعر حكيم في مقدرته على استعمال الحكمة لفنونه الشعرية الأخرى ، وكثيرون هم الذين يعرفون أن من المصائب معاشرة الأغبياء ، ولكن المتنبي استعمل هذه المعرفة ليهجو ابن كيغلغ قال :

ومن البلية عذل من لا يرعوي   عن غيه وخطاب من لا يفهم

وأكثر الناس يذم الدهر الذي لا يعرف قدر العظماء ، ويحمل على الزمان الذي يرفع الأخس ، ولكن المتنبي يتخذ من هذه الفكرة سبيلاً إلى رثاء أبي شجاع فاتك ، وسلاحاً لهجاء كافور قال :

قبحـاً لوجهـك يا زمـان فإنه　　وجـه له من كل قبـح برقع

والإنسان ميال بطبعه إلى القوة ، كاره بفطرته للذل والسؤال ، أما المتنبي فيأخذ من هذه الفكرة سبيلاً إلى مدح سيف الدولة وذكر انتصاره قال :

من أطـاق التماس شيء غلابا　　واغتصابـا لم يلتمسـه سؤالا

ولم يفرد المتنبي لحكمه قصائد خاصة ، ولم يجمع أفكاره ويرتبها ، بل كان يستعملها في المدح والهجاء وغيرهما من ضروب الشعر ، وكان يجدها في متناول يده كلما احتاج اليها ، ولذلك كان حكيماً في آرائه ومعانيه وأفكاره كما كان حكيم الشعراء في الإنتفاع بهذه الآراء .

ولم ينبغ المتنبي بقصيدة أو بضع قصائد ، ولم يشتهر بجمال وصفه وعذوبة جرسه ورقة غزله ، ولكنه اشتهر بحكمه السائرة ، وعظم بأمثاله الطائرة ، وأجاد في الإفادة من حكمه وأمثاله ، وقل أن نجد له قصيدة تخلو من معان تستفاد ، وأفكار تروق فتخلد ، وهو شاعر الإنسان الناطق بكل لسان ، والمعبر عن خاطره فإذا هو يعبر عن خاطر كل إنسان ، وتعد حكمه بالمئات ، والفن فيها أنها لا تكون إلا حيث تقتضيها الحال ومنها .

فإن الجـرح ينفـر بعـد حين　　إذا كان البنـاء على فساد
تلف الـذي اتخـذ الجـراءة خلة　　وعـظ الـذي اتخـذ الفـرار خليلا
أنعـم ولـذ فللامـور أواخر　　أبـداً كما كانـت لهـن أوائل
وإذا أتتـك مذمتـي من ناقص　　فهـي الشهـادة لي بأنـي كامل
إذا غدرت حسنـاء وفـت بعهدها　　فمـن عهدهـا ألا يدوم لهـا عهد
ولـكن الغيوث إذا توالت　　بأرض مسافـر كره الغماما
إذا اعتـاد الفتـى خوض المنايا　　فأضـعف ما يمـر به الوحول
ومـا الخـوف إلا ما تخوفـه الفتى　　ومـا الأمـن إلا ما رآه الفتـى أمنا
بذا قضـت الأيام ما بـين أهلها　　مصائـب قوم عنـد قوم فوائد
ولـو أن الحياة تبقـى لحي　　لعددنـا أضلنـا الشجعانا

الزهد

الزهد ترك الدنيا وحطامها ، والإنقطاع عن مغرياتها وملذاتها ، والإهتمام بالآخرة والتعبد للآلهة ، والزهد قديم عرفه الإنسان منذ ما خرج من دائرة الحاضر الضيقة إلى فضاء المستقبل الواسع ، فعبد الأباء والأجداد ، وقدس القمر والشمس والحجارة والأشجار والأوتاد ، وآمن بالخير والشر ، واعتقد أن الإنسان بعد الموت يعيش لينال جزاء ما صنعت يداه ، وكان في المصريين القدماء زهاد ، وفي الهنود القدماء نساك .

وكاد الزهد عند العرب في الجاهلية ينحصر بالنصارى ، فلما جاء الإسلام دعا إلى الزهد مع الجهاد في سبيل الله ، وأوصى المسلمين بالسعي مع زهد الحكام والأغنياء ، فكان النبي والخلفاء الراشدون يزهدون في حطام الدنيا ، وينصرفون عن التنعم بملذات الدنيا ، ولكنهم لا ينصرفون عن الفتح والإستملاك ، والإهتمام بأمور المسلمين وتحسين معاشهم .

وكان العصر العباسي فانغمس الناس في الترف والنعيم ، وارتكبوا المحرمات ، واخترعوا من أنواع الملذات ما لم يعرفه القدماء ، وثار بعضهم على هذه الحياة فكان النساك ، وتاب بعض الشعراء عن آثامهم فكان شعر التوبة والزهد ، وتأثر العرب بالفلسفة فكانت الصوفية ولها فلاسفتها وشعراؤها ، ثم كانت عهود الظلم فزهد الناس مرغمين ، وكانت النهضة الحديثة وغلب حب المال وتعمير الدنيا على الناس ، ولكن رجال الدين وبعض الشعراء ما زالوا يدعون إلى الزهد في الدنيا ، وترك الإهتمام بالمال والملذات الفانية ، إلى الإهتمام بالخير ، والتفكير

بالحساب واليوم الآخر ، وخوف الله .

والزهاد أقسام ، فمنهم من يزهد رغبة في الخير وحباً للآخرة ولكنه يقرن زهده بالإهتمام بخدمة الناس وتحسين أحوالهم ومعاشهم ، ومنهم النساك المنقطعون عن الإهتمام بالدنيا والناس ، ومنهم من يدعو إلى الزهد ولا يزهد ، ومن يدعي الزهد رياء ونفاقاً ، ومن يزهد لعجزه عن كسب المال . قال أبو العتاهية « الزهد مذهب اشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء والعامة » .

أبو العتاهية (748 م ـ826 م)

اسمه اسماعيل بن القاسم ، وكنيته أبو اسحق ، ولقب بأبي العتاهية لأن المهدي قال له يوماً « أنت إنسان متحذلق معته » ويقال للرجل المتحذلق عتاهية فغلب اللقب على الإسم والكنية .

وأبو العتاهية من موالي عنزة ، ولد في عين التمر ونشأ في الكوفة ، واشتغل مع أبيه بصناعة الجرار فكان يصنعها ويحملها في قفص على ظهره ويدور في الكوفة . ولكنه كان مطبوعاً على الشعر ينظمه وهو يصنع الجرار فكان الناس يأتون فيستنشدونه فينشدهم فيكتبونه على ما تكسر من الخزف .

وكان أبو العتاهية في أول أمره على مذهب غيره من الشعراء يمدح ويتكسب ويشرب الخمر ويسمع الغناء ، وكان بخيلاً يقتر على نفسه مع أموال وافرة كانت له ، وكان يعتذر عن بخله بتبخيل جميع الناس قال :

فاضرب بطرفك حيث م شئت فلن ترى إلا بخيلاً

ومن الناس من يتهم أبا العتاهية بالتزهد إرضاء لشهواته ، قيل إنه كان متذبذباً في مذهبه يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره ،

وقيل إنه كان مخنثاً فاسقاً ، غير أنه كان احياناً يتحمل الضرب والحرمان والحبس في سبيل زهده ، والبخيل الذي يحرم نفسه المال في سبيل زهده لا يمكن أن يكون منافقاً ، فقد طلب الرشيد منه أن يقول الغزل بعد تنسكه فامتنع فضربه وحبسه ، وصام في حبسه عن الكلام بغير القرآن ، ولكنه اضطر أخيراً إلى إطاعة الرشيد في نظم الغزل فخلع الرشيد عليه وأجازه .

واتصل ابو العتاهية في أول أمره بالمهدي ومدحه فنال صلاته ، وحظي عنده حتى كان يتوسط للناس بالعفو لديه ، ثم اتصل بالهادي ، وبعده بالرشيد فنال عنده منزلة رفيعة حتى كان لا يفارقه في حضر ولا في سفر ، وعين له مرتباً قدره خمسون ألف درهم غير الجوائز ، وكان بعض الأمراء والوزراء يجرون عليه المرتبات ، ويجودون عليه بالصلات والجوائز .

وكان أبو العتاهية من الشعراء المطبوعين لا يكلف نفسه مشقة في النظم ، سأله بعضهم كيف تقول الشعر فقال « ما أردته قط إلا مثل لي فأقول ما أريد وأترك ما أريد » وقال مرة « لو أردت أن يكون كلامي كله شعراً لفعلت » .

وكان أبو العتاهية يرسل الشعر على سجيته لا ينقحه ولا يحككه ، ولا يطرح رديئه ، ولذلك جمع شعره بين الجيد والساقط والصالح والضعيف . قال الأصمعي « شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والتراب والخزف والنوى » .

وتأثر أبو العتاهية في زهدياته بالدين والدرس والتجربة ودقة الملاحظة ، فكان يدعو إلى الزهد طمعاً بالآخرة ، ورغبة في الجنة ومرضاة الله ، وهرباً من ظلم الناس للناس في الدنيا قال :

أما والله آن الظلم لوم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى الديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

وإذا كانت الدنيا دار ممر إلى دار مقر ، فالإهتمام بها ضلال ، والرغبة في تكاليفها عذاب وشقاء قال :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

وعلاقة الإنسان بالله في رأي أبي العتاهية رجاء ورهبة ، وطمع في الجنة وخوف من النار قال :

لم يعتصم بالله من خلقه من ليس يرجوه ويخشاه

ويتكل أبو العتاهية اكثر ما يتكل في زهده على ان الموت نصيب كل حي في الدنيا ، وهو متأثر في هذه الفكرة بشعراء الزهد والحكم قبله كلبيد وعدي بن زيد وغيرهما قال :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
إلا يا موت لم أر منك بدا أتيت وما تحيف وما تحابي

ولأبي العتاهية بعض الحكم الإجتماعية ، ولكنه كان إلى التشاؤم أميل ، فالناس بخلاء ظلام أشرار ، وكل إنسان يعيب غيره ويرى الشر فيه قال :

فتشت ذي الدنيا فليس بها أحد اراه لآخر حامد
حتى كأن الناس كلهم قد أفرغوا في قالب واحد

وبلغ من زهد أبي العتاهية في الحياة أنه أصبح لا يرى فرقاً بين الغنى والفقر ، أو العذاب والشقاء ، أو المجد والذل قال :

وإن اليسر مثل العسر عندي بأيهما بليت فلا أبالي

وتوفي أحد أصدقاء أبي العتاهية فرثاه رثاء مطبوعاً صادقاً جمع فيه بين الوجدان والحكمة ، ولكنه سطا في حكمه على أقوال الحكماء الذين رثوا الأسكندر . قال بعضهم « كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس » وقال آخر

« سكنت حركة الملك في لذاته ، وقد حركتنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده » وقال أبو العتاهية في رثاء صديقه :

ألا من لي بأنسك يا أخيا ومن لي أن أبثك ما لديا

وفي هذا الإستفهام الانكاري شعور متأثر ، وعاطفة متألمة وقال :

فلو نشرت قواك لي المنايا شكوت إليك ما صنعت إليا
وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

ولأبي العتاهية أرجوزة مشهورة سماها ـ ذات الأمثال ـ قيل إن فيها أربعة آلاف مثل ، وهي أرجوزة جامعة فيها وصف فني جميل ، وفيها أمثال رائعة طائرة ، وفيها شعر جيد راق ، وشعر ضعيف ركيك ، ومن معانيها الجميلة وصورها الرائعة قوله :

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

ومن زهدها قوله :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

ومن حكمها الإجتماعية قوله :

ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جد جرّه المزاح
إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

ومن تفلسفها قوله :

لكل شيء معدن وجوهر وأوسط وأصغر وأكبر
وكل شيء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكبره

طرفة بن العبد (543 م ـ569 م)

شاعر جاهلي من قبيلة بكر ، وكانت بكر تنزل البحرين . وعم طرفة المرقش الأصغر ، وعم أبيه المرقش الأكبر ، وخاله المتلمس شعراء ، واسمه عمرو بن العبد ، ولقب بطرفة من الطرفاء وهو نوع من الشجر ، ومات أبوه وهو صغير ، وكان وحيدها فدللته ، فنشأ مبذراً متلافاً يعاشر المنافقين الذين يحومون حول كل غني ويصانعونه حتى ينفق ماله ، وافتقر طرفة فذهب يجوب الجزيرة متكسباً فلم يوفق ، وعاد إلى أخيه فقيراً بائساً ذليلاً فكلفه أخوه رعاية ابله فلم يحسن رعايتها ، وفقدت الإبل فعنفه أخوه ، فالتجأ إلى ابن عم له غني فلم ينجده ، فالتجأ إلى بعض أقاربه فأعانوه حتى رد ثمن الإبل لأخيه ، وبقي معه شيء انفقه سريعاً ، فذهب يطوف الأرض حتى اتصل بعمرو بن هند ملك الحيرة فنال من عطاياه ، ولكنه هجاه فكتب الملك إلى عامله بالبحرين يأمر بقتله ، وأرسل الكتاب مختوماً مع طرفة فقتل وهو ابن ست وعشرين سنة ، وقيل إن عامل البحرين سجنه ورفض قتله ، فعزله الملك وأقام مكانه عاملاً آخر كان رفيقاً بطرفة فخيره في الميتة التي يريدها . فطلب أن يسقى خمراً حتى يسكر ، ثم يقطع عرق في يده حتى ينزف دمه فيموت .

واشتهر طرفة بمعلقته قيل إنه أجود الشعراء طويلة ، واشعرهم واحدة ، وفي معلقته فوائد تاريخية واجتماعية منها أن العرب كانوا يصنعون السفن ويجولون بها فيصطادون ويتاجرون ، قال :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد[1]
عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي[2]

---

(1) الحدوج : مراكب النساء ، والخلايا السفن الكبيرة ، والنواصف الأماكن التي تتسع من الأودية كالطرق ، ودد اسم مكان .

(2) عدولي : قرية بالبحرين .

يشق عباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد[1]

ومنها أن العرب كانوا يقامرون بالفئال ، وانهم كانوا يستعملون الورق المصنوع في الشام والجلد المدبوغ في اليمن ، قال يصف ناقته :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر ... كسبت اليماني قده لم يجرد[2]

ومنها ان النصارى في الشام كانوا يجيدون الكتابة ، وأن الروم ماهرون في بناء القناطر ، قال :

كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتكتنفن حتى تشاد بقرمد[3]

وغير ذلك مما يجعل الشعر الجاهلي ديوان العرب وتاريخهم ، وفي المعلقة صور غريبة وحشية ، كما أن فيها صوراً فنية جميلة ، قال طرفة يصف الوجه الجميل :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ... عليه نقي اللون لم يتخدد[4]

غير أن منزلة طرفة بن العبد تقوم على قوة عاطفته ، وثورة وجدانه ، وما شعره إلا فلذات قطعت من كبده ، ونفثات سحرى خرجت من فؤاده ، وما حكمه إلا ثمرة طبعه الصريح ، وخواطر وجدانه في الموت والحياة .

فكيف نظر زهير وطرفة إلى الحياة والموت ؟؟

(1) نظرهما إلى الحياة

كلاهما كره الحياة وسئمها ، وملها وضجر منها ، قال زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

---

(1) الحيزوم : الصدر ـ الفئال : نوع من اللعب يوضع فيه خاتم أو غيره في كومة من التراب أو الرمل ، لم تقسم إلى قسمين ، فإذا عرف المفائل مكانه ربح وإلا خسر ،

(2) المشفر : الشفة ، والسبت : الجلد المدبوغ

(3) لتكتنفن : لتبنى من أكنافها اي نواحيها .

(4) يتخدد : تعلوه الأخاديد فيضطرب الجلد ويسترخي اللحم .

وقال طرفة :

إلا ايهـاذا الزاجـري أحضر الوغى　　　وان أشهـد اللـذات هل أنـت مخلدي

ولم يكره زهير(1) الحياة لفقر ألم به ، أو لظلم أصابه ، فقد كان سيداً محترماً يوسع له الأشراف في مقاماتهم ، ويؤخذ رأيه في الصعاب ، ولم يسأمها لضعف هدّ قواه ، أو مرض أضناه فبراه ، فقد نظم معلقته وهو ابن ثمانين ، ولكنها لم تمنعه من ذكرى الحب ، ولم تصرفه عن الحنين إلى أم أوفى ، والهرم المريض لا يفكر بالنساء ، ولم يمل زهير الحياة لثمانين عاشها كما يقول فحسب البقاء أقوى الغرائز في الأحياء ، والحكيم يشعر أن لديه في الحياة رسالة عزيزة على فؤاده يؤديها للأحياء .

ولكن زهيراً كره الحياة كره الحكيم الذي يريد أن يفهم الحياة فتعميه استار الجهل عن كشف أسرارها ، وأي خير في حياة لا فرق فيها أمام حرم المستقبل بين حكيم باحث ، وفيلسوف عارف ، وشيخ عالم راق ، وبين طفل صغير غرير ، وأحمق جاهل عابث ، وأي خير في عمر هذا الزمان مهما طال إذا لم يكن ثمة من سبل إلى معرفة ما في الغد من غوامض ومفاجآت　قال زهير :

وأعلـم علـم اليوم والأمس قبله　　　ولكنني عن علـم ما في غد عم

وربما كره طرفة الحياة لأنها سر لا يعلمه ومخفي لا يدركه ، وإذا عجز الإنسان عن إدراك الأسرار أحالها إلى الأقدار ، وإذا ا... عليه الحقيقة حولها إلى الزمان ، قال طرفة :

ستبـدي لك الأيام ما كنـت جاهلاً　　　ويأتيك بالأخبـار من لم تزود

وكلاهما كره الحياة لأنه رآها كذباً ونفاقاً ، وظلما واعتداء ، أما زهير فقد نظر إلى الظلم من نوافذ الإجتماع ، وأطل عليه من شرفات الإنسانية فكانت نظرته أميل إلى الفكر ، وكانت حكمته أقرب إلى العقل ، وهو لم يظلم ولكنه رأى الناس يظلـم

---

(1) هو الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى (حوالي530-627 م) .

بعضهم بعضاً ، وهولم يضع له حق ، ولكنه رأى حقوق الضعفاء تضيع ، قال :

ومــن لا يذد عن حوضــه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويفسر بعضهــم كلمـة يظلــم الأولى بمعنـى يرحــم ، ويعدهــا من غريب الإستعمال المخل بالفصاحة ، ولكن زهـيراً يقـرر في هذا البيت حقيقـة واقعـة ، ويصور الحياة كما يراها لا كما يجب أن تكون ، وكأن الناس في رأيه اثنان فمن لم يكن ظالماً كان مظلوماً .

أما طرفة فقد نظر إلى الحياة من نافذة وجدانه ، وأطل عليها من شرفة حسه وشعوره ، فكانت حكمته إلى النفس والوجدان أميل ، وبالعاطفة والطبع ألصق ، ولم يثر طرفة على الحياة حتى ظلمه أهله فإذا بظلم الأقارب أشد من وقع السيوف ، قال :

وظلــم ذوي القربــى أشــد مضاضة على المرء من وقــع الحســام المهند

وكان طرفة غنياً فاحترمه الناس وكرموه ، وانفق على المنافقين أمواله فأحبوه ولازموه فلما افتقر احتقروه وتجنبوه ، واحتاج إلى الناس فابتعدوا عنه ونبذوه ، قال :

ومــا زال تشرابــي الخمــور ولذتي وبيعـي وإنفاقــي طريفــي ومتلدي(1)
إلى أن تحامتنــي العشــيرة كلها وأفــردت أفــراد البعــير المعبد(2)

وإذا كانت حكمة طرفة وصفـاً لحاله ،وبيانـاً لما اصابـه في حياته ،فانهـا في الوقت نفسه وصف لحال كل مظلوم ، ولسان حال كل ضعيف وفقير في كل زمان ومكان . ولا يزال شعر طرفة حيا خالداً ما زال الناس يكرمون الغني لغنـاه ولـو أصابهم منه الاذى ، ويحتقرون الضعفاء والمساكين والفقراء ولوناهم منهم الفائدة .

(1) الطريف : الحديث ، والمتلد : القديم
(2) المعبد : المطلي بالقطران .

وأشد ما يكون على الفقير ايلاماً أن يقترب من الغني فيبتعد الغني عنه ، وأن يحييه فلا يلتفت إليه ، ويسلم فلا يرد السلام عليه ، قال طرفة :

فما لي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد

وهذا الشعر حي حتى لا يبقى في الحياة غني وفقير ، وعظيم وحقير ، وقوي وضعيف ، وطرفة خالد حتى تتبدل الحال غير الحال ، وينقلب الزمان غير الزمان .

(2) نظرهما إلى الموت

نظر زهير إلى الموت بمنظار الإجتماع فرآه على الأحياء أظلم من الحياة ، فهو يسير على ضلال ، ولا يميز بين بر وفاجر ، أو يفرق بين هم هرم وفتى فتي ريان ، أو عجوز نحس دردبيس وفتاة طاهرة رخصة كوردة الربيع ، قال :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

وآمن زهير بصانع عاقل حكيم ، والحكيم لا يكون إلا عادلاً ، وإذا كانت الحياة ظالمة لا عدل فيها ، وإذا كان الموت أظلم من الحياة فلا بد من أن يكون هنالك حياة يهيمن عليها العدل ، وينال الإنسان فيها جزاء ما صنعت يداه ، إن خيراً فخيرا ينال ، وإن شراً فعقابا يصيب ، قال :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

أما طرفة فقد نظر إلى الموت بمنظار وجدانه ، ورآه من نافذة آلامه فرآه جباراً قوياً لا ينجو منه جبار ، ولا يفلت من قبضته شجاع مقدام ، قال :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد(1)

---

(1) يعتام : يختار ،والعقائل ، كرائم المال والنساء ، والفاحش : البخيل ،

ونقم طرفة على الأقوياء في الحياة ، وقصر في الإنتقام منهم ، فرأى الموت أقوى من الظالمين المستبدين ، يستبد من أولئك ويأخذ للمستعبدين حقهم من هؤلاء ، وإذا أرخى الحبل للأقوياء ، وأطال في عمر الأحياء ، فلأنه مطمئن إلى قوته وسلطانه قال :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد[1]

ورأى طرفة في الحياة ظلما ونفاقاً ، وغدراً وخداعاً ، وجوراً واستبداداً ، يستعلي بعضهم ويستكبر ، ويذل غيرهم ويشقى ، يمشي الأقوياء في الأرض مرحاً ، ويزحف الضعفاء على التراب ذلاً وهوانا ، فرأى في الموت حكماً عادلاً وحاكماً قادراً منصفاً ، يساوي بين الكبير والصغير ، ويجمع في حفرة صغيرة بين الغني والفقير ، والبخيل والكريم . وإذا كان في الموت مساواة ، فلا حاجة إلى حياة أخرى ، لأن العدل المساواة ، قال طرفة :

أرى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوي في البطالة مفسد[2]

(3) الحكمة في شعرهما

زهير في حكمته مصلح إجتماعي ، وطرفة ساخر مستهزىء ، وقد نظر زهير الى الحياة نظرة المصلحين، وهاله ما رأى بين الناس من نزاع وخصام ، وعداء وحسد وقتال ، فرآهم أهلاً للرحمة والإصلاح ، لا عرضة للوم والإحتقار والانتقام ، فقام يدعو إلى التعاون والإخاء والسلام ، قال :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

ومزايا الإنسان المتمدن العاقل اجتماعه وتعاونه وإخاؤه ، وإذا كان هذا الإنسان الضعيف قد أخضع السباع لسلطانه ، وروض الوحوش لخدمته ، وسخر

---

(1) الطول : الحبل وثنياه طرفاه .

(2) النحام : الحريص على الجمع والمنع .

قوات الطبيعة بعلمه وذكائه ، فقد كان التعاون ركناً قوياً من أركان القوة والرقي والنجاح ، وإذا كان التعاون ركن الإجتماع فالوفاء بالوعود من دعائمه ، قال زهير :

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمجم

وشر آفات الإجتماع الحرب ، ولذلك حمل زهير على الحرب حملة شعواء ، ووصفها بشر ما يصفها شاعر ، وكان همه منها شرورها ونتائجها ومظالمها ، وتهتم حكمة زهير بالأفراد كما تهتم للإجتماع قال :

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

وقال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم[1]

وفي هذين البيتين فكر جميلة لا تخلق ، وحكم سامية لا تبلى ، وإذا أردنا أن يحترمنا الناس فلنحترم نفوسنا ،واذا أردنا أن نكرم فلنفعل ما يدعو إلى الإكرام ، أما الشر فلا يبتعد عنا إلا إذا ابتعدنا عنه ، ولا يصيبنا إلا إذا تحرشنا به ، والشر قوي جبار ، له يدان من حديد ، وقبضتان من فولاذ ، ولكن في هذا الجبار القوي ضعفاً فهو مقعد لا يستطيع أن يسعى ، ومن ابتعد عنه نجا منه ، قال أحد الحكماء : « إن للقتيل يداً في القتل قد تفوق يد القاتل » .

أما طرفة فقد شبع من الحياة بعدما ذاق حلوها ومرها ، وتقلب في نعيمها وبؤسها ، فثار على الحياة وأبنائها ، وانتقل من النقمة والثورة إلى السخرية والإستهزاء ، فأصبح لا يبالي بنعيم أوعذاب ، ولا يهتم بسعادة أو شقاء ، ولا يفرق بين الموت والحياة ، قال أفلاطون :« لا فرق بين الحياة والموت » وقال الفلاسفة الساخرون : « لا لذة في الحياة ولا ألم » وقال طرفة :

---

(1) من دون عرضه : يحميه ، ويفره من وفر : حفظه .

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي   فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وإذا كانت الحياة هزءاً وسخرية فلم يحرم الإنسان نفسه من الملذات ، وإذا لم يكن بعد حياة فلماذا نموت جياعاً محرومين ؟

وحكمة زهير حكمة الشيوخ المجربين رأى أن الإنسان ما يزال بعيداً عن الكمال يؤلمه قول الحق ، ويثيره النصح والإرشاد ولا يستطيع المرء أن يعيش في هذه الحياة بدعة وسلاماً واطمئناناً إلا إذا صانع الناس وداراهم ، قال برنارد شو « من جاوز الأربعين منافق » وقال زهير :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة   يضرس بانياب ويوطأ بمنسِم[1]

والمصانعة من شيم الشيوخ الذين يرون سبل الصلاح باللطف واللين والدهاء ، أما الجرأة والصراحة واقتحام الأمور اقتحاماً ، فمن مزايا الشباب ، وأما النفاق فغير المصانعة ، والمداراة غير الرياء .

وحكمة طرفة حكمة الشباب الناقم الثائر ، وأكثر ما تقوم الثورات في العالم على أكتاف الشباب الصادقين ، قال طرفة :

ولكن نفى عني الرجال جراءتي   عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

وإذا لم يقدر الشاب على أن ينتقم من الظالمين انتقم من الحياة ، وإذا لم يستطع الثورة على النظام ثار على نفسه ، وإذا يئس من الإصلاح تحول ما في نفسه من قوى الإصلاح إلى العبث والمجون ، والشباب طموح فإذا خاب تبدل طموحه سخرية فأصبحت مقامات الاشراف عنده كالخمارات ، وكثيرون هم الشباب الطامحون إلى الرقي والمجد ، الراغبون في الصلاح والإصلاح ، فإذا تألبت قوى الشر عليهم ، ولم يستطيعوا الصمود أمامها انصرفوا إلى العبث من ملذات الحياة قبل أن يدركهم الموت ، وأصبح العيش عندهم نشوة ، والعمر سكرة ، وباتوا يداوون

---

(1) المنسم ، بفتح الميم وكسر السين : خف الجمل .

الخيبة بالسكر ، والهم بالغواني والخمر ، ثم لا يلبثون حتى يصفوهما للناس من الهموم دواء ، ومن متاعب الحياة شفاء ، قال طرفة :

متـى تأتنـي أصبحـك كأسـاً روية　　وإن كنت عنهـا ذا غنـى فاغـن وازدد

وحكمة زهير عامة ، تصلح لكل زمان ومكان وتليق بكل فئة من فئات الناس ، وما يزال الكريم من كرم نفسه ، والذليل من أذلها ، سواء أكان شيخاً حكيماً ، أم كان جاهلاً غريراً ، وما زال الناس كلهم يكتمون أسراراً وعبثاً يفعلون ، ومن الحف يرد ، ومن وفى لم يذم ، أما حكمة طرفة فخاصة بالخائبين الخاسرين ، وليست الحياة كلها لهواً ومجوناً ، أو مخاطرة وسكراً ، أو إسرافاً وتبذيراً .

وحكمة زهير أقرب إلى التعقل والتفكير ، وحكمة طرفة أميل إلى الطبع والعاطفة والشعور ، وكلاهما اكتسب من التجارب خبرة ، ومن الأيام حكمة ، ولكن تجارب زهير أوسع ، وتجارب طرفة أقوى وأشد ، وإذا كان زهير شاعر التعقل والتفكير ، فطرفة شاعر العاطفة والثورة ، وإذا كان زهير حكيم الشيوخ المصلحين ، فطرفة حكيم الثائرين الساخرين .

التمثيل

الشعر في تطوره أربعة فنون الملحمي والنفسي والحكمي والتمثيلي ، والتمثيلي أنواع منها القصصي وقد نشأ مع الملحمة والقصة وغاية الشاعر فيه وصف معركة ، أو تمثيل قصة ، وإذا كان للقصة مغزى حكمي ، أو كان للوجدان في القصة التمثيلية أثر ظاهر ، فالغاية التي يهدف إليها هذا النوع القصة والخبر ، ومنها التمثيل الوجداني وغرض الشاعر فيه التعبير عن عواطف الممثلين ، وتمثيل مشاعرهم وإحساساتهم ، أما القصة والحكم والأخلاق فإنها في هذا النوع من الشعر التمثيلي أغراض ثانوية تخدم الوجدان ، وتعبر عن النفس ومشاعرها ، ومنها التمثيل الحكمي ، وغاية الشاعر فيه النصح والإرشاد ، وتتغلب الحكم في هذا النوع من التمثيل على القصة والوجدان .

ومن الشعر التمثيلي التمثيل الأدبي الخلقي ، وغاية الشاعر فيه التعليم والتثقيف والتهذيب ، وهو يتخذ من القصة سبيلاً إلى التعليم ، ومن الوجدان وسيلة إلى التأثير الخلقي ، ومن الحكم طريقاً يسلكها إلى التربية والتثقيف ، والحكيم العاقل يعرف أن الشرائع قل أن تفيد ، وأن القوانين والوعظ والإرشاد قل أن تنفع ، ولذلك يعمد إلى الصفات فيمثلها بشرا أحياء يمثلون أدوارهم على مسارح الحياة فيكون لانتصار الفضيلة من الأثر في النفوس ما ليس للأوامر والقوانين ، ويكون لخيبة الرذيلة وانهزامها من التأثير ما ليس للنصائح والشرائع ، وليست شيمان في رواية السيد فتاة يهم المؤلف أمرها ، ولكنها صراع بين الحب والشرف ، وليست كليوبترا في مسرحية شوقي ملكة فحسب ، ولكنها حب الوطن وتفديته بالنفس .

ومن المسرحية المأساة وهي التي تنتهي بموت أو فاجعة ، والملهاة وفيها هزل ونوادر ، ومنها الجدية والهزلية وغير ذلك مما يتعلق بحوادث المسرحية ونهايتها ، ومنها التاريخية والغرامية والخلقية إلى آخر ما هنالك مما يتعلق بموضوعات المسرحية ونواحي الحياة .

ولم يعرف العرب التمثيل في الجاهلية لأن التمثيل يتطلب حضارة وإقامة ،

ولم يعرفوه بعد ذلك لأسباب دينية ولأنهم لم يترجموا المسرحيات ، أما في النهضة فقد عرفناه متأثرين بالغرب ومقلدين ، وأعجبنا به فأبدعنا وأحسن بعضنا الإبداع .

وأول من مثل مسرحية في الأدب العربي رجل لبناني أسمه مارون النقاش . وكان تاجراً ولكنه تاجر مثقف ، قام برحلة في أوروبا فأعجب بالتمثيل ، وعندما عاد إلى بيروت ترجم رواية البخيل لموليير ، وتصرف في ترجمتها ، ثم جمع نخبة من أصدقائه فتمرنوا على تمثيلها ، ولما أجادوا التمرن مثلها في داره سنة 1848 وحضر التمثيل قناصل الدول الأجنبية وعدد كبير من أعيان بيروت ومثقفيها فأعجبوا بجودة التمثيل وهنأوا مارون النقاش على ابتداعه وإبداعه ، وكان لتمثيل هذه الرواية دوي كبير تجاوز البلاد العربية إلى الغرب فقرظتها صحف أوروبة ، وكان لهذا التشجيع أثره في مارون النقاش فوضع رواية « أبو الحسن المغفل » ومثلها في داره ، ولم يقل أثرها عن أثر ـ البخيل ـ ، وانتشر اسم النقاش واشتهر بالتمثيل فأنشأ مسرحاً في داره ومثل رواية ـ الحسود ـ وغيرها ، وكان يجمع بين التمثيل وعمله في التجارة ، ولذلك لم يستطع أن يصل بالتمثيل إلى ما ينشده من السمو والرقي ، ومات مارون النقاش سنة 1855 وهو في قضاء بعض أعماله التجارية في طرسوس ، وفي سنة 1869 طبع مؤلفاته أخوه نقولا النقاش في كتاب سماه ـ أرزة لبنان ـ .

وبعث مارون النقاش فن التمثيل في لبنان فأخذ الأدباء يضعون المسرحيات أو يترجمونها ، وانتشر التمثيل في المسارح العامة والخاصة وفي المدارس ، وممن اشتغل بالتمثيل بعد مارون النقاش سعد الله البستاني وسواه ، ونبغ في هذا جماعة من الهواة اتقنوه ونهضوا به وكانوا يمثلون مطبوعين راغبين لا مأجورين متكسبين ، ونشط الأدباء إلى وضع المسرحيات أو ترجمتها وأشهر هؤلاء سليم النقاش ابن أخي مارون النقاش وأديب اسحق ونجيب الحداد ومن أشهر مسرحياته صلاح الدين الأيوبي والسيد ، وخليل اليازجي وله رواية المروءة والوفاء ، ولا يزال الأدباء يعالجون هذا الفن إلى اليوم .

وفي سنة 1869 احتفل الخديوي اسماعيل بافتتاح قناة السويس ، ودعا إلى

هذا الإحتفال ملوك أوربا ورجالها ، وأنشأ دار الأوبرا ، ودعا إلى التمثيل فيها نخبة من ممثلي الأفرنج وأول رواية مثلت فيها رواية عايدة باللغة الفرنسية .

وتحدث الناس يومئذ بعظمة اسماعيل وفخامة مسرحه ، ورغبته في الشهرة ، وإكرامه للادباء ، فذهب إلى مصر جماعة من أدباء لبنان وكتابه وشعرائه ومنهم سليم النقاش وأديب أسحق ، وكان سليم النقاش أول من مثل المسرحيات العربية في مصر ، كما كان عمه مارون النقاش أول من مثل مسرحية عربية في لبنان .

وساعدت الحكومة المصرية التمثيل في مصر ، وشجعته ، وأرسلت الممثلين النوابغ إلى أوربا للتمرين فارتقى التمثيل هناك ، وعمل استبداد عبد الحميد في لبنان والشام على تقييد الحريات وكم الأفواه فانحط التمثيل هنا كما ارتقى هناك ، ومن نوابغ الممثلين في مصر جورج أبيض ويوسف وهبي وسواهما .

وما كاد التمثيل يسير في سبيل الرقي والتقدم ، ويرقى في سلم التفنن والازدهار حتى كانت السينما فكادت تقضي عليه .

الترجمة

ما تحضر العرب في العصر الأموي والأعصر العباسية وفتحوا عيونهم على آثار الأمم ، ورأوا ما فيها من كنوز أدبية وعلمية وفلسفية حتى نشطوا إلى الترجمة والإطلاع على ما عند غيرهم من مدنية ورقي وثقافة .

وقضى العرب على ملك الأكاسرة في الشرق ، فدخل الفرس في الإسلام أفواجاً ودرس نوابغهم اللغة العربية واتقنوها فأخذوا يترجمون آثار الفرس إلى العربية ، وأشهر ما ترجموا عن الفارسية كتاب كليلة ودمنة ، وتاريخ ملوك الفرس ، وكتاب زرادشت ، والشاهنامة ، وغيرها من كتب التاريخ والسير والأدب .

وترجموا عن الهندية رسائل في الرياضيات والأخبار والأدب والنجوم والطب ، وترجموا عن الكلدانية والعبرانية وغيرها من اللغات الشرقية شيئاً من العلم والأدب .
ولكن الترجمة عن اليونانية كانت أكثر انتشاراً ، وأقوى أثراً في العلم والفلسفة والمنطق والتفكير ، وقد ترجموا عن أفلاطون نحو عشرة كتب منها جمهورية أفلاطون المشهورة ، وترجموا عن أرسطو نحو عشرين كتاباً ، وعن أبو قراط نحو عشرة كتب في الطب ، وعن جالينوس أربعة وستين كتاباً في الطب أيضاً ، وعن أقليدس سبعة كتب في الرياضيات والنجوم ، وعن أرخميدس عشرة كتب في الطبيعة ، وعن غير هؤلاء كتباً كثيرة في الرياضيات والطبيعيات والعلم والحكمة .

والكتب المترجمة عن الفارسية حسن أسلوبها ، سهل تركيبها ، بليغ إنشاؤها ، وكان للترجمة عن الفارسية أثر قوي في تسهيل اللغة ، وتجميل إنشائها ، وإمام الطريقة الأولى من طرق الإنشاء العربي الأربع فارسي ، وتتصف هذه الطريقة بالمساواة والسهولة الممتنعة ، والبلاغة في رأيها هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها ، وإمام هذه الطريقة ابن المقفع الفارسي ، وأجمل مثال عليها كتاب كليلة ودمنة .

أما الترجمات عن اليونانية فقد كان ضعيفاً أسلوبها ، ركيكاً إنشاؤها ،

معقداً تركيبها حتى كان من المترجمين من يرى أن تكون الترجمة كلمة كلمة ، وفي ذلك من التعقيد والركاكة والضعف ما فيه .

وكان للترجمات أثر كبير في اللغة والأدب والفكر ، ففي اللغة أفادت مفردات كثيرة لا عهد للعرب بها من قبل ، ولم تقتصر هذه المفردات على ناحية واحدة من نواحي اللغة بل شملت النبات والحيوان والأمراض والأدوية والماعون والفراش والمآكل والمشرب وسائر مرافق الحياة ، ولم يكن العرب في نهضتهم القديمة ليفتشوا عن كلمات جديدة في شعر الشنفرى أو تأبط شرا ، أو في لغة الكهان ، بل كثيراً ما كانوا يعربون الكلمات تعريباً ويتصرفون فيها حتى تتفق وأوزان الكلمات العربية وكثيراً ما اشتقوا من الأسماء التي عربوها أفعالاً تصرفوا فيها تصرفهم في الكلمات العربية الأصلية فقالوا فلسفة وفيلسوف وتفلسف ومتفلسف ، وقالوا هندسة وهندس ومهندس ، وكانوا أحياناً يخرجون بالألفاظ العربية عن معناها القديم لتتفق وما تجدد عندهم من معان وأفكار وبهذا وذاك أصبحت اللغة العربية من أوسع اللغات وأطوعها وأقدرها على التعبير عن العلم والفلسفة والأدب .

أما في الأسلوب والعبارة فقد استفادت اللغة في ناحية ، وأصابها الضرر في ناحية أخرى ، استفادت لينا وسهولة وقدرة على التعبير عن العلم والفلسفة والأدب ، وليس بالقليل على لغة إعراب البادية ورعاة المواشي أن تستطيع التعبير عن فلسفة أفلاطون ، وحكمة أرسطو ، وطب جالينوس ، وهندسة أقليدس ، وفيزياء أرخميدس ، ولكن أكثر المترجمين عن اللغة اليونانية كانوا من السريان فغلب الأسلوب الأعجمي على الكتب المترجمة ، وتأثر العلماء والفلاسفة بهذا الأسلوب فضعفت لغتهم وتعقد تركيبهم .

وكان للترجمة أثرها في الشعر العربي ، ولكن تأثيرها فيه أقل من أثرها في النثر لأن الشعر أقرب من النثر إلى الفن ، والصق بالأدب منه ، واقتصر أثر الترجمة في الشعر على الأفكار والمعاني وقلما أثر في الأسلوب ، والحق أن أسلوب الشعر قلما تأثر منذ العصر الأموي الى اليوم .

ولأبي نواس خطرات تفلسفية تأثر فيها بالفرس ، وزهد أبي العتاهية متأثر بما ترجم من كتب النصارى ، وأبو تمام متأثر في بعض معانيه بما ترجم من حكمة اليونان ، وتفلسف المعري متأثراً بالترجمات إلى حد بعيد، وقيل ان للمتنبي نحو خمسين بيتاً ومائة بيت من الحكم اليونانية المترجمة ، وبعضها يكاد يكون بالحرف الواحد . قال أرسطو « الزيادة في الحد نقص في المحدود » وقال المتنبي :

منى ما ازددت من بعد التناهي   فقد وقع انتقاصي في ازديادي

ومثل هذا الشعر متأثر بأسلوب الترجمة تأثره بمعناها ، وهو إلى لغة التفلسف أقرب منه إلى لغة الفن والأدب . وهناك شعر فلسفي كعينية ابن سينا وهو ثمرة الترجمة وكأنه علم لا فن ، ونظم لا أدب .

وكان من تأثير الترجمة في الفكر العربي القديم أن غلب التنظيم المنطقي على التأليف ، فالكتب التي لم يتأثر أصحابها بالترجمات متفرقة في موضوعاتها ، مختلفة في أبحاثها ، بعيدة عن التنظيم في أفكارها ، والتسلسل في معانيها ، فلا وحدة فيها ولا تنظيم ، وهي ميالة إلى الأدب أكثر منها الى العلم ، أما الكتب التي تأثر واضعوها بالترجمة فتغلب عليها الوحدة في الموضوع ، والترتيب في الأبحاث ، والتنظيم في المعاني ، والفكر فيها أرقى من الأسلوب ، والعقل أظهر أثراً من الخيال والبيان .

وإذا كان العرب قد ترجموا فإنهم لم يكتفوا من العلم والأدب بما ترجموه ، بل زادوا وأبدعوا ، وفهموا وابتدعوا ، وكان لهم في الطب ابتداع واختصاص ، وفي الكيمياء تجديد واكتشاف ، وفي الفلسفة علم وإبداع ، وفي التاريخ والجغرافية وسائر العلوم ابتداع وريادة وبراعة ، قاسوا طول الدائرة ، وعرفوا مواقع النجوم ، وزاروا البلدان البعيدة ووصفوها ، ونظموا الكيمياء والفيزياء والجبر ، والجبر كلمة عربية ، والكحول كلمة عربية أصلها الكحل ، ولولا الترجمات ما اشتغل العرب بمثل هذه العلوم ، ولم ينشئوا تلك المدنية الزاهرة التي تعد من أرقى المدنيات قبل نهضة أوربا الحديثة .

وكانت عصور الظلم والجهل والانحطاط ، فنام العرب على تراب الجهل زماناً طويلاً ، حتى إذا دوت مدافع نابليون في مصر ، أفاقوا من نومهم العميق ، واستيقظوا من سباتهم الطويل ، وتطلعوا إلى النور فرأوه من الغرب يضيء ، فأقدموا على الترجمة ، ينهلون بها العلم من معينه ، ويستلهمون الأدب من مناهله ، فترجموا في الطب والكيمياء والفيزياء والفلسفة والعلوم ، وترجموا في القصص والروايات والمسرحيات والأدب وسائر العلوم والفنون ، واشهر أثر أدبي الياذة هوميروس ، ترجمها سليمان البستاني .

وأثرت الترجمات في العقول فرقتها ، وفي الأخيلة فوسعتها ، وفي الأسلوب فسهلته ، وفي الفكر فنظمت أبحاثه . ولم يقل العرب في نهضتهم الحديثة عن نهضتهم القديمة في الأعصر العباسية تأثرا بالترجمات فدرسوا وفهموا ، وأخذوا وابتدعوا ، وترجموا وألفوا ، وانتشر العلم بين الجماهير انتشاراً واسعاً فكثر المترجمون ، وكثرت الكتب المترجمة وتعددت الموضوعات التي ترجموا فيها .

ورأى العرب في النهضة الحديثة ما رآه جدودهم من أشياء لا عهد لهم بها في لغتهم ، ولم يجدوا مركزاً موحداً يرجعون إليه في تعريب الألفاظ أو نحتها ، أو وضع مفردات جديدة موحدة لها فاختلفوا ، ولن يزول خلافهم حتى يكون لهم مرجع واحد يحترمونه ويعودون في التعريب والنحت والوضع إليه ، فهنالك الدخينة واللفافة ، وهناك التبغ والطباق ، والنتروجين والآزوت ، وبولونيا وبولندا وغير ذلك من مظاهر الخلاف والتفرقة .

وكثر القراء فكثر المترجمون ونقلوا إلى اللغة العربية الصالح والرديء ، والبديع والساقط ، وكان عدد كبير من المترجمين لا يحسن اللغة العربية ، ولا يحسن الإنشاء البليغ ، فكثرت الأغلاط في الترجمات ، وهيمن على كثير من الكتب المترجمة الأسلوب الأعجمي ، وكان لذلك كله أثر في أسلوب الكتاب ، وتأثير في عبارة الكتب الموضوعة ، وقلما خلا كتاب من أغلاط في ألفاظه ، وضعف في تركيبه ، وتعقيد وعجمة في أسلوبه .

وأثرت الترجمات في الفكر العربي ، فألف العلماء في الطب والطبيعة وعلم الأحياء وغيرها من العلوم ، فأحسنوا الوضع والتأليف ، وألف الأدباء في الملاحم والقصص والروايات والمسرحيات وغيرها فأجادوا الفن ، وأحسنوا في الإبداع ، ولولا الترجمات ما كانت البلاد العربية على ما هي عليه اليوم من نهضة مباركة في العلم ، ورقي جميل في الفن والأدب .

فهرست

من منشورات
مجد

الفرح في شعر سعيد عقل	د . جورج زكي الحاج
ابو العلاء المعري	د . علي شلــــق
ابـــو النـــــواس	د . علي شلــــق
المتنبــــــي	د . علي شلــــق
ابـــن الرومـــــي	د . علي شلــــق
نحن نحب الشمس	محمد عبد الملك
السيـــــاج	محمد عبد الملك
اديان العـرب قبـل الاســلام ووجههـــا الحضاري والاجتماعي	الاب جرجس داود داود
الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي	واضح الصمــــــد
اسماء الناس ومعانيها	حسن نمر دندشي
الفائزون بجائزة نوبل للآداب	عبلة الخـــــوري
اصبع ولا ووجه آخر	جوزف صـــادق
وردة الصحـــــراء	حنان الشيخ
خارج اللعبــــة	خوان موليا ، ناديا شعبان
أبنية الفعل في شافية بن الحاجب	د . عصام نور الدين
روضة المحبين ونزهة المشتاقين	العلامة شمس الدين محمد
منهجية الترجمة التطبيقية	د . جوزف شريم
المدخل الى المأساة والفلسفة المأساوية	د . انطوان معلوف
مذاهب الأدب ، معالم وانعكاسات ٢ ـ الرمزيــــــة	د . ياسين الايوبي

من منشورات
مجد

مقام القوس واحوال السهم	سمير الصايغ
طعم الزمان	د . علي شلق
عيون	كلثوم عرابي
مختارات من لوركا	ناديا ظافر شعبان
إلحلم والعنقاء	د . ميشال سليمان
ديوان نعمة الحاج	نعمة الحاج
الصيد والطرد في الشعر العربي	د . عباس مصطفى الصالحي
الرأس المقطوع	انسي الحاج
لن	انسي الحاج
ليس للمساء اخوة	وديع سعادة
أشياء وحيدة بين الأنقاض	حسين فران